تـــأَخَّـــر الـــوداعُ؛ ولَـــكِـــنْ..
الكاتب: النح/ الداه/ بيده

ملاحظة: بعد هذه الطبعة الأخيرة. مع أنه لا يوجد اختلاف كبير.

بعد الكثير من التفكير والتأني؛ رأيت أن لهذا الكتاب، أو الرواية؛ أو القصاصة، أو اللاشيء عليَّ حق، فعهدت لنفسي أن أؤدي عن نفسي هذا الحق. وحَق الكتاب على صاحبه، أن يظفر به كل من يريد أن يقرأه. لذا فقد آثرت هذا الحق على الربح من النسخ الورقية، التي لا يزال بعضها يُزين رفوف المكتبات. مع أن النسخ التي بقيت منه قليلة –جدا– وقد أوشكت على النفاد.
أعلم أن الكتب تحيا ما حيي أهلها. وتحيا بعدهم؛ وأعلم –أيضا– أن أسهل طريقة لقتل الكتب هو صياغتها عن طريق **pdf**. لكن ما بِي الأمر حيلة. أعلم أن القراء يحبون الكتب. لكنهم أيضا يحبون المال؛ وهذا الأخير لا يُلام أي شخص في حبه. أي المال؛ فهو السلاح لمن أراد كلاما. وهو –أيضا– الفصاحة لمن أراد كلاما.
صِغت هذا الكتاب على الصيغة المتعارف عليها. والتي قرأ معظمنا عن طريقها. وهي صيغة حسنة السمعة. بالغة التأثير؛ وهي التي عن طريقها قرأت كل الكتب. سواء التي أحببت؛ أو التي أحببت صاحبها. لكني عن طريق هذه المغامرة. وهذا المجازفة أدخل من نفسي في تحدٍ من نوع آخر. وهو تحدٍ يبدأ صاحبه من الصفر وأتمنى أن يكون هو نفس الصفر الذي بدأ منه الأغنياء حياتهم وقد رأى كل واحد منا. مدى تأثير ذلك الصفر؛ وقد أيْقنا أن الأصفار ليست كلها واحدة. وأنها ليست كلها يتبعها الرقم واحد. وأن بعض الأصفار تخطث صاحبها حاجز المليون. وأن بعض الأصفار، لا يزال أهلها يتعثرون عند أول مطبٍ. ويسقطوا في أول اختبار وهم لم يصلوا بعد إلى حاجز المئة. هكذا الدنيا يا صديقي كل ما فيها أرزاق، وكل الأرزاق بينها تفاضل.

هذا شقي، وهذا سعيد. وهذا كريم، وهذا بخيل. وهذا مؤمن وذلك منافق. وهذا صادق الوعد، وذاك ناقِضه. وكل ما فيها مخلوق. وكل ما فيها خُلق على قدر.

يا ولدي أحب الأعمال إلى الإنسان؛ هي الأعمال التي بدأ بها. وهي التي صعد بها أول السلَّم. لأنها هي الأساس. وكل ما بعدها قد يطلق عليه أي اسم. إلا الأساس. لذا فلا تلُمني في حب هذا الكتاب عن غيره من الكتب. فشأني في هذا الكتاب؛ هو شأن الأم في ولدها الأول. -البكر- مهما بلغ به السوء. تظل تحبه، وتغني له. وترقص له. لأنه هو النور في حياتها الذي عن طريقه أبصرت الدنيا. وأنا عن طريق هذا الكتاب أصبح -لي- اسم آخر غير اسمي الذي تعوَّد أهلي وكل معارفي أن ينْعتوني به.

فلا أحب أن أطيل عليك. لكني أتمنى أن تقرأ هذا الكتاب. وإن لم تكمله على الأقل إقرأ بعضا منه. لأني أريد أن تقرأ لي هذا الكتاب. وتقرأ لي بعض الكتب الأخرى، والتي على نية البدء فيها من جديد. أكثر جرأة في قول الحق. ونبذ الباطل.

"وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا".

تـنـويـه!!.

عزيزي القـارئ، هـذا الكتـاب ليس مجرد كلمـات تُقرأ، بل أبواب تُفتح على ماضٍ قد تهرب منه، أو مسـتقبل لم تفكر فيه بعد!. وبين صفحاته ستجد لحظات دهـــشة، ووقــفات تــأمل، ولربما جزءً من حكايتك الخاصة، ولن أعدك بإجابات جاهزة، ولكني أضـمن لك رحلة لن تنسى، ورفيقا للأبـد، يبقى معـك حتى بعـد أن تطوي الصـــفحة الأخيرة.

-هل تعلم لمَ أُنـــــاديك عزيزي القارئ، ربما لأني كنتُ -من قبل- عزيزا على كاتب، كان يُمني النفس على أن تلتقط يديَّ كتابه هذا الذي كان يرى فيه نفسه.

أما عني فقد صــرتُ اليوم كاتبا. -ولكن ما أريد قوله لك عزيزي القارئ هو أنك مقبل على هذا الكتاب؛ والذي هو ليس برواية، ولا هو بقصة، ولا هو بكتـاب -أيضا- ولا هو ســـيرة ذاتية، ولا هو رحلة بحث عن هجرة ربما تكون شــرعية، أو غير شــرعية؛ والذي أردت قوله حقا! هو أنك

في كل مرة تقلب منه صـــفحة، أو تكمل منه كلمة، أو أن تُنهي منه فقرة؛ فهو ســيأخذك بعيدا، وبعيدا جدا، حتى بعد قَـلْـبِـكَ آخر صفحة فإنك ستعيد القراءة من جديد، لتسأل نفسك كما قلت أنك حتما ستسائل لتعيد غربلة أفكارك من جديد إذ أنه لا بد من تعيد التفكير من جديد.

-وما أضــمنه لك هو أنك ســتجد هنا صــديقا لك لربما هو جديد عليك اليوم، أو أنك كُنْتَه يوما؛ في زمن ما من عمرك الضائع. وكلما في الأمر أنك ستجد هنا كتابا، لا هو طويل يكون ممل ولا هو قصير أيضا يَمْقُتُ، وهو كتاب نسـتطيع أن تنتـــــهي منه في جلسـة واحدة؛ ولكني حينما تنتهي منه فحـتـما عليـك أن تعيد قرائته من جديد لتعاتب نفســـك بأن تقول، أن هذا النوع من الأصـــدقاء يجب ألا ننتهي منهم ومن معاشـرتهم، بعدما أن نصـل إلى الصـفحة الأخيرة منهم.

"تحياتي لـك على هـذه الثقـة الزائـدة في نفســـي، وحسن الظن فيك"

مقدمة

"هنا تلك المقدمة التي لا يسعى صاحبها لتقديم شيء!"

" لم تكن المقدمة ســـوى مدخلا للقارئ بأن يفهم محتوى ذلـك الكتاب الذي بين يديه، أما الآن وقد صارت مخرجا، ومدخلا في نفس الوقت لأننا قد بُلينا بقراء لا يتعدى أحدهم الإهداء وقد يغلب عليه الغلاف، وحتى العنوان، وحتى الكاتب، وهي كلها قد تكون سببا في اقتناء ذلك الكتاب؛ لأني لســـت -أيضـــا- بمنأى عن تلك المناكفات التي سبقتْ لأني نادرا حينما يتعلق الأمر باختيار كتاب فإني كنت أَعْمَدُ إلى نوع الكاتب أولا أَهُوَ يليق بي أم لا! والحقيقة أن بعضهم يليق بي، وكثر هم الذين لم أقرأ لهم؛ وقد يلحظْ ذلك بعضـــكم، أو يفوته؛ ثم يمضـــي هو يتسائل، ماذا أقصد أنا بهذا الذي قلت، وأنا لن أردَّ لا على من سأل؟ ولا حتى الذي تسائل! "

♡ تحياتي؛ لمن وصل إلى السَّطر الأخير!! ♡

الكاتب: النح/الداه/بيده.

الإهداء

"إهداء إلى التي لم تعلــمني يوما حــرفا واحــدا؛ وإنما علمتني حروفا كثيرة، وقالت: أن قيمة الإنســان في الذي يعرفه؛ ليس فيما يملكه، وإلى التي علمــتني أكثر من شيء، وهذا الوحـيد أي العلم، -وهو أفضل شيء، علمتني إياه- إليها يُهــدي قــلــمي حروفا كتبها وكل الأخطاء التي يصححها وكل طريق مَهَّدَهَا؛ وكل معروف يفعله؛ وفي كل فِعْلٍ خَيِّرٍ ســـاهم فيه، من قريب أو من بعيد إليها أُهدي نفســي مع كل تلك الســبل التي ســلكتها وكل تلك الطرق التي أَنَرْتُها؛ هذا قلم ابنك المتواضع؛ ولكنه تَكَبَّرَ لأن يَبْلغ تلك المنزلة التي وصــــلتِ؛ لَعَلَّه يقــــطف شيئا من ينابيع حكمتك التي أوصلتنا للذي نحن الآن عليه.

إن الإهداء حينما لا يوجه إليك، فإنه يبقى جافًا لا مشاعرَ ولا أحاسيــس فيه؛ لأن القلب الذي يحس، ويبصر هو قلبك وحدك؛ أما نحن فنكتفي بالتقليد؛ تقليدك الأعمى لعلَّه يهدينا إلى ســبيل. لتلك الروح الطيبة تُهدى الكتب،

لأنها تعرف قيمتها. لتلك الروح أســأل الله لها؛ الثبات عند السؤال، ومجــاورة خير خلق الله؛ وإلى أبي أهدي دعــاءً دائمــا لا ينقطع؛ وإليها أهدي شـوقا لا يفتر، ووصـلا لا ينقطع مرة أصِلُه بالدعاء ومرات كثر أصلها بالشوق، لذلك الصوتِ الحنونِ، والذي بَقِــيَ البَعْضُ منه عالقًا في ذهني، ولكنه لا يسعفني في كل وقت وحين.

"يُــــــــوكِّــــي بِــــيــك أم"

"بـــــــــسم الله الـرحـمــن الرحـيـم"

كنت وأنا في الثانية عشـــر من عمري وهو الذي قد يكون فيما بعد عمرا، يقاربُ عمر نوح عليه السلام من كُثَرِ التجارب فيه والدروس، واســـتخلاص النتائج، فإن عمرا، مثل هذا طحـنـته السنين، وصَلَّبته المآسي؛ لابد أن يمتلك صاحبه مناعة قوية، تُكون له درعا، وسدا من الزلل، وحين تلمح الأعين شـيئا فإنها تضـع كل تلك الخبرات والحكمة جنبا؛على الرف والذنب ليس ذنب الحكمة لأنها فاعلة في كل وقت وحين، وإنما الذنب قد يكون ذنب تلك اللحظة بالذات، التي سـحرتْ وفتنتْ صـاحبها وجعلت منه أسـير تلك اللحظة، ولم يستطع الإقلاع في وقت كان قد حُدد له سلفا، ومن حكمه التي صدَّع بها رؤوسنا ولذا فإنه لابد أن يكون صدع رأسه هو الآخر ماقد أصاب رؤوسنا وَوَجد بُدًا منهـا، وكـانـت تقول: تلـك الحكمـة "إذا أبصـــرت العين الشهوة، عمى القلب عن العواقب".

وقد أضاع صاحبنا عمره رهنا لتلك الحكمة، وفي لحظة ربما تهور؛ كان قد تخلى عنها، لَربما لأنه لم يقتحم شيئا من قبل، ويخلع عنه الرداء ليكون بذلك عُرضةً لكل الأعين التي يمكن أن تستهوي النظر نحوَ شيءٍ كهذا؛ وأي شيء كان ذلك! ولكن أتمنى ألَّا تكونوا على عجل لأني وإنصافا للحق وذلك الشيء الذي ذكرتُ وربما أشياء أخرى؛ لا حصر لها؛ ويمكن أن تجدوا منها الكثير، حينما تتعقبوا معي في هذه التي قلتُ: من قبل أنها ولا شك ستكون تحفة، وإن لم تكن بالنسبة لكم، فلا شك بالنسبة لي. لذا فإن بمقدوري الآن المراهنة عليكم؛ أو المراهنة على عدد الصفحات التي قد تُملأُ حشوًا سلفًا؛ من كلمات لا حصر لها. وأتمنى لو يُحالفني الحظ هذه المرة فقد امتنعت عن الكتابة حينما كنت أريد أن أخوض متاهة، في بحر هذه المقطوعة، وقد تسلحتُ بكتب، أظنها قد تكون عونا لي وسندا، ودرعا من زلل لا شك قريب، وكل قريب آت. ولم يكن ذلك الامتناع، ولم يكن ذلك الصمت، إلا مقدمة لما قد يسدل الستار، على ذلك العجز، الذي صادف

صاحبكم من قبل حينما همَّ بتجربة أشياء كثر وبالمناسبة صاحبكم ليست له تجربة مثل عمر نوح.

ولكن صاحبنا شابَتْ سَوَالِفُه منذ أن كان في الطفولة، ويُروى أنه لم يعش طفولته كما كان يتمنى وما أنا متأكد منه هو أنه لم يكن لِيحلم بشيء اسمه الطفولة لقد وُلدَ والمشيب يزحف على رأسه شعرة شعرة؛ حتى أردتْهُ أبيضا مُثلجا كما هو حال الشيوخ الكبار ربما يرجع السبب إلى أنه كان الوحيد من بين ثلاثة إخوة وأخت والحقيقة أنه كان من العشرات الذي لاقوْا نفس المصير، الذي عاش هو؛ وربما كان له الفضل، بأن يكون الناجي الوحيد، من تلك الكتيبة، ومع هذا كله، فهو لم يجرب أن يضع نفسه في هكذا حينما يقع لا تكتمل تفاصيله كما هو مخُطط له، ربما لأنه لم يَسْعَ يوما لعمل شاق، أو حتى بشيء يتعلق بالخدمة العسكرية؛ لأنه كان يحس أنها شيء تافه، لا علاقة له بالوطن، وكان الوطن بالنسبة له هي تلك الأم التي أَقْعَدَها المرض، بعدما أنجبته، وكان آخر ما أنجبت هو؛ فقد كان آخر عنقود ذلك الزمن الجميل؛ ذلك الذي

لايمكن أن يملَّ السامع من سرد ذكريات أهله ولذلك الزمن أهلٌ عرِفوه وربما خَبِرُوهُ، وَخَبِرُواْ معه كل تفاصيله العميقة؛ والجميلة ومع هذا كله، فقد كان الحالم الوحيد، من بين العشرات.

ومن بين تلك الإخوة الأربعة، فقد حدثَ وأن ابتسمت له تلك الدنيا العابسة التي كشَّرتْ عن أنيابها، في وجه الأبناء الآخرين؛ الذين كانوا أيضا حالمون ولكن حلمهم عمره قصير؛ ما يفتئ حتى يتبخر ويصبح له صلة بالماضي ذلك الماضي الذي لو وصلنا عنه أي شيء لأمتنعنا عن القدوم؛ ولكنها الحياة كما عودتنا دائما، هو أن هدفها هو الإنجاب وطلب المزيد؛ والمزيد من الأحياء إلى أن يسدل الستار عليهم، ويبقوْ طيَّ الكتمان، أو النسيان، على أمل أن يجدوا من يُوقظهم من غفلتهم، ومن سُباتهم العميق.

كل هذا يحدث قبل أن يلتهمهم الموت الصارم، وهو موت، لا رجعة فيه؛ الأموات فيه لم يعد يجمعنا بهم، إلا

مجموعة من ذكريات لو وجدت أو بعض الصـــور لو أنها التُقطت أو حُفظتْ وتعيد لنا نفس الكرة، وتجدد العهد بنا من جديد، ويمكن أن تبدأ معنا فصلا آخـــر جديدا، يبدأ بالترحيب بالقادمين الجدد؛ وهم الذين قد لا ينتـــظر الواحد، منهم حينا من الدهر؛ إلى أن يبدأ هو الآخر يكشـرُ عن أنيابه؛ ويُلقي بالأشـــواك في طريقها، ولكنها أشـــواك لطيفة من شـجرة أكبر يُقال لها العظيمة؛ والتي وحدها كان بمقدورها أن تفتح لنا الباب الرحب.

حينما دَقَيْنا عليها، بحثا عن الأمان، وعن أيادٍ يمكن أن تلتقط الواحد منا، حينما يُوشك على السقوط فيتشبثُ أكثر؛ مهما طال الطريق فذلك من عظمة الهدف؛ ولكل واحد أهـداف، يعيش ليحققها كلها أو بعضا منها حينما لا يقدر على تحقيقها كما وضعها من قبل في ذاكرته، من قبل دون أن يتحيد عن بعضـــها، وقد كان بيننا من يفعل هذا، دون ملل، أو ضـجر، وإنما يعمل؛ ويبـــحث عن المزيد والمزيد من كل شـيء له صـلة بالتضـحية تلك التي كرَّس

صاحـــبنا معظم عمـــره لها، فبدأ من البيتِ الصغير؛ الذي حوى أولئك الذين تربطه بهم صلة القرابة.

وهذه الصلة كان لها الفضل للكثير من النجـــاحات، التي تقع في مجتـــــمعنا؛ لأنه مجتمع يعتمد النجاح فيه بالدرجة الأولى، في كـــلمة واحدة؛ وهي أنا ابن فلان، أو عَلَّان أو أنـا أعرف فلان وهو دلني على مكـانكم؛ لأن الدراسـة هنا محصـولها صـفر حينما تُفرط في أي معارف كانت! وحتى أن حارس الوزارة أو أي مؤسـسـة أخرى فإن كلمته فيها قد تكون أقوى تأثيرا وأشـــد وَقْعًا؛ من كلماتك أنت الذي سُـــجِنْتَ يوما، بين أربع جدران؛ في فترة من الزمنِ الذي شِـــيءَ له بأن يكون زمن عاقر لا يُنجب لغير أهله أو لغير ورثَتِه؛ وهي الأصـــح، في هذه الأرض الطيبة، وهي لا تثمر إلا لأهلها ونحن لســنا أهل لها؛ لأن نصـــيبنا منها غالبا ما يضـــيع منا حينما نكون منهمكين في البحث عنه، وهو قدر حينما يضـيع فلا أمل في رجعته، وبعـــــدما نجح في الوطن الصـغير، أو تلك النسـخة المصـغرة منه، والتي تُجرى عليـــــها بعض التـــــجارب، أو الذي يقال له

المنزل، أصبح لِيحلم بأكثر من ذلك، ربما بأشياءَ كثر لم يكن ليتخيلها لو لا أنه تخطى بأعجوبة تلك المحنة.

وقد كانت رحلة العمر طويلة؛ لكثرة ما فيها، وعن الذي فيها فقد كسب صاحبنا منها الكثير، وتعلم أكثر؛ لدرجة أنه أصبح بمقدوره الخوض في كل حديث، يُنشد أمامه، وكأنه شخص يحمل درجة الدكتورا، لكثرة ما عنده، وكأنه يستمد قوته من بحر لا نفاد له فَحَدَثَ كل هذا بفضل نجاته، من ذلك الماضي السحيق؛ والآن أصبح بإمكانه إعطاء دروس شتى في معظم المجالات، ومع هذا كله فهو لا يزال يكرِّس نفسه لخدمة تلك الأم المُقعدة وربما صار يسعى لتحقيق الهدف المنشود، الذي جعل كل بوصلته تتجه نحو تحقيق هدف سام، وهو هدف لا بد، أن يمكث في الأرض، وينفع الناس؛ وهذه الأخيرة، كانت كل حلمه.

ربما سعى صاحبنا أن يكون له أثر، قد يُذكر فيُشكر؛ وقد كان يَهْدِفُ بِالأَساسِ، أن يعمل على حفر اسمه بحروف من ذهب؛ لأن يبقى بعده يُخَلِّدُ ذِكراه؛ إن مات هو

ولا شك أن من حَيِيْ اليوم لا شك ذاهب غدا؛ وأنت الذي تعـــــيش هذا اليوم لا يزال بإمكانك فعل المزيد، مما قد يُـــــخَلِّدُ ذكراك، وينفع الذين يمكن أن يأتوا بعدك؛ وإننا حينما نعيش فإننا لا نعيش لوحدنا وإنما نحمل على عاتقنا كثيرا من المســؤولية ولهذا الســبب فلا أظن أنك قد تجد قيمة الحياة إلا حين تَحْيَا حياة، تُســعد بها غيرك ولا يزال بمقدورك أيضــا، إضــاءة تلك الحفرة، التي لا شــك أنك ماضٍ إليها من الآن، ولا شــك أيضــا مقيم فيها حينا من الدهر.

☆ ☆ ☆

وكان البدء مع تلك الرحلة، التي شــاء الله، بأن يكون صاحبــنا هو القُبطان فيها قد تكللت بالكثير من الصعاب؛ ولم تكن تلك الصعاب إلا مقدمة لِعِظَمِ الهدف.

بما أنه كان الفرد النشط من بين العشرات الذين شاء الله بأن ضــعُفتْ همتــــهم، لأنه كان يحلم بالكثير؛ وهذا الكثير، حَبَّذَا لو كان بالإمكان عــطفه على تلك السنــون،

التي لم يعش منها إلا بضعُ سنين وكان يُخيل لمن يراه أنه زَاحَمَ نُوحا؛ من قبل في العمر ولم يكن العمر يوما مقياس نُقيِّم به حجم الإنسان، بلى فلم نكن نُلقي ونضع بالا للعمر ولا للحجم فكانوا مجرد أرقام

بالنسبة لنا، وباستطاعة كل فرد؛ حَرِصَ على تحسين نظامه الغذائي، فهو لاشك بالتأكيد يمكنه أن يعيش حينا من الدهر؛ وفي المقابل نرى الذي يحرص على الأكل، بكل ما قد يتوافر في الأسواق والدكاكين، نراه وقد ازداد حجمه، ولكن مع هذا كله، فإن المجموع صفر والحاصل في النهاية حاصل طرح لا حاصل جمع.

وقد تتبع صاحبنا نظاما غذائيا هو الآخر؛ كان جيد في نظره لوحده ولكن في نظر الآخرين، كانوا يظنوه يمكن أن يُضيف إليهم أعباءً إضافية وهم المشغولون في كل شيء إلَّا الشيءُ الذي يمكن أن يُساهم في إنقاذهم هذا بعدما تخطاهم الرَّكب وأصبحوا في عَدَادٍ لم تعد له فائدة، ولم يعد يُغير شيئا في أي مُعادلة أضيف إليها، لأنهم في

الحقيقة ماتوا وهم أحياء، والأسوء هو موت الأحياء لأنهم حمل ثقيل؛ ليست له فائدة. ولكنهم كانوا يُمَنُّون النفس طمعا، فيما يمكن أن تجني يداه، تلك اليدين التي في انتظارهم أم عطشانة للمجد الذي يمكن أن يبنيه ولدها.

ولم يكن همُّ العشرة الباقية؛ والتي ليست لها همة سوى اللهو واللعب، وإشباع تلك الشهوات، والغرائز الحيوانية التي فيهم ومع هذا كله فلم يتعرَّض لشخص في الطريق، يطلب منه أن يحيد بوصلته عن تلك الوجهة التي ألفها من قبل لأنه يسعى إلى ترك بصيص أمل من نوره، الذي يشع على الذين حوله. وقد كان صاحبنا الذي يقال له "نوح" وما أجملها من صدفة؛ كَوْنَه اسمه نوح وهو قد عاش تجربة تُقاربُ عمر نوح، ويزيدُ وربما تكون هذه صدفة ولكن الصدف هي التي سيَبْنِي عليها صاحبنا أهم لحظاتٍ في عمره لأنها لحظاتٌ مفصليةٌ لا بد أن يكون لها وَقْعٌ خاصٌ، وتأثير أقوى من كل المؤثرات؛ التي قد صادفته -في بداية هذا المشوار- الذي كان قد تَعَمَّدَ أن يَبْذُلَ فيه بعضًا من عمره؛ الذي تبقى في تلك الرحلة،

الشـــاقة ولأننا لا زِلنا في البدء فيها، قبل أن نَبْحُرَ لنلامس الواقع، وهو واقع كانت له كلمة الفصـــل، في الكثير من الأحداث، وكثير من تلك الانجازات والتي قد تُحسـبُ له، دون أن تُحسبَ عليه، ولأجل أن تترك أثرا شاهدا عليها بما أنها كلها لحظات وليدة في تلك المغامرة، التـــي قضـى نَحْبَهُ باحثا عنها.

ولكنها مع كل هذا قد تُخلف له بعض النُّدُوبِ التي لا يمكن طَمْسُـــهَا، أو حتى التغلب عليها بالحيل، وأي سبيل، لأن السبل قد لا تهـدي صاحبها إلى الشفاء ولكنها قد تُمَكِّنُه من معرفة مَكَامِنِ ضـــعفه ومعرفة أين يمكن تُوصِـــله قوته ومع هذا فإنها يمكن أن تترك له نُدُوبا في حياته، ولأننا ما زلنا على ضـــفة النهر، نهر التكهنات، ولا نعرف إلى أين سيصل بنا مفترق الطرق؛ ولا نعرف أيضـــا أين يمكن أن تَرْسُو بنا هذه السفينة والتي قد نَصِلُها بنسب سفينة نوح إلا أن نوح علـــيه السلام، قد حمل فيها من كل زوجين اثنين؛وهو أيضـــا قد حمل معه الكثير من الأماني ولذا لم نعرف بعد ما ذا ســـيجني منها، وَدَعُونا نضـــع

التكهنات على حدى، فشـــيء كهذا؛ لايمكن التنبؤ به قبل رؤيته أمامك.

الزمن غير معلوم هذه اللحظات؛ ولكن ما أنا مقتنع بـه هو أنـه الآن يخوض امتحـان ختم دروس الإعـداديـة، وتلك المسـابقة؛ كان لها تأثير بالغ في حياته فقد كان يُؤمل الكثير منها، وكان يُخيل له أنه لِمُجرد النـــجاح؛ يمكن أن تفتح له الدنيا ذراعيها ولكنه لم يَعِي ذلك وَلَربما من براءته وربما من قلة نظرته إلى الحياة، وإلى التجارب التي خاضها غيره، فهناك طابور كبـــير، لا يجمع فيه سـوى أصـحاب الشـــهادات والكفاءات العالية وهم الذين لو وَجَدُواْ من يُنْصِّفُهُمْ لَوَصلوا إلى قمة القمم، وَلَحَلَّقُواْ في الفضاء عاليًا وَلَجَاوَرُواْ النجوم في علياءِ السـماء ربما لأنه لم يطلع بعد! على ذلك الجحيم، وتلك البطـــــالة التي لقيتْ كل الذي سـبقوه بالقدوم إلى هـــناك، والتي مُنِيَ بها الذين سَـخَّرُواْ أنفسهم طلبا للعلم، وصولا إلى حمل الشهادات، ظنا منهم أنـه هنـاك أرضـــية يمكن أن تحتوي تلـك الثمـار، حينمـا تنضـــج، ولكنه قد خاب ظنه، كما خاب ظن كل الذين

سبقوه، والحديث هنا؛ ربما عن المكان الأخير لأصحاب الشهادات، والذين قد ينتهي عمر أوراقهم، وقد ينتهي بهم المطاف، عند بائعة الساندويش ليلْتَفَّ بها ذلك الخبر.

ومشاهد مشابهة لازالت إلى اليوم تُرَى على مثل هذا المنوال فتُرْوَى وكأنها قصص متوارثة بين الطَلَبَةِ؛ أو على الأقل بين الكادحين، وهم الشعبة الذين وجدت نفسي بينهم، ويجمعني بهم أكثر من شيء، وهو الإسم المفضل الذي يمكن أن ينتشر أكثر من غيره في أوساط الكادحين؛ فالكل هنا كادح شاء أو أبى هو وبطريقة أو أخرى يسعى لأن ينكر ذلك ولكن لا أظن أن نكران شيئا مثل هذا قد يُفيد صاحبه بل العكس يمكن أن يؤثر عليه سلبا دون أن يدري، ولكن الليالي حُبالَى فقد تدَّخر لك أشياء، وأمجاد، لم تكن يوما لتصل إليها، وقد تسلب منك أشياء أُخَرَ لم تكن تظن أنها قد تكون لغيرك، ولا أرى أن هناك حرج، في أن يسلب منك شيء، ما دمت ستجد عنه البديل، ولكن البديل مشكلته أنه لايقوم بما كان يقوم به ذلك الشيء

الأصيل لأن الأصيل واحد صحيح وغيره من الأرقام لا يمكن أن تُغير شيئا في المعادلة، معادلة المد والجزر.

وكنا قد توقفْنا هُنَيْهَةً، عند مفترق طرق مسابقات الكادحين؛ ربما لها الإسم البليغ، وقْعٌ أكثر من غيره من الأسماء الأخرى.

وحينما فشل في تلك الفرصة التي ألقَى فيها بكل ثِقله؛ فإنه لم يجنِ شيئا مما كان يتمنى، وقد خاب ظنه؛ لأن الجهد هنا شبْهُ معدوم، وربما يُجدي شيئا غير هذا؛ ربما تكون الواسطة وهذه كلمة لها من الدلالة الكثير؛- وأذكر حينما سأل زميل لي؛ آنذاك أستاذ اللغة الفرنسية، أجاب بأنها تمتلك أكثر من معنى وكان من بين تلك المعاني الكثيرة وربما البليغة ولكن بدرجة أقل قال"إنها تقال لليد الطويلة" تلك اليد التي تُوفر لصاحبها الكثير، وإن لم يكن يستحق بعضا منه؛ ولكن ما دام أصحاب الكفاءات يُلقى بهم على قارعة الطريق، وهو طريق قال عنه يوما آخر من حكم البلاد، أنه لن يترك أحدا يبقى عليه، وربما لذلك

الطريق أكثر من هُدى، وهو لا ينتـــشل إلا الذين يملكون أيادٍ طويلة، يمكن أن تُوصِلهم إلى بعيد، حيث لم يَجِـــدُّواْ ولم يَكِدُّواْ، ولم يلتمسوا تلك السبل التي طُرُقُها مضمونة، ويمكن أن تُكشف لصاحبها قبل الوصول لها، كل هذا قد لا يحدث إلا حينما يكون الطريق مُمَهَدًا وَحَمَلَةُ الشهاداتِ في المقدمة أما غير هذا فهو ضرب في الفراغ.

وذلك الجهد المُضني، وتلـك الأوراق، التي جاءت بعد الكـــثير، من الكد، والتحصيل ذهب كله أدراج الرياح، بعدما انتهى بها هي الأخرى، على طاولة بائعة الساندويش، وهي التي تُغـــلف كل خبز تتلقفه يديها بتلك الأوراق التي تلتقطها دون اكتراث منها، حقا إن الدنيا ليســـت عادلة، وعلى وجه الخصوص، هذه الدنيا التي كان قدرنا، أن نقيم نحن فيها، وتخيلوا معي ذلك الشبل الذي يحمل على كتفه الكثير من الأعباء ما هو شـعوره واســمه محاط بمجموعة من الأوراق لا يعرف لها أصـــلا وحتى أن تلك الأوراق؛ ليست إلا تحـصيل حاصل، والأغرب من هذا كله، هو أنها كانت حينما تهُم بأخذ ورقة، كانت تأخذها دون أن تتأكد

من اسم صاحبها، تأخذها عـــشوائيا بدون أدنى تأمل ولو باكتراث قليـل، يمكن أن يصل بها إلى العـطف، على ذلك الإسم الذي لاشك إن كانت تقرأ وجدته في آخر الصفحة ولم تكن أيضا تقرأ، فلا شك أنها شاهدت تلك الصورة؛ الذي يظهر جليا، على وجه صـــاحبها الكثير من البؤس، والذي انتقل فيما بعد إلى يأس، من كل شـــيء؛ حتى على نفسه، إن أمكن.

فهذا الإنسان قد طبع الله على قلبه الملل، والضجر، من أي شيء وقد يشعر بذلك الملل، حينما يصادف نفسه؛ ولربما تستغربوا هذا النعت، كوْن الإنسان قد يلتقي بنفسه دون أن يدري، ولو حتى أن يجد فرصـــة، في تحديد زمن ذلك المـــوعد، ولو حتى مكان ذلك الموعد، ولكنه واقعٌ كما هو دُونَ فلتَرْ؛ كما يتســـــنى للبعض أن يعيش حياته، وحدث أن ســمعت كلمة بليغة لكاتب ذاعَ صِـيتُه إذ يقول أننا أصـــبحنا نحتاج إلى فلتر نقيس عليه، كل ما قد يظهر أمامنا، وأيًّـــا كان ذلك الشيء، وليكن ما يكن. وحين نبدأ في اســـترداد هذا العمر المهمش الذي لم يجد بعد! من

يُدَوِّنُ منه شيئا بعد فإننا قد نكون بهذا قد أَضَعْنَا وَفَرَّطْنَا في عمر مُزهر؛ حافل بالإنجازات والتحديات وهي التي قد لا تخلوا حياة الواحد منها حينما يَهُـــمُّ بالبحث عنها، وقد لا يرى بعضـــا منها حينما يُهملها؛ وقد لا يدرك تلك الزهور والتي حتما تحيط بها؛ ولكن لا نرى وإلمَّ يكن مفروشـــا بالورد هكذا يخيل لنا الزهر نحن الأشـــخاص العاديون؛ وهم الذين لا يفقهون من المقاصد إلا أوضحها؛ إن أولئك الأشخاص مساكين بحق.

ولكنهم أيضا لا يهتمون، ربما لأنهم لم يُصادفوا من يُـشْعِرهم بعد! بتلك المَنْقَصة؛ ولكن ذلك لا يُلْـقِي باللوم عنهم، لربمـا لأن القـانون لا يقبـل المغفلين، وربمـا لا يـتعامل معهم، وهذا ما قد يُقال لمن جهل قانونا، مع العلم بأن هذه القوانين، والدســـاتير، تظل مجرد حبر على ورق هـذا حينمـا لا يتعلق الأمر بـالـذين لا يملكون يـدا طويلـه أولئك الذين اقتصـــر طول يد الواحد منهم على الوصـــول إلى ذقنه، ولكن هذه القوانين، قد تُســـاهم بأكثرَ من هذا حينما يكون العدل أســـاســـها، بعيدا عن أنا ابن فلان أو

علان؛ لأن هذه الأسماء لا تحفظ أيةَ شرعيةً وقد لا تُقيم وزنا لأي شيء، لأن الشيء حينما لا يكون في مكانه الذي قد أُعِدَّ له من الأساس، فإنه يصبح حمل ثقيل على كل الذي له صلة به، ويظل يُؤنب ضمير صاحبه، هذا لو كان يمتلك ضميرا من الأساس، فما بالك بمن هم أعلى منزلة ألا وَهُمُ الساسة الكبار الذين حفظوا شأن هذه البلاد، ولكنهم لايهتمون هم الآخرون لأنه لا أحد يهتم؛ من الأساس -هذا سابقا-.

وحينما نبدأ في تتبع الأحداث الجانبية، فإننا بذلك نكون قد تُهْنَا في أعماق مُوحِلَةً، وربما لأن الأمر لم يكن يستحق! أكثر من هذا لكنه مع ذلك كان يستحق أرى أنك لم تفهم بعد!شيئا السبب الذي يستحق هو أننا جزء من هذا الواقع، المرير وهو واقع كان قدرنا منذ القدم، ولكن قلائل هم الذين بِمقدورهم فِعل شيء للتغلب على ذلك الواقع، وتغيير بوصلة ذلك القدر إلى اتجاه آخر وكل هذا قد يحدث! حينما نكون مؤمنين بأننا نملك قدرة العقل، لتغيير الواقع، وتخطي الصعاب، أما حينما نُواجه مُعضلة في

الطريق، ونستسلم لها فإننا بذلك نكون قد تَخَلَّيْنَا عن أعظم ما نملك من القوة؛ لأن الاستسلام لم يكن يوما حلا، والتنازل لم يكن يوما حلا، لا بد من مواجهة هذا الواقع والتمرد عليه إذا تطَّلب الأمر والسبب الآخر الذي جعل من إعراضنا شيئا ذَا بال؛ هو أن الأحاديث الجانبية، غالبا ما تكون بلا فائدة؛ لذلك دَعْكَ من هذا ودَعْنِي منه، فلم يعد في الإمكان أفضل مما كان.

ويوم يطويه ليل، ونهار يعقبه نهار؛ ولم تكن تلك الأيام التي تم ذكرها آنفا مجرد أيام؛ وإنما كان له بُعْدًا آخر، هكذا يقول صاحبنا، لأن يومه لم يربطه بشروق الشمش، أو غروبها وإنما كان يُحصي يومه بمدى ما فيه من إنجاز، ومدى ما فيه من أشياءَ تُذكر، وليست الأمور الثانوية وإنما أهدافٌ نبيلةٌ، وهي التي حينما يتحقق البعض منها، فإن الكل يَهتف، ويَهتف بأن الخير باق هنا إلى يوم الدين؛ وهو من الذين سَعَوْا دوما إلى بثِّ روح الأمل، وأي روح من شأنها أن تَعُود بالنفع على الغير فكان يسعى ليحقق لغيره ما يتمنى؛ أكثر مما كان يتمنى هو لنفسه.

لـذا فـإني لم أتعجـب يومـا، من كثرة النـاس حولـه، وكان مِقياس اليوم عنده مختلف جذريا نسـبة لنا وكان في كل يوم يحسب ألف حساب، وهو الذي لم يقتنِ يوما، أيًّا من أدوات الحسـاب، ولكنهـا التجارب تصقل صاحبها؛ وحينما ينتهي ولا يكون قد أنهى فيه شـيء قد يسـتفيد منه في غابر أيامه فإنه بذلك قد أضاع الكثير، ولم يكن يجد بُدا من التـعويض؛ لتلك الأيام التي مضتْ إلا بالعمل الدؤُوب والمتواصل وهو الذي لا يكلُ، صاحبه، ولا يمل، من فرط العمل، والإصـرار على تحقيق أيةَ مكاسـب قد تعود بالنفع له، وحتى لغيره؛ ربما لأنه لم يكن لِينظر إلى الذي مضـى من عمره؛ لأن مراجعة الماضـي، حـينما يُخالطها الندم، فإنها تكون حسـرة على صـاحبها، وهو لا يملك متسـع من الوقت، لِـيَتَحَسَّر على شيء؛ ولْيكن ذلك الشيء. ربما كان انشـغاله بدراسـته أو بالأحرى مسـتقبله ذلك المسـتقبل الواعد، والذي كان يُخيل له في لحظة غفلة، -متكررة- أنه قد يفتح له آفاقا كان قد تمنى الوصـول إليها.

وكثير هم الذين تمنوْا ولكن الذين عَمِلوا، لا يَكادون يُعَدُّون في الأصابع، وهي نفس الأصابع؛ التي كان يرسم بها صاحبنا مستقبله حين كان في آخر أيام عمره لربما كان الهدف أسمى، وكان يستحق كل هذا العناء وحينما يكون الحالم أو الكادح صادقا؛ فإنه سيرى من الأعلى نورا، يُذهبُ البصر؛ وقد يُفقد صاحبه متعة النظر؛ ونعمة البصر؛ وكان شُغْلُه الأوحد وهمه الأكبر هو ذلك المرض الغير معروف، الذي ألمَّ بتلك الأم، حتى أقعدها عن الحركة؛

وقد خابتْ توقعاته من كل الفحوصات، حتى يئس من تلك الشهادات التي حملها الأطباء في المستشفى قبله، وهو الذي رأى يوما، أن الجِدَّ لا بد أن تكون طريقه وَعِرَةً ولكن مشكلته الوحيدة، هي أنه قلَّما ينتهي به المطاف إلى تلك السبل التي كان يبحث عنها، وكان يبحث عن أي سبيل، يمكن أن يُخفف من وطئة ذلك الألم عليها، وهو الألم المرير والذي لا يشعر به سوى صاحبه؛ وكنا حينما نسمع شيئا، عن دخول أطباء جُدد إلى المدينة أو أية هيئة خيرية، أو أيادي مُحسنة فإننا نُهرع إليها ولسان حال

صاحبنا يقول: "ما في الـمدينة أحوج منا يا رسول الله" وقد تكرر ذلك اللجوء المتكرر؛ في كل مرة يمكن أن تتاح لنا فرصة اللقاء بأطباء، أو بعثات، أو حتـى مُبشرين؛ بأي شيء له علاقة بالذي أصابها.

وبالرغم من كل العمليات التي أُجْريتْ لها بشـــكل متكرر وبكل ما أصـــابه في نفســـه من اليأس؛ إلا أنه كان يـؤمن أن الضوء لا بد أن يكون في انتظاره في آخر النفـق؛ ولكنه لم يفقد الأمل ولو كان صـــاحبنا قد تحقق من قبل من كلمـة الأمـل، لوجـد أنهـا تحمـل نفس حروف الألم؛ ولكنَّ أحدا لم يقلْ له شـيئا من هذا. وحينما شَـغَلَ باله ما أصـاب أُمَّه أرادت أمه أن تفكر في خارج النفق، لعلها تنتج له أفكارا جديدة؛ وحِـيل أخـرى قد لا تخطر على ذي بال، تُـمكنه من أن يبني عليها مسـتقبل حياته؛ وهي الحياة التي ينتظرها الجميع بفارق الصبر لِجَنْيِ ثِمارها.

وقد لا يكون هو على صـلة بمن يُخبره بشـيء، قلَّ أو كَثُرَ؛ عن هـذا وحينمـا فَقَـدَتْ تلـك الأم الأمـل، من ذلـك

المرض والذي أَقْعَدَهَا فترةً من الزمن ليستْ بالقصـــيرة، رَأَتْ أنها قد تُســـاهم بطريقة أو بأخرى في بناء مســـتقبل وحيدها، وهو الوحيد الذي يُمكن أن يغير كل المعادلات، ويغير كل الأبعاد؛ لأن يُضيـــف لها بُعدًا آخرًا؛ إلى ما لا نهاية، وإلى ما لا نهاية، كـان جميعهم يسعى؛ لِيكسب منه، وبه؛ ولكن ليس له، لأنه عملة رابحة في بورصة الأيام هذه البورصـــة الحديثة والتي من شـــأنها أن تُمِيطَ اللِّثَام وتُزيل الغبار، عن معادن الناس؛ إلى أن تَصْـهَرَها؛ ويـــذهب كل معدن إلى أصله.

وهي التي كانت ترى فيه كل أفراد العـــائلة؛ جائتها حِيلة، بأن تجمع بعضـا من تلك الأموال؛ والتي تصـلها من الأقـارب وحتى من أُنـاسٍ أَبْعَـد! لأنهم كـانوا قبـل تلـك الفاجعة يسـعون ليكسـبوا ذلك القلب العَصِيّ، ذلك القلب الـذي فَطَرَهُ الله على محبة كـل النـاس، وحُـبّ الخير لهم، والذي يكســب مكانة في ذلك القلب؛كمن حيزت له الدنيا بكل مافيها وهي تلك الدنيا التي عاشوا هم على شاكلـــتها

لا يَلْوُونَ على شـــيءٍ لأنهم لم يكونوا يملكوا شـــيئا من الأساس.

ولكن تلـك الأم تُمني النفس، حتى يتوفر عنـدهـا المبلغ الكافي لِيَضـــمن لها وصـــول ابنها إلى الغُربة؛ أو بالأصح بلادُ العَمِّ سَامْ، وهو ذلك العم، الذي يتمنى معظم شباب هذا البلد، أن يصلها؛ والعم ســـام؛ كان قد أحدثَ ثورة -من نوع آخر- ثورة لا يمكن تجاهلها لأنها ثورة تجري في عروقنا، وأصـــبح الحلم؛ في هذه البلاد والتي أظنها في الأعوام القادمة قد تفرض غرامة على كل شخص أصـبح باسـتطاعته الحلم وأصـبح بإمكانه أن يفعل كذا أو كذا، أو شـــيء من ذلك القبيل؛ ولكننا مســـاكينُ لأن حلم الواحد منا كان مجرد "هجـــرة" وكانت هجـــرة الشباب الوقود الرئيسي الذي يُحرك تلك السفينة، وهي الســـفينة التي يوجد بها ألف قبطان؛ ولكنها من دون ميناء، يمكنها الرَّسُـو عليه بَعْدَ سـفر طويل وقد كان ذنب ذلك الشـباب الوحيد؛ وربما الشـــباب الحالم أمثاله هو؛ أن يذهبوا إلى

مكان آمن؛ يمكن أن يحتوي تلك العقول النَّيِّـــــرة، ذات الأفكار الجبارة.

وبهذا فإن تلك الأم تكون قد وفَّرتْ لذلك الابن مستقبلا، يمكن وصفه بأنه أفضل الخيارات في هذه الفترة وقد كانت حُمى الهجرة قد أحدثت ثورة بين الشباب وأصبح المهاجر أهم من المُقيم؛ في السوق وهو ذلك السوق الذي لا يرحم أحدا؛ ولا يَرفق حتى بالفقراء أصحاب الدخل المحدود، وأولئك الذين لا يكاد الواحد منهم يجد قوت يومه، ولكنه قد ظلَّ صابرا محتسبا؛ متيقنا بأن ما كُتِبَ له، لن يفوته ورزقه لن يذهب لغيره، ومع هذا قد نسمع صوتا من بعيد، يقول بأن المقيم، رضي أن يعش ذلك الواقع؛ الذي ولد فيه دون أن يسعى لأدنى تغيير؛ وحتى لو كان ذلك التغيير، تغيير نفسه، هو من الأساس؛ ولربما لأن المقيمين قد رضـــوْا بذلك البلد البـــائس، صـــابرين على ذلك البؤس، الذي لا يخفى على ذي بال ولا يوفر لهم أدنى مقومات الحياة؛ وهي المياه، العذبة ولكن حتى المياه لا يوجد منها إلا اسمها.

وظل ذلك البؤس يُطاردنا في كل شـــارع، وفي كل منطقة، وفي كل منزل؛ وقد سئموا بأن الأمر يحتاج لمعجزة من الســماء، يمكن أن تدفعهم لأن يغيروا ذلك النمط وألَّا يعيشــوا حياة بائســة لا تتوفر على كثير من الخيارات، ولو كانوا حــقا آمنوا بأنفسهم؛ لَعَلِموا أنه يوجد أكثر من خيار، لكنهم بســبب بؤســهم، وبســبب ذلك الخمول لم يُكلِّفو أنفســهم حتى عناءَ البحث لأنها لم تكن لتُوفر خيارات، إلَّا إذا سـلكوا مَسـالِك بعيدة؛ وهذا أصـبح عمل شـاق بالنسـبة لهم؛ لأنهم قوم أَلِفواْ الوســـــادة، والنوم؛ ومن أَلِفَ ذلك سبقه القوم.

ولكن بعض تلـك النفوس، حـاولـت تغيير اتجـاه البوصـلة، حتى انتهى بهم الأمر، إلى أن يسلكوا طُرقاً بعيدة عنهم؛ لأنهم قوم خاملون ومن يُخالِطهم، يُصـــاب بتلك العـدوى؛ عـدوى الخمول؛ وهي شـــرُّ بلوى، وقـد قطعوا الكثير من الأميال، في رحلة كان يُفترض بأن تكون مُؤَجلة، ولكنها نفوس؛ طُوعِتْ بأن تقتـــحم المخاطر، وإلى يومنا هذا، لا زالت الفكرة طيَّ الكتمان وليس النـسيان ربما لأن

الأم لا تنسى؛ أي شيء، ولهذا ناهيك حينما يتعلق الأمر بأبنائها وأي ابن، اهتمتْ به تلك الأم!. وهذه التضحية تقول لنا الكثير، أن الأم مثل ظلك لا يتخلى عنك حينما يتخلى عنك الجميع، وحتى تشبثها بك أقوى من التصاق ظلك بك ربما لأن الظل يتخلى عنك في الظلام وهي لا تتخلى عنك وحينما يتعلق الأمر بالظلام فإن يدها الحانية لا تتخلى عنك ولا حتى تتركك أو تترك لك الخيارفي اختيارٍ آخر غيرها؛ وحينما يتعلق الأمر بأمك فكن على يقين تام أنها لن تدخر جهدا عنك.

وإني لو تكلمت عن أي أمٍّ كانت؛ وحتى لو تعلق الأمر، بتلك الأم التي قد تكون في بداية الأمر، نَافرة من ابنها الأول وقد تفرسه بأرجلها، حينما يقترب منها طالبا منها أن تُرضعه، ولو أن أحدًا قال: أن ذلك الرفس وذلك الذهول، ليس من حنان الأم لَكان أشد الناس كذبا؛ ولكن حنان الأم قد يتجلى لك في أكثر من وجه ولا وجه واحد يُعبر عن حنانها، ولا حتى يمكن أن يُحْصَرَ فيه، ولا زالت إلى اليوم تضرب لنا الأم، وسواءً أي أمٍّ كانت، سواء تلك

التي أنجبتْ حيوانا، أو التي ربَّت إنســـانا؛ أمثالا غائرة في التضـــحية، وتَوَدُّ بذلك القَوْلَ أن تضـــحية الأم لايوجد لها حد واعلم يرحمك الله أن الأم حينما تتخلى عنك فاعلم أنها لم تكن أمًّا بالمرة؛ هذا مع -احتـــرامي لتلك الأشـــهر التســـعة التي حملتك فيها وتلك الرضـــاعة التي لولاها لما كنت هنا، ولكن مع هذا كله فإنها تبـــــقى أم؛ ولكن ربما الدرجة قد لا تكون ظاهرة الاختلاف -وبعبارة أدق- هناك أم فطر الله حُبها على قلبك، وهناك أم رُبِطَ على قلبها؛ بأنها قد تتركك في أول محطة؛ وقد تتخلى عنك في أي اختيار. وعلى ذكر الاختـــيار؛ فإن اختـــيارات كثـــر، قد تَلُوح في الأفق، وحينما ســـمع صـــاحبنا الكلمة الأخيرة من تلك الوصـية؛ التي لا شـك أنه في غنى عنها الآن، ربما لأنه لم يعرف قيمتهـا، ولكنهـا قـد تكون لنـا ذخرا نحن الـذين قـد نســـاهم فيما بعد! بكتابة هذه الوصـــية؛ وكان من تلك الاختيارات الأصـــدقاء، والمجتمع، وهو أيضـــا كان هناك، وكلام الناس، ونظراتهم الزائغة الحائرة هناك أيضـــا؛ فقد كان هناك من كل شيء، شيء؛ وكلام كثير، ونقاط لا حصر

لها، ما تكاد تبدأ لتنتهي؛ ولكنه إنصـــافا منه، جعل لكل محطة من حياته هدفا وَنُقَطًا تخصها وحدها دون غيرها من الأماكن الأخرى، ولكننا قد نغض الطرف عن هذه الأخيرة لأن صـــاحبنا لديه خيارات كثر وهو لايريد أن يتعلق بأي منها لئـــلا تَحرمه متعة خيار آخر، قد يكون أكثر فضلا من غيره؛ ولكننا قُلنا من قبل على لسـان صـاحبنا "أن العين إذا أبصرت الشهوة عمى القلب عن الـعواقب" واختار صاحبنا شخصا ألفه؛ حتى تَعَوَّدَ عليه، أو تَعَوَّدَ النظر إلـــيه، في كل مرة كان يريد أن يرى نفسـه، وكان في كل مرة ينظر صـوب ذلك القلب يتخيل كثير من الأشياء شبه مستحيلة ولا تَمُتُّ للواقع بصـــلة، وهو الواقع الذي يَحرم أهله كلَّ شـــيء من شأنه أن يُشعرهم قيمة الحياة وقيمـــة ما هم فيه، وكان يرى في الشـخـــــص الذي ألفه، الكثير من الحب، والكثير من الاهتمام؛ الذي لم يشـــكَّ يوما في مدى صِـــدْقِهِ، ولكنها الدنيا يا صـــاحبي؛ حينما تخلع ذلك الســـتر الذي يُغطي أهلها، فإن ما ترى يمكن أن يُفاجئك، ويمـــــكن أن يسـول لك نفسك، لِتُعَاتِبَهَا من جديد؛ وتُعيد سؤالا، كان قد تكرر

على مسامعك، ومسامعنا، في أَكْثَرَ من مكان "لما ذا نحن هنا" كما هو شأن الليالي الحُبالى، فإنها هي الأخرى تملك أياما حُبالى؛ وحينما وقع صاحبنا في ذلك الجُرم الذي قلَّما ما كان يصيب أصحابَه حَدِيثِي العَهْدَ بالحياة وشؤونها أو المتربصين وقيل أن جُرمه كان الوقوع في الحب، إن مجرد التفكير في الحب وهو في تلك السن التي كان يَتَحَتَمُ على صاحبها الكثير فإن ذلك الجُرم سيبقى يَلْعَنُه متى ما وجدت اللعنة فرصة في أن تظهر للعلن ويُشاع عنه الوقوع في الحب وأيًّا كان شكل تلك الوَقِيعَةُ فإنها لا شك قد كان لها تأثير بالغ في حياته؛ وحينما همَّ صاحبنا بأن يُحب فإنه اختارَ"ابنة أصول"هكذا كان يقول لكل السائلين عن خَلْفِيَتِهَا وكان يقول أن حظها من الدنيا هو أن يكون هو سعيد؛ يقصد نفسه، ولم يكن يفهم معنى كل ما قال لأنه لم يحدث أن وقع ولا مرة في الحب أو جرَّب السير في تلك المتاهة، تلك التي لا تُؤْتَمَنُ عليها النُّفوس، وهي تلك النُّفوس الخَيِّرَةُ، التي تحب الخَيْرَ للجميع، ومن ذلك الجميع، تلك الروح التي حينما نَركن إليها، فإننا نشعر

بقيمة كل الذي نَفعل، وكل ما نرى، ونسمع، ونعرف أن لنا هدفا، يمكن السعيَ نحو تحقيقه، لأننا حين نُحققه فإننا نحقق كل الأهداف؛ وهو الهدف النبيل، وكل الأهداف الأخرى ثانوية وهي الكلمة التي تُفهم في أكثر من صياغ ولكنه مع هذا كله لم يكن يهتم ربما لأنه لم يكن يرى أكثر من ظلها. أو لم يكن ليطلب أكثر من ذلك، هكذا قال لي؛ أو هكذا تصور عنه كل الناس وهم الذين لايتركون صغيرة ولا كبيرة تَحدثُ دون أن يمدُّوا فيها أصابعهم أو يُشيروا نحوها ولو بأي شيء كان! لأن هدفهم من الأساس هو ألا يحدُث شيئا من دون أن يعلموا به أو يشعروا؛ أو يُشْعِرُوا الناس بأنهم قد لا حَظُواْ كل الذي حدث.

☆ ☆ ☆

-الوقت صباحا؛ والساعة يبدوا أن عقاربها، تُشير إلى العاشرة والنصف، وهو النصفُ الذي لو أنه اكتمل يوما!، لكان قد وفَّر لنا الكثير، ولكن هذا الكثير قَلَّمَا يَكتملُ قبل أَوانه، ولربما كان هذا الوقت الأنسبُ؛ لقضاء الراحة والتخفيف عن النفس وقد تكون تلك الراحة مَليئة

بالمحرمات، أو ما من شـــأنه أن يحمل صـــاحبنا أعباءً، وهُموما كان في غنى عنها؛ ولكنه لم يُصْـــغِ إلى أحد لأنه يعلم أن لا معنى للنصـــيحة، والحكمة؛ إذا لم تُخَالِطُهَا الرغبة في التغيير، تلك الرغبة التي تتحكم في الإنسان وفي مُيُوله وفي الأشياء التي يُحب وفي الأشياء التي يكره ولهذا فإن الإنســـــــان ســـجين لرغباته؛ وهي الرغبة، التي يظن الإنســـان العادي، والغير مُتمكن؛ أن ســـعادته تَكمنُ فيها، وهي التي قَلَّمَا تكون مَزِيجاً من تلك المحرمات ولكن هيهات هيهات السعادة التي لم تجدها، في حضن أمك ولا في المســـاجد؛ حينما تَلْـــــجَأُ إلى عبادة ربك فإنها مجرد أوهام وهي وَهْمٌ في وَهْمٍ ولو أن ســـعادة توفرتْ لك في تلك اللحظة فاعلم يرحمك الله أنها لن تدوم أكثر من ثواني معدودة.

-ولكن الســـعادة حقا؛ هي التي تَجْنِيهَا، حينما تفعل فِعْلاً خَيِّرًا؛ تبتغي به وجه الله؛ وهو الذي تَهُونُ في ســـبيله جميع الأوجه؛وما عدا هذا فإنه مجرد شـــقاء مُؤجل عنك؛ -الآن- ولو تعددت الأوجه التي يظهر بها؛ وبما أن الحـــق

نَقيضـــه الباطل، فإنه قد اختار وجها واحد، وأصـــيلا؛ فإن الباطل اختار أكثر من وجه، ومع هذا كله فإن تلك الوجوه؛ التي اختار الظهور بها، وتكون سِمَةً له فإنها حسرة عليه لا لَه كما هو حال الوجوه تلك التي قد اختار الشـــيطان أن تكون وَاجِهَةً له وقد يأتي في أكثر من ألف وجه، ووجه؛ ولا واحد منها وجهه الحقـيقي، ذلك الوجه العابس، الذي لو ظل يحاول لما استـطاع أن يُخفي خطـوطه العريضة؛ أو أي نوع من المكياج، أو شيء من ذلك القبيل، أو شيء من الأشياء، التي بمقدورها أن تُظْهِرَ لنا شيئا، على غير حقيقته، وهي الحقيقة التي يَفْتَقِرُ إليها الجميع، ولكن لا أحد يبحث عنها، أو حتى يُكلف نفســـه عناء البحث عنها وهو عناءٌ لا بد أن يهدي صاحبه إلى سبيل.

وحينما أُتِيحَتْ له تلك الفرصـــة لم يُفكر مرتين هذه المرة إنما العكس لم يُعْرِضْ!؛ وإنما توسـع في إشـبـــــاع رغباته، وكان كمن لم يجد فرصـة من قبل في إشـباعِ رغبة وقبل وصـوله بلحظة إلى الشـيشـة، دخن بشـراهة كمن لم يدخن من قـبل؛ وهو فعلا لم يدخن من قبل، لربما لم يكن

ليجد الفرصة لاستنشاق ذلك الدُّخان العذب، في نفوس أهله، وهم حينما يتعاطونه، يظن الواحد منهم أنه في كل مرة ينفخ فيها سيجارته، كأنما يُزيل بعضا من هُمومه، التي أثقلت كاهله، ولكنه لو توفرت له، تلك الحيلة، في إزالة الأحمال عن ظهره، فإنها حيلة مؤقتة، وغير مُجدية، في كل وقت مع هذا؛ ضِفْ إلى ذلك أنها مُكـــلفة، ولن يَقْدِرَ هو على توفيرها لنفسه، لأنها سلعة غالية الثمن؛ ولكثرة ما فيها من الضـــرر، فإنه لن يدوم عليها، لأنها تَسْـــلبه كل شـــيء، وتسلب منه صحته، وماله؛ الذي لو عَلم الآن مصدره لَعَلِمَ أنه مِســـكين قليل الحيلة؛ وهو الذي كانت أُمنيته يوما!، أن يتوفر له شيئا من المال ولو يَسيرا يمكن أن يسد به إحدى حاجاته؛ ولكنه لســـوء حظه، ولِقِلة حِيلته، لن يمضـــي معه هذا ولا ذلك. وهو لا شـك راجعٌ من حيث ربما هو ليس من أهلها؛ ولكنه قد يكسب اليوم أَهْلاً؛ ويكون من أهلهم، وهم يعيـــشون حياة، لا معنى لها؛ لأنها خالية من المعاني، معاني المجد، والقيم، التي يحلم الناس أن يصـــلوا إليها وهم الناس العاقلون، ولا أظن أن عاقلا يفعل هذا، لأني لا

يمكن أن أقتنع بأي حال من الأحوال أن شخصا!، يمكن أن يدفع ماله، مقابل أن تهدر صحته، ولكن العكس هو الصحيح، وبما أنها كانت حياة مجرد هواء، تذروه الرياح والشك؛ هواءٌ قد لا يجد صاحبه يقينا يتمسك به وهو يبحث ولا يجد يقينا، وحينما وصل إلى كؤوس الخمر، شرب شُرْبَ الظمآن -مسكين- فقد كان لتلك القطرات التي كان آخر ما يتعاطى إنسان مثله؛ ولم يفق حتى الآن، من تلك السكرة، ربما لأن الذي ذهبَ هو؛ وجُلُّ عقله، وبما أن العقل لا يتجزأ؛ فقد ذهب في تلك اللحظة، لحظة تهور، ولعب، وتلك عاقبة اللهو، واللعب؛ في غير أوقات اللهو، واللعب، وهو عمل مريح؛ وجميل نوعا ما!، هذا حينما تأخذُه أنت؛ ولكنه يختلف حينما يكون المأخوذُ أنت -ومسكين أنت- الذي سولت لك نفسك أن تفعل هذا، فتأخذ سعادة مؤقتة؛ بضع ثوان ولحظات؛ وتدفع عمرك كله، مقابلا لها، ومع كل هذا فإنك لن تفيق إلا في آخر لحظة من لحظات عمرك حينما يخلع شخص ما! عنك الستار وأي شخص كان ذلك والأغلب أنه مجرد

عابر سبيل لا علاقةَ لك به من قبل، ولا علاقةَ له بك أيضا؛ لأن الأمر مجرد صدفة وصدف الحياة كثيرة، ولكن قليلا من يُصَدِّقها، ويُصدق أهلها ويتمسك بهم، ولكن بعضهم الآخر لا يترك الأمر يتعدى لحظة الصدفة تلك!؛ وينتهي الأمر.

وهو رأى أنك تستحق أن يُسدل شخص ما!، عليك ستار ما!؛ وذلك الشخص مؤجل ذكره الآن ربما لأسباب كثر ولكن تذكر هذا جيدا لأنه لابد أن تكون له علاقة بحلقات أُخَر؛ أنت لا بد مشارك فيها؛ أو مجبر على فعل ذلك.

وفي تلك اللحظات العابرة التي غمرتْ صاحبنا بما حملت من مشاعر متدفقة؛ ذكرتهُ بأيام قد خلتْ، أو مشاهدَ كان قد أَلِفَ بعضا منها؛ بين دفتيْ إحدى الكتب والتي كانت لا تفارقه، إلا حينما يهمُّ بالنوم، وكان النوم -بالنسبة له- هو الانقطاع التام، عن هذا العالم البائس؛ والكئيب، في كثير من الأحيان، ولكنه الوطن؛ وبالرغم من كل هذا

البؤس والظلم، إلا أنه ظل يُكابد من أجل حلم، رأى أنه يوما! يمكن أن يكون حقيقة، ولكنه لم يعرف إلى الآن، كيف الوصول إليه؟ وكان الوصول إلى ذلك الحلم؛ الذي ساوَره من قبل يحتاج للكثير من الصبر، ودراسة معمقة، لا عجلة لدى صاحبها، وتخطيط مفصل؛ توجد جميع الخطوط فيه، حتى الخطوط الحُمُر والكثير من الأشياء وهو لم تتوفر عنده هذه السمات لأنه لم يكن لِيُتعب نفسه لأجلها؛ ولكنه لم يكن يملك متسعا من الوقت، لكي يَضع في مذكرة حياته؛ تلك الخطوط العريضة، وربما فقرات، أو تقصيرا؛ ولم يكن يملك حتى مسطرة، أو قلم رصاص، يجدد به الخطوط؛ التي لا يراها مناسبة، لأنه في الحقيقة كان يملك قلما واحد؛

وكان النوع الجاف-هو الذي يستخدم-لذلك حُرم تلك المتعة، التي يجدها من يصحح خطأه؛ ومن يُقَوِمُ الطريق لنفسه لأن يرسم لها طرقا جديدة، مستقيمة تمكنها من العبور، من دون الوقوع في أخطاء الأمس القريب، والذي أصبح اليوم بعيدا، عنا وكان الذي يَرُدُّ سيرته كمَن

يحدثنا عن قرون خلت، ولكن لا زلنا إلى الآن نحيا تحت رحمتها؛ وتلك أخطاء رحيمة، نوعا ما! وأرحم بنا من الأخطاء التي تُحاصرنا الآن وكان يمكن أن نضع مكانها أخطاء أقل منها كلفة، ولكنه أيضا لم يكن لِيفعل ذلك، وكثيرة الأسباب التي تمنعه، وقد كان أحدها؛-أن الوقت قصير، والعمر أقصر- لذلك لم يكن يملك بُدا؛ ولا شجاعة في ارتكاب حماقة جديدة قد تُضاف إلى ذلك السجل وأي سجل هو إنه سجل غني من كل شيء؛ إلا من دراهم قد تساهم في ترقيع ثيابه أو في إطعامه ولو حتى أن تكون سببا في شفاء أمه؛ تلك الأم التي تُركتْ قبل هذا حينما ظنت أنها لن تشفى، من ذلك المرض الذي أقعدها، فترة من الزمن وليت تلك الأم؛ تدري الآن أن ذلك المرض حينما أقعدها فلم يُقعدها لوحدها وإنما أقعدَ معها تفكير ابنها وصارت كل فكرة ترده حيث أمه هناك تجلس على العتبة تنتظره هو حينما ينتهي من حصص كثيرة، وطويلة ومملة، في آن واحد، كان قد أجبر نفسه على أن تحافظ على دوامها وتستقيم عليها؛ ولو بعد حين، وكانت لتلك

السُـــويعات حلقة فاصـــلة بينها وابنها وفي ذلك تأخر عنها كما لم تَعْهد ذلك من قبل، وهو تأخر له ما له؛ ويحمل هو في طياته الكثير وطبعا مما لانعرف وقد تتأخر عنها في المجيء ومهما تكن الأســـباب فإنه كان في كل مرة حينما ينوي التأخر عنها، يُخبرها بذلك مسبقا وحتى حين يستشعر أنه قد يكون هناك طارئ، في يوم ما؛ فإنه كان يخبرها بذلك لكي لا يشـــغل بالها؛ بالتفكير الزائد، في الذي حلَّ به، ولَيْتَها تكون هي المرة الأولى؛ والوحيدة، التي يزيد تفـــــكيرها، حينما يتعلق الأمر به؛ ربما لأنه هذه المرة قد اختلط، بقوم ســـوء؛ لم ولن يُضـــيفوا له شـــيئا، في تلك الرحلة؛ التي لم تكتمل بعد!، ولازالت إلى الآن، ترســـوا ســـفينتها عند مفترق طرق كثيرة؛ وقد تعصـــف رياح ما، فيبتعد المفترق؛ ربما لأنه هذه المرة أجبر نفســـه لأجل خوض غِمار تجربة لم تتَّضِـحْ بعدُ معالِمها ولم يُحضِّـر لها من قبل؛ قد تكون تجربة غاية في الصـــعوبة، ومحفوفة بالمخاطر؛ وهو لم يعتدْ من قبلُ الوقوف في وجه المخاطر.

ربما لأنه من حرص أمه عليه، وعلى سلامته؛ لم تكن لتعطي له الخيار، في التفكير في كيفية الوقوف في وجه المخاطر؛إن هي تَحَتَمَتْ عليه؛ لهذا فإنه لا بد أن يواجه صعوبات كثر، في بقية حياته، لأنها كانت له سدا منيعا؛ وتقف في وجه كل شيء يصادفه في عَرَضِ الطريقِ.

وقد كان ذلك سبب من أسباب كثيرة، ربما لأنه سئِم القراءة؛من تلك القصص التي كانت غالبا ما تكون فيها نُعومة وكانت تجذب قلب الذي يقرأ أَسْطُرًا فيها وهي قصص عميقة حينما تكون النفس التي تقرأها متعطشة، لأن تُجرب شيئا كهذا، أو حتى أن تقتحم هذا الصرح الممرد؛ الذي اسمه "الحب" وهو صَرْحٌ مُمَرَدٌ ليس بالهين دخوله؛ وليس بالهين التعمير فيه أو حتى المضي، فيه قدما؛ لأنه حينما يُصيبك هذا الداء؛ وإني قد سميته داءً، لأنه يفتك بالنفوس؛ وهو أخطر شيء يتعطاه الإنسان، وأي إنسان ذلك؛ إنه الإنسان الذي لم يجرب من قبل شيئا، لأنه كان يعيش في قفص ضيق، مفتاحه بيد أمه وهي لم تترك شيئا يتسرب إليه، غير الهواء، ولو أنها استطاعت أن تمنعه

من الوصول، لفعـــلتْ، ولكنها لم تفعل، وربما كان الهواء قد جَلَبَ معه رائحة، لن أقولها أنها كريـــــهة؛ لأنه لم يكن حتى يَشعر بأهمية أنفه، وكان كل ما يصل إليه يستحسنه، ويقول: بصـوت طفولي؛ " الله؛ يا لَهَا من رائحة زكية، لأنها استطاعت أن تصل إليه ".

وجميلة تلك البدايات؛ ولكن جمالها يقتصـــر على تلك الكلمات الأولى، وتلك الحركات الأولى؛ والســـبب يرجع إلى صِدْقِها لأن الذي كان يـــفعلها، كان يفعلها بكل صـــدق، وبكل بساطة؛ وتلك بساطة نادرة في عالم تنكري؛ وربما تَغْلُبُ على بدايات كثيرة كان قد تعمَّد كاتب ما؛ أن يبدأ بها علاقة من نوع قد لا يكون محمودا بيننا أو بينهم؛ ولكنه لم يكن لِيَحرم نفســـه من تجربةٍ كهذه وكان يُخيل إليه، أن تجربته قد تكون الأفضـــل؛ من بين كل التجارب السابقة، والفاشلة؛ وتكون أيضا الاستثناء؛ ولكن الاستثناء حقًّا، هو ألاَّ تُجرب؛ ومهما تكن الأســـباب، ومهما يكن الدافع، فلا تتعجل فكل رزقك؛ سيصـلك حيثما كـــــنت، لذلك لا تشـــغل بالك، في أمور قد تكون ثانوية، وربما

ثالثة، في قائمة الطرح؛ والعرض عندك، ولكن المشكلة، تكمنُ في تحديد كل الأوليات ووضعها في قالب واضح ولابد لك من وضع جدول لها والذنب ذنبك، أنت لوحدك، وإذا هممْت يوما بإلقاء اللوم؛ فإنك لن تُلام إلا حين تلقيه على ذلك الواقع، الذي وُلدتَ فيه ولكنه واقع لا بأس به نسبة لأناس آخرين، حُرموا لذة العيش بسلام وأي لذة أخرى، قد تأتي في بالك؛-لذا فجدد الحمد لله كثيرا على نعمه التي لا تعد، ولا تحصى- وحينما تتعلق المسألة بالرزق، أنظر لمن هم أقل شأنا منك، ستعرف أن الله فضَّلَك على كثير من عباده وحينما يتعلق الأمر بالعبادة -أيضا- أنظر لمن هم أعلى شأنا منك فإنك بذلك ستعرف أين أنت من بين المنزلتين، وستدرك تقصيرك، وقد يكون ذلك سببا محفزا لأن تضاعف من عبادتك للذي بيده مقاليد كل شيء وحين يتعلق قلبك بالله، فإن الدنيا سَتَهُونُ عندك، وستعرفُها -وحتما- أنت لا شك زاهد فيها، لأنك عرفت أنها مسألة وقت، زائلة، وإن لم تكن تلك المعرفة -اليوم- فهي ذات يوم لذلك لا تشغل نفسك بالمسائل

الدُّون؛ لأن هدف مجيئك، لم يكن لها أصـــــلا؛ لذلك لا تشـتغل فيما خُلقَ لك عما خُلقتَ له لأنك بذلك لابد أنت واقع في ورطة؛ وهي أنك لن تجد ما تريد، ولن تجد ما أُرِيد بك. ولقد أَعْرَضَ صـاحبنا، في أحايين كثر، على ترك بعض الأمور، التي ملكتْ كيانه والتي قد تملكه فيما بعد ولكنه مُلْكٌ مؤجل ربما لأنه لا يزال هناك متسع من الوقت قد يُعرض فيه ويغير رأيا كان قد تغلب عليه فترة من الزمن، وأي فترة -هي طبعا- تلك التي قضى معظـــمها، بين دفتيْ كتاب، سَاهِمًا شَارِدًا؛ فيه ولا يملك حيلة، سوى بالانصياغ لكل كلمة، يقرأها، وكل كلمة يرى فيها تعبيرا مناســبا، يمكن أن يمتزج معه ويختلط به كما يختلط المســك مع الزيت، وكانت كل الكلمات تخـــــاطبه، وكأن الكتاب يتحدث معه، دون غيره من النـاس، وأي ناس أولئك؛ إنهم الذي يقرأون ولا يفهمون ولا يشـعرون، بأنهم قد يكسـبوا مكسبا إضافيا، خلف كل صـفحة، تقلب من كـتاب! وأي كتاب لأن الكتب لها فائدة؛ ولكنها فوائد متفاوتة؛ وهي

فـــــوائد على أية حال، لذا فإني لا أرى عاقلا، يمكن أن يَحِيد بنفسه، دون هذه الفائدة.

ولا شك أنه قد يتسرب إليه شيئا من تلك الأسرار، التي تَمْلِكُ تلك العلاقات المســمومة أو التي قد يُحيط بها شـــيء من ذلك القبيل والذي قد خلع صـــاحبنا نعله في الأعلى قليلا حينَ دق أحـد أبواب الحيـاة، الكبيرة، والموصـــدة في وجه كل الوافدين ولكن كما هو شـــأن قطرات النـــــدى -التي لا شـك تُوَلِّدُ نهرا- فإن هكذا دق متكرر، لا شـك سـيفتح لصـاحبه بعض الأبواب حتما؛ولن يكون ذلك، إلا بعد صبر طويل، ومسـتمر، ويعـلم صاحبه علم اليقين، أن الشـــيء إذا تكرر تقرر، وليعلم أن تـــلك الأبواب الموصدة، لن تهون إلا بالدق المتكرر، ناهيك عن تلك الأبواب؛ التي قلَّما تكون هي الأخرى مقفلة، ولكن قليلا من الصبر، قد يخلع عنها الرداء، وتلك البيوت سـهلة المنال؛ ناهيك عنها، ولا تنظر صـــوبها ولاتهتم لكل ما يصـــدر عنها هذا طبعا حينما تريد البحث عن مكان جديد، يؤوي تلك المضـخة، التي تملك وتلك حتـــما تسرع في

الدق أكثر منك، هذا إن ددققـت حـقا! أبواب تلك البيوت التي وقفت بُرهة متأملا إياها؛ وقد تملَّكَكَ الفخرُ في تلك اللحظة، حينما وجدت نفسـك، واقفا تنتظر الإذن بأن يفتح الباب لك، فتشرع في الدخول.

ولكن الأبواب قد تعيدك حتما إلى تلك العتبة التي تُركت تلك الأم المكلومة واقفة عليها تنتظر قدومك، لِتَزفَّ لك الترحيب ومن رأى ذلك الترحيب يظن أنك كنت من المـغتربين، واعلم أنك في كل مكان تكـون مغتربا، بطريقة أو بـأخرى، إلا حينمـا يتعلق الأمر بـأمـك، فـإن الأمر تغيَّر، والمسألة صارَ لها أكثر من بُعدٍ!؛ وهناك يمكن أن تفتـــخر لأنـك في وطنـك، وليس ذلـك إلا وطنـك الأم، ولـم يكن الوطـن يوما تلك الأرض الشاسعة، التي يمتلكها معك أكثر من فرد وفعلا فإن ذلك وطن، لكنه محض مشـــترك، ربما أهلـه كثر، كـذلـك أهـدافهم كثر، وحينمـا يكون لـك وطن كهذا مشـــترك، ولا ينتمي أي منهم إلى ذلك الوطن، الذي يترجم انتمـاؤه للوطنيـة تلـك؛ التي تجعلـك ومَن معـك مشـــارك في بنائه، ونمائه، وحينما يتملكهم الحقد عليه،

وعليك فاعلم أنك خِبْتَ، وخسِرتَ، وخَابُوا هم وخسِروا أيضا، معك، فوطن مثل هذا يخيل لي أني أراه من بعيد في طقس سيء ممطر، وقد ارتفع مستوى الماء في تلك المنطقة حتى حدثت أشياء لم تكن في الحسبان، ومن تلك الأشياء، فيضان؛ لم يكن أحد يتخيل أنه سيحدث في هذه الفترة، التي لم يكن أي شخص يتصور أن الموسم، موسم أمطار، ولكنها أقدار الله لا تخضع لأي زمن، لأنه أمره بين الكاف، والنون، وإذا قضى أمرا، فإنما يقول له كن فيكون؛ وقد شاءَ أن تكون تلك الحادثة كما شاءَ هو، ليس كما نحن نتمنى، وحينما غطت السُّحب ذلك المكان ذهب الكل، وتفرغوا شِيَّعا، وكل واحد منهم، همَّ بالبحث عن قارب للنجاة ولكنهم لم يجدوا قاربا وإنما وجدُوْ وسط مكان ما! على تلك الأرض الشاسعة سفينة؛ كبيرة ضخمة، كانت قد غطتها الكثبان الرميلة وقد مُلِئَتْ بأصناف الحيوانات، ولكنها مع هذا تستحق الترميم لأنه قد يُعيدها سيرتَها الأولى، ولكن أعرض كبيرهم عن ذلك، فتبعه الصغار، فأخذ كبيرهم القطعة الأهم؛ من خشب تلك

السفينة، الضخمة في مكان ما!، وبدأوا هم في التقاط وجمع ما أمكن أو ما يُمكن أن يكون سببا لهم في نجاتهم، من ذلك الغرقِ المحتم؛ وبدل أن تتكاثف الجهود إلى أن يتجمع الخشب كله، في قالب واحد، لأنه قد يساهم في نجاتهم؛ أو في نجاة أغلبهم، إلا الذين لم يُسعفهم الحظ، في أن يجدوا مكان بين ذلك الخشب.

ولكنهم فعلوا غير هذا، لأن كل واحد منهم، لم يكن يعمل إلا لنفسه ولم يسع إلا لنجاتها وحدها أولا، وانتشال ما أمكن من الأقارب والأهل، وهم الأقرب له لأن كل واحد منهم كان همه نفسه، وما تبقى يمكن أن يتصدق به؛ ولكنه لم يعمل للبحث عن مستحق للصدقة، وإنما بالصدقة على الأقرب، فالأقرب، فيهلك الذين شاء الله بأن يهلكو وتكون تلك النهاية المؤسفة نهايتهم ويكونوا عبرة لمن يعتبر ولكنهم لم يعتبروا؛ فأُعيدتِ الكرة من جديد، علَّهم يستفيقوا قبل فصل آخر، من طوفان آخر، قد لا يبقي ولا يذر، وطالما أنهم في المقدمة، وأنهم في وسط المدينة، لذا فإن الخطر حينما يأتي لاشك أنه يباغتهم دون

أن يستشعروا قدومه، إلا حينما يصل إليهم، وفي تلك اللحظة فإن أحدا منهم، لن يقدِرَ على الفرار منه؛ إلا بمعجزة، وقد انتهى زمن المعجزات، لأن عالم اليوم تحاسب فيه على الذي جَنَتْ يداك، فاختر جنايتك بعناية، لأنك كما كنت تدين فحتما ستُدان بها، في الوقت الذي تنتظر فيه ديْنًا، لك كنت قد أقرضته شخصا ما! وليس بالضرورة أن يكون ذلك الدين من المال، لأنه في بعض الأوقات يكون لا يساوي شيئا؛ حتى عند صاحبه الذي أفنى حياته في جمعه، وجمع ما أمكن منه.

وهذه أحداثٌ قد تكون عَرضية؛ تُساهم في أن يفكر أهل تلك المنطقة بأفكار جديدة مثمرة تكون خارج الصندوق لأن الذي في الصندوق له أهل عرفوه، وخبروا كل الأشياء التي ملأته، عن ظهر غيب، أو عن علمٍ يقينٍ ولكن لا يهم المهم أنه عليهم الإتيان بأفكار جديدة لاتجعلهم يعيشوا داخل النفق المُوحش ولأنهم لم يرضوْا أن يبقوْا هناك ولِيَحْيواْ تحت تلك الوصاية، كان الحلُّ والجواب الشافي كفيلا بأن يتفقوا كلهم عليه ربما لأنه حل

وسطي، لكل تلك الأسئلة التي قد تخطر وتخطر في بالهم "الهجرة" ولا شـيءَ غيرها، وبما أن العالم كبير، وفسـيح، ويمكن أن يسع الجميع فإنه أيضا يمكن أن يَسَعَهُمْ ويسع كل الذي له علاقة بهم وبكل أفكارهم ونبلهم، وخبثهم، وحقدهم، وأنانيتهم، فقد تنبأ بعضـهم بأنه في مكان ما! من العالم هناك، ملك لا يظلم عنده أحد وهذه حادثة تردني إلى ملك الحبشـة الذي أمر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم؛ المسـتضـعفين من المؤمنين الذين لم يُفَرِطُواْ في دينهم بأن يذهبوا هناك؛ وهي قصـة معروفة لا يجهلها إلا جاهل؛ لأن كل الذين مَرُّوا من هنا عرفوها حق المعرفة، لأننا عندنا قناة في دولتنا من فضـائلها؛أنها تذكرنا بكل حدث يحدث معنا؛ وفي أي المناسـبات، كانت تلك لأنها لا تهتم ولم تهتم إلا بتذكرينا بتلك الحادثة وحفرها فينا عميقا لأنها تواريخ حافلة ومن شـأنها أن تبث روح الأمل في هذه الروح الإنسـانية المسـلمة، والتي لم ترضَ، يوما بأن تعيش تحت السـيف، وتحكمها يد من حديد. ولكن البلاد التي ذهـبوا هم إليها غير؛ لأن كل الذين هناك هم

ظالمون بطريقة، أو بأخرى، ولكن أجمل شـــيء، هو أنهم يمكن أن يتركوا لك فرصـــة في أن تُمارس الظلم معهم لِتستفيد منه لأن هناك عندهم شـيء يسـمى بالسـوق الحر حتى الظلم هناك يمكن أن تجعل منه تجارة فالمال متوفر بشـــكل كبير والأيدي العاملة قليلة وكان صـــاحبنا يُمنّي النفس بأن يجد ســبيلا، إلى هناك، فكل الذين عرفَ، وكل الذين ذَاعَ صيتهم؛ ذهبوا هناك، وقد اقـــتنعوا بأنهم ليسوا أشجار؛ وليسوا نباتا ماكثا؛ في تلك الأرض بالتحديد، وهي تلك الارض لم تثمر يوما؛ ولو أنها قد أثْمرتْ من قبل، فاعلم أنها أثْمرت لنفوس محددة، ومن دون معايير يمكن لِمن التزم بها أن تُثمر له ولكن حتى أننا لم نجد معايير يمكن أن تهـــدينا -إلى سبيل مثمر؛- ولو أنه بمقدورهم الذهاب، حـــيث لم يذهب أحد من قبل وقد اقتنعوا أنهم نبتة وأنهم يمكن أن يُثمروا؛ ولكن ليس في تلك الأرض التي نبتوا فيها نباتا حســنا، وحينما كبروا تبين أن الحســن موجود، ولكن الكثير؛ الكثير قد ينقصــه ربما العدل وربما الصدق وشيء من الفضيلة شيءٌ قليل ليس بكثير؛ ولكن

لسوء حظنا حتى هذه لم نجد لها سبيلا وربما الوفاء؛ وربما الكثير، لأنهم عاشوا منذ الصغر، وقد تربوْا بوصايا دين الله الحنيف، الذي حينما يُعَمِرُ أرضـــا، فإنه لا يُذَل كافر فيها، ولا تنتهك حرمته؛ وهذه أخلاق ذلك الدين الذي لم يبق منه إلا اســمه، وإذا كانت هذه أخلاقه مع الكافر، فما بالك بـالأقربون؛ وبمن هم أقرب من ذلـك وبمن هم من نفس الجنــس، ومن نفــس الديانة، [الديــن واحد عند الله وهو الإسلام، وغيره شرائع لا غير أي أنها مجرد دساتير] ومن نـــفس الأرض، وهناك روابط راسخة، تجمعنا حتى نكون كالجســد الواحد، إذا اشــتكى منه عضــو تداعى له ســائر الجسـد بالسـهر والحمى، ولكن حتى هذه لم تحدث؛ ولم يحدث شـــيء منها، ولو أنها حدثتْ فإنها ســتشـــكل سـيمفونية، لا يمل السـامع من إيقاعها؛ ولكنها لم تحدث! لأن هذا هو الذي نعرف، ونشـــأنا عليه، ولكن حين تبلغ أَشُـــدَّك ولا تجد شـــيئا من هذا، فإنك وإن جربْتَ كل الخيارات ولم تفلح معك، فإن واحدا منها وصـــعب؛ لن يُثنِي قدمك عنه شيئا -الهجرة- لأنها هي التي أُنْشِأَتْ هذه

الفصـــول لها، لأنها خيار صـــعب، وهو قد يجلب الأمان لصاحبه ويكون سندا له، فيما قد يتبقى من حـــياته، وليس معنى هذا أن الغربة أفضل؛ ولـــكنها أفضل من بلاد تحس فيها بوحدتك؛ في بلادك الأم تشعر بالغربة فإن هذا شعور مشـــين ولكن حين تُفرض عليك الغربة، وتحاول أن تعي وتفهم، أن الغربة حينما تفرض عليك، فإن طعمها لن يكون إلا في البلاد التي تعتـــبرك مغتربا، وتعاملك كضيف خفيف الدم أو شـــيء من ذلك القبيل ولن يحـــــاولوا أن يغشـــوك، أو ينتهزوا الفرصـــة فيك؛ وإن فَعَلُوا ذلك فأنت المذنب؛ لأنك لم تنتبه كفاية.

هذا في حالتك جربتَ خيار الهجرة وأظنه أفضـــل خيار يمكن أن تختاره في حـــياتك؛ حياتُك التي قد تُنْهِيهَا في بلاد ظالمة ولها أهل ظالمون [هذا ما يقوله كل الذين أُكرهوا حتى ذهب الواحد منهم وهو لا يدري، أين يمكن أن ينتهي ذلك المطاف به وقد أجبرهم الواقع على الذهاب -أيضـــا- فلم يتبقى فن إلا وذهب نصـــف أهله ولم يتبقى عمل إلا وذهب نصـــف أهله ولم يتبقى شـــيء إلا وذهب

نصفه، فترى أسرة صغيرة تتكون من أب وأم؛ الأب ذهب واختار الهجرة وترك النصف الآخر خلفه] ولكن بصبغة جديدة، لأن الظلم له، أكثر من وجه؛ وتستخدم فيه أكثر من عبارة؛ ربما لأنها عبارات كانت يوما، راسخة في ذهن البعض منا وقد شاء الله له بأن يكون رهنا لها؛ ولم يزل الواحد منها ينفك منها؛ حتى تتجه نحو، من سولت له نفسه، بأن يتحدث عن غيره وإن هو لم يعِ حقا ما تَتَحَدَثْ أنتَ عنه وما تمردتَ أنت عليه لأن لم يكن أصلا يبحث عن صلب ذلك الموضوع الذي حدث ولا سبب تلك الضجة التي حدثتْ؛ هي أشياء تأتي من تلقاء نفسها دون سابقة ولكن هناك سوابق لها تأتي قبلها وهي الضغوط التي قد تجعل من البسيط والعادي يُباشر الدفع قدما بحياته في سبيل سبل لم يتخيل يوما، أنه قد يسلكها ولكنها الضغوط كما أسلفنا من قبل هذا فكل الذي حدث ليس إلا قليل من تلك الهموم التي أُلقيتْ والتي لاتزال تُلقى على كتف الواحد منا ولكنا كنا من قبل نصبر ونحتسب الأجور؛

ولكن صـــبر البعض منا نفد، ولم يعد بمقدوره حتى أن يمضي قدما.

☆ ☆ ☆

يوم آخر جديد؛ وســـريع، الوقت فيه تغير، لم يعد مجرد -أربعٌ وعشـــرون ســـاعة- وإنما اختلت جميع الموازين؛ والقيم تبدلت، وكل الأماكن تغيرت إلا أنا؛ لا زلت واقفا على قدميَ الذين لم يعد بمقدورهم حمل عبء آخر؛ غير الذي أُلقيَ عليهم، وحتى الذي أُلقيَ عليهم؛ لم يعودوا يتحملوه إلا وهم مُكرهين، لأنهم حملوه بشـــق الأنفس؛ وبما أنها نفوس خيِّرة، كان باســـتـــــطاعتها حمل الكثير مما لا يمكن أن يخطر على ذي بال.

فقد حملت كما لم تحمل نفس من قبل؛ وصـــبرت كما لم تصبر نفس من قبل واحتسبت كما لم تحتسب نفس من قبل؛ لَرُبما علمت مكانها عند ربها فحفظت العهد والسر الذي يحفظ الله به عباده من الزلل ويحفظهم إن هم ســـلكُو طرقا لم تكن يوما معبدة؛ ولكنها العناية الربانية،

تحفظ كل من حَفِظَ الله وذكر الله؛ فـــمن ذكر الله في ملإٍ، ذكره الله في ملإٍ خيـــــر منه؛ وفي الحديث "أحفظ الله يحفظك؛ أحفظ الله تجده تُجاهك، وإذا سألت فاسئل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله.

ولكني حينما التمست تلك الطريق الشـــــاقة، أو الطرق الشاقة؛ وسمها ما شئتْ!؛ كـــنت على اطلاع تام؛ بحصون تلك القِلاع، التي خُضت في متاهات لها، كان بالإمكان تجنبها، ولكننا لا نختار إلا أفضل الطرق بالنسبة لنا، حينما يُسند لنا الاختيار؛ ولكن التفاصيل الصغيرة، قد لا نملك عنها شيئا ونظن أننا قد ننتصر عليها من الوهلة الأولى ولكن نادرا ما ننتصر في أمور مثل التي سبقتْ، وبالمناسبة لم يسبق شيء بعد! لأننا ما زلنا في منتصف الطريق وربما في بداية الرحلة وهي تلك الرحلة التي عرَّج عليها صاحبنا حينما همَّ أن يمضي فيها قدما دون أن يُلقي بالا، أو أدنى اعتبار للذين ترك خلفه، وكثير ما هم؛ وكثر هم الذين ترك خلفه بعضهم ينتظر ظهور نجمه والبعض الآخر ينتظر أي شيء عنه؛ ولْيكن ما يكن، وبعـــضهم قد

يئس منه ربما لأنه طَرَقَ طرقا طُرقت من قبل ولم يأتِ من سبقوه بجديد؛ ولَرُبما كان الاستثناء-هو-الذي لا يتكرر والوحيد الذي جَنَا ثمرة من تلك المهمة الصعبة، ولكنه كان حريصا، على أن يَصْحَبَه شيء جديد، دون أن يعود بِخُفَيْ حنين؛ وهو الخف الذي حينما يرجع صاحبه، فإنه يكون لا يلوي على شيء، إلا من الأتربة، التي قلما تُغطي نعله؛ ولكنها الذ عال يا صاحبي؛وهي التي تدل على الطرق التي سلك صاحبها، ويمكنها أيضا أن تدل على ما تمسك به حينما تهاوى به الغصن؛ وحينما همَّ بالسقوط؛ ولكنه سقوطٌ قد يكون جميلا -بعض الشيء- ربما لأن صاحبه يستطيع القيام من جديد ويستطيع أيضا التعبئة من جديد، لأنه تملَّكه شعور القيام من جديد، وربما لم يُكتب في تلك الليلة من الغافلين، لأنه لم يتذمر على ذلك السقوط، ولم يضجر حتى ولهذا السبب فإنه كان حريصا على أن يُعيد الكرة من جديد، لأن الذين سبقوه، لم يعيدوا الكرة من جديد حينما سلكوا تلك الطرق وغابوا في تلك الغياهب؛.

ولكنه حمل كما لم تحملْ نفس من قبل من الأحمال والمشقة لأنه حمل على كتفه طموح الكثيرين من الذين عقدوا الآمال عليه، وهو لا يريد أن يخيب ظن؛ من راهن عليه، وقد يكون الرهان صعب، حينما يسلك المرء طُرقا لا قِبَلَ له بها؛ ولكنهم راهنوا؛ على أنه ورقتهم الرابحة، وحصانهم الفائز في السباق سباق كسب الوقت! وقد كان على قدر من المسؤولية لأنه لم يرجع، ولم يلفت إلا بعد حين من الدهر؛ و"الحين" و "الدهر" شيء آخر وهي تفاصيل صغيرة كما أسلفنا في هذه الصفحة ولكنها قد تكون حمالة أوجه وقد تحمل أكثر من معنى، وهي لاشك كذلك ولستُ هنا لتوضيح أي من المعاني التي قصدتُ أنا؛ أوِ التي فهمت أنتَ، ولكن لا يهمني شيء من كل ما سبق؛ وأتمنى ألا يهمك أنت -أيضا- لأنه مجرد استغلال للصفحات؛وقد آتت تلك الحيلة أكلها، وهي ما أعمل دوما عليه، حينما أهم بأن أكتبَ عنك؛ أو عني، أو عن شيء آخر؛ لا بد أن أقول هنا؛ بعض الأشياء التي تخصني، وقلَّما تجدها في منتصف هذا الطريق، حينما

أضمن أنك سلكته؛ فتجد نفسك هنا، قد حُوصرت بأمور لم تكن لتضع لها مكان في الحسبان حُسبانك الذي قلما يتأخر عنك.

وبما أننا في مكْمنِ التفاصيل -الصغيرة- والمؤثرة، تلك التي تُحدث في نفوسنا شُروخا، وبعض الضجيج، هذا حينما نودُّ أن نتغاضى عنها ونقول أنها مسألة محسومة وبالكاد لا تكون موجودة وحين تحدُث فإنها قد تقضي على كل ذلك الطموح وكل الذي سبق وتلك الوعود، وذلك النشاط، وحتى الحماس الذي كان يزاحم الطريق معك حينَ كنتَ تسير خطوة خطوة والحياة تجري بالتقسيط أي أنك لاتأخذها دفعة واحدة وإنما تتجرعها على دفعات، وهي دفعات تتعدد ألوانها؛ وأشكالها، وأحجامها ومع هذا فإنك لابد مجبر على تجرع تلك الكؤوس التي تُعدد لك فصولا من حياتك، دون أن تدري، أن زمنا من عمرك يجري نبشه وتفقده كما تتفقد الصراصير القبور الجدد؛ والحديثة الحفر تلك التي لا تزال علامات الحفر عليها؛ وتلك التفاصيل، هي التي نخضع لها دون أن ندري، ودون

مُقايضـــة، ودون أن نجد أدنى اعتذار، يمكن أن نلتمس به العذر لأنفسنا لكي نصفح ونعفوَ عنها.

وقد شـــاء الله، بأن تحدث أشـــياء كانت تَلوح في الأفـــق، ولكن الحلقة الغائبة، والأهم فيها كان موعد ذلك الحدث، والذي قد تقرر على حدوثه، مشوار حياة صاحبنا، أو أهم الحلقات، في حياته؛ وكانت النتائج على الأبواب، ونتائجه؛ التي كان يُمني النفس، حيـــنما قضى فتـــرة من الزمن يحـــصد، ويشحذ؛ قواه المعرفية وكل طاقته التي قد تساهم في تحقيق ذلك الهدف المنشود، والذي قد رســـمه قبل هذا في مخـــيلته؛ فهدف مثل هذا لا يمكن أن يُرسـم سوى في المـــخيلة، لأن واقـــعنا البائس يحسدك دون أي سبب ولمجرد أنك تسعى وتكدُّ وتكدح لكي تملك موطأ قدم هنا؛ فإن ذلك قد يوفر لك الحسد، ويجعلك تجني منه ثمارا غالية قد لا تتوفر لأناس عاديين لا يكدحون ولا يشعرون بأن اللوم قد يُلقى عليهم ولا يشعر الواحد منهم أن لهذا الوطن عليه حق، وديْنٌ سيظل عـــالقا على كتفه؛

متى همَّ بالحركة؛ وسيظل عالقا على ضميره متى ما أنَّبه، أو متى استشعر بأن له ضميرا يمكن أن يؤنبه.

وفي ذلك العام، الذي كان صاحبنا يمني النفس فيه؛ كان قد استشعر صدور تلك النتائج، والتي قد يترتب عليها فيما بعد! الكثير مما قد حمل سابقا على عاتقه، من أَمَانِيَّ ومن طموح؛ والكثير مما قد تحمل نفسٌ، قد شاءَ الله لها يوما بأن تصعد فوق السلم، وهو السلم الذي لا يرضى أصحابه بنصف نجاح؛ ولا بنصف حرية ولا يرضوْنَ أن تكون المقايضة أو المساومة على حرية الواحد منهم، فالواحد منهم يمكن أن يتخلى عن أي شيء باستثناء حريته ربما لأنها غالية وليست شيئا يمكن التنازل عنه فالتنازل كما يُعَرِّفُه صاحبنا في ملحمة حياته أنه بداية السقوط؛ وسقوط مثل هذا، قد لا ينفع فيه ارتفاع، ولا ارتقاء من جديد، لأن صاحبه حينها كان قد تخلى، عن بعض المبادئ التي لا يمكن تعويضها، ولا حتى تُشترى، حينما تُفقد ربما لأنها تأتي مرة واحدة، وحينما يتنازل عنها صاحبها؛ فإن حسرة ما!، ولعنة ما!، لا شك أنها تصيبه، وتُلقي به في

القاع؛فالقاع مُوحلٌ والسقوط مُكلف؛ وكلها سيناريوهات، قد تعمد صاحبنا الخوض فيها، وهذه المرة ليست متاهة؛ وإنما يقينا جازما منه، كي لا يشعر بالصدمة، صدمة الفشل، أو السقوط؛ويكون هو قد شحن نفسه، وقد عوَّدها لِيكون بمقدورها دفع كلفة ذلك الفشل إن هو حدث ولكنه لم يحدث ربما لأنها أول مرة، في اقتحام حصون مثل هذا، ولكنه قد تخطى الحصن الأول وصعد على السلم مُعلنا نجاحه والذي قد يكون مؤقت في حالته، لم يقف عند تلك المحطة؛ والتي يمكن أن تعطيه لذة الانتصار وهو انتصار مؤقت لا طَعْمَ له؛ ولا رائحة، مجرد ثواني من الزمن، الزمن القاصي، والبائس، والظالم؛ والذي لم يقلب منه بعد! صفحة واحدة؛ ولم يجد عنه نبذة واحدة، ولا يملك عنه أدنى فكرة، وليس عنده من المعلومات، سوى تلك التي يرى في الجرائد، أو التي تُغرد بها الصحف؛ لأنها تُؤجر عليها، وربما على كل كلمة فيها؛ يمكن أن تساهم في امتلاء الورقة؛ والتي جاءت من المصنع بيضاءُ ناصعة، لا يُرى عليها أثر السفر، سَفَرُ الحروف الصادقة؛ تلك التي

حينما تعبـــر على كُرَّاسٍ فإنها تُبقِي منها شيئا؛ أقل ما يقال عنه، أنه مر من هنا "وهذا أثره" ولا دليل للخدوش؛ وهي التي أصـبحت فيما بعد علامة تجارية تظهر عليه وربما من كثر الصـدمات ونرجع إلى الصـحف، وإلى واقع كان يوما جميلا، هذا حينما كنا نقرأ عنه ونقلب صـــفحات الكتاب عنـه؛ دون أن نخلع عنـه الرداء، ودون أن ننبش فيـه، وهو الواقع وهو تلك الصـور العريضـة والملونة والتي تَنُمُّ عن تنويمٍ مغناطيسيٍّ، يمكنه أن يلتمس لنا العذر؛

حينما نفيق من ذلك السـبات، والذي شـاء الله بأن يكون قدرنا وهو أن ننام في العصـر قبل غروب أي شـمس يمكن أن تشـــرق في يوم أحدنا، وعلى ما أعتقد أن عمرنا كان كله ليل، مظلم، وظالم إن نحن أَحســـنا اســـتخدام الشموع وذلك النور الذي قد يتسلل إليه أحدنا؛ أو يهتدي إليه، حيـــنما يطلـــب الدفء، أو الوصول إلى بر الأمان، أو العبور؛ ربما لأن الظلم الذي عشناه، والذي عاشرناه نحن، لأننا نحن الذين ســـلمناه نفوســـنا طواعية دون أن نســـأل، ودون أدنى اعترض؛ منا على أي شـــيء، وليس لشـــيء،

سوى أننا مساكين وكان طموح الواحد منا لا يتخطى شهوتيْ بطنه، وفرجه؛ واعذروني على هذا الكلام المَفْضُوحِ، إن ترجمتْ لكم حواسكم هذا، فإني بريء مما شعر به أحدكم وهو يقلب هذه الصفحات، فالغرض من هذا، يمكن أن يكون التمرد، لمجرد التمرد؛ وقد لا يحمل هنا أيةَ أهداف، وطالما كانت الكتابة هدفا سامٍ، ولا زالت كذلك، ولكني أهتدي إليها، حينما تضيق بي السبل، أو حينما يثقل كاهلي أمر ما!. ومع هذا كله، فإني لم أركن نفسي هنا فترة من الزمن، سوى لأني حاملٌ على عاتقي هذه المرة جديد وهو جديد كان قبل هذا اليوم هدفا سام، هو الآخر؛ وبما أننا مسلمين، وعلى قدر من المسؤولية، تجاه ديننا الحنيف وفي كل فترة من فتراته؛ وقد كانت حلَقةُ الهجرة فيه حلقة هادفة، وسامية، ومثمرة، في نفس الوقت، حين تستخدم على أكمل وجه وهذا يحدث حينما يُهاجر صاحبها، وهو على علمٍ بذلك الثَّمْرِ، الذي يمكن جَنْيُهُ من تلك الرحلة والتي لا تُخاض إلا بشق الأنفس - حدث هذا، قبل قطع صاحبنا أول خطوة في سبيل الهجرة،

وكانت هذه الاحتمالات، التي وضعها لنفسه، حينما اختار أن يهاجر- ولكنه لم يختر الهجرة ولم يخترها عن سبق تعمد، ولا إصرار لأنه قبل أن تخطر الفكرة في رأسه كان قد طرق كل الأبواب التي يمكن أن تحتضه في وطنه وكان يتمنى لو يتمسك بأي طريق وكان يبحث عن أي سبب للبقاء، ومع هذا لم تتوفر له أدنى أسباب البقاء؛ وإنما العكس، وكان الذين حوله يجبرونه على الهجرة بطرق قد لا تكون مباشرة ولكنها تظهر جليا، في نبرة صوت أحدهم حينما يصل له دور الكلام وحينما يجد له فرصة في توبيخه فلم يكن ليُضيع تلك الفرصة؛ والتي يمكن أن تدفعه للمُضي قدما في قطع تلك السبل، فكان يحمل عبئا ثقيلا على كتفه ولكن لم يستسلم وكان يقوم من جديد وهو أقرب ما يكون إلى الاستسلام، والخضوع، ولمن ليس لأحد؟وإنما للواقعِ الذي أَجْبَرَ الذين سبقوه على القعود ورفع الراية البيضاء قبل أن يصل الواحد منهم إلى تلك المرحلة والتي لا تكون الراية وحدها بيضاء، وإنما كل شيء من حولهم، يُطلى باللون الأبيض، وهو اللون الأخير

من الألوان الحـــــياتية؛ وهو بدوره قد يظهر على رأس الواحد منا، حينما يصل إلى فترة معينة من الزمن فإن بداية ذلك الطلاء يصيب رأسه، وبعدها يصيب جميع أعضاء جسمه عضوا عضوا؛ إلى أن يتوقف عن الحركة، وقد تتحول حياته إلى سكون مدقع، وهو سكون قد لا تكون حركة بعده، ربما لأن صاحبه؛ قد جـــرب كل الحركات المتاحة من قبل.

لذا فهو لا بد مُجبرٌ على البحث، عن حيلة جديدة، قد يحتال بها على نفسه أو على من حوله وقد تراءت تلك الحِيَلُ وتلك الخدع حينما رأى الجميع يفعلها دون استحياء منه، وبدل أن يفعلها صاحبها بخجل، وباستحياء إلا أنهم تمادوْا فيها، حتى صارت أمرا عاديا، يمكن أن يفعله من شاء منهم دون حسيب أو رقيب، فقد وصل بهم الأمر، إلى أن يفعلوا أمورا؛ قد كانت من المحظورات، عند كل مَن سبقهم، وحتـــى الإرث الذي تُرِكَ لهم لم يسْلم منهم؛ أتظن أن هناك أشياءً أُخر، يمكن أن تسلم منهم إنهم الطوفان وليس طوفان نوح الذين حينما أتى جاء لِيُعيد

الحياة من جديد، على سطح الأرض، فهو طوفان جاء ليزهق الباطل، ولِيُعيد بناء الحق من جديد، ويعيد الدنيا إلى تلك السيرة التي خلقها الله عليها، لترجع إلى سيرتها الأولى؛وقد كان هناك الرب واحد، والشريعة واحدة، وهو شرُع الله، وهو ما قد شرع الله لعباده، وما يريد أن يُعبد به. وقد أسرع في البحث كما لم يبحث من قبل عن سبيل يمكن أن يُسهل له تلك الرحلة التي سيطرت على تفكيره وكل جزء من حياته، لدرجة أنه أصبح يرى كلمة "الهجرة" مكتوبة على جبين كل من يحمل حقيبة وإن لم يكن يَهُمُّ بالسفر ولكن من أحب شيئا حقا أكثر من ذكر اسمه وقد أحَبَّ صاحبنا ما شاء الله له بأن يحب، وقد أكثر من ذكر ذلك الإسم لدرجة أنه قد فُتِنَ به، ما شاء الله له أن يفتن، وبأن يُكثر من ذكر اسم.

☆ ☆ ☆

وقد التقى بصديق له كان قد تعرف عليه عن طريق اعلانات الهجرة، تلك التي تُغري الناس بأن هناك جنة؛ تنتظرهم خلف قِيعان البحار، وقد أشاعوا بينهم، أن بلاد

العـــم سام، هي جنة الدنيا؛ والسعيد حقا كما يدَّعون هم؛ هو من يملك موطأ قدم فيها أو بمقدوره قطع ميل واحد نحوها؛ وكان الثمن لكل من طوَّعت له نفسه، أو سولت له نفسه، - وهذه المُطاوعة وذلك التسول بريء أنا منه؛ ولكم أنتم حق الرد ولكم حق التـأويـل- بـأن يقطع ميلا في الطريق إليهـا، كـان يـدفع أثمـانـا غـاليـة وكـان كـل الـذين يتقدمون إلى ذلك الـــسبيل، يتعرضـون إلى التحايل على أموالهم في بداية الأمر، ولم يتجرأ أحد الذين تعرضوا إلى الاحتيال إلى التفوه به علنية، ربما لأنهم في بداية الأمر، كانوا يعتـــقدون أن الوطن هو أُمُّهُمْ الحنون، والتي يمكنها أن تســع الجميع وهو وطن وســع الجميع لكن ليس مثل الأم التي تقدم لنا كل ما نحتاج؛ أو على الأقل تحـــاول، ولكنه وطن قد تقاسمته الضباع، حينما كان في المهد، وقد تقاســم كباره، كل ما فيه من خيرات وهي خيرات وَفِيرة يمكن أن تســع الجميع هذا حينما يكون التقســيم عادلا بينهم، ودون أن يأخذ الضــبع حظ الأســد ولكنهم فعلوا بالوطن، ما ترى أنتَ؛ وبعض ما أقرأ أنا عنه في الصـحف؛

وهي صحفٌ تُعَبِرُ عن مزاج تلك الضباع، وتنقل ما أرادوا هم، أن يقال عنهم، وأنا بريء أيضا منه، فكنا قبل هذا نسمع في كل وقت وحين أنه في العام القادم وربما الأعوام القادمة، أن بلادنا لا شك يمكن أن تعتلي المشهد في هذه القارة، ونكون من أغنى البلدان وتوفر لنا حياة قد تكون هي الأخرى جنة الدنيا، وهي الدنيا التي ربما ننتمي لقارتها؛ لأن هذا البؤس والظلم ينبع منها ويصدع منها ونحن لا نملك أي خيار، سوى الصمود، والانتظار، لمن يمكن أن يأخذ بزمام

هذا الأمر الذي تملَّكَنا؛ والذي أصبح يسيطر على كل ما نملك؛ وكل ما نسعى إلى امتلاكه. مثل هذا الكلام، تسمعه حينما تأتي لمكتب الذين يتحكمون في رقاب الذين ضاقت بهم الدنيا، ولم يعد بمقدورهم الصبر، وتحمل المزيد، لدرجة أنهم أصبحوا ينتظرون الفرج؛ ولو كان في قاع البحار، وحينما سمعوا ذلك الإعلان الغريب، والمُغري في نفس الوقت، هَبُّوا إليه، دون أن يسألوا، وقبل أن يعرفوا وجهتهم؛ وأنا لا ألومهم لأن الواحد منا حينما

يقع في مأزق، فإنه يمكنه أن يتمسك بأي سبيل، يمكن أن ينتشـــله من تلك الورطة التي وقع فيها؛ وكما أنني لا أُلقي بـاللوم هنـا على أحـد لأن الكـل مُلام، ولكن بـدرجـات متفاوتة قلت هذا الكلام حينما رأيت ذلك التقصـــير، الذي يُسـاهم فيه الكل، دون أدنى شـعور منهم بأن يسـاهموا في تغذية فيروس، قد يفتك بنا في فترة من الزمن، حينما نكون نبحـث عن منـاعـة مقـاومـة، وأقول هـذا الكلام الآن، لأن الأسـوء لم يحدث بعد! وأتمنى ألَّا يحدث لأنه يجب على كل الذين يملكون على عاتقهم ذرة حب تجاه هذا الوطن عليهم المبادرة الآن ربما لأن فرصـة تصـحيح الخطأ قد لا تُعاد لنا من جديد حينما ضَرَبْنَا بعرض الحائط؛ أشكال هذه الفرص؛ لأنها لا تكرر، ونادرة مع كل هذا الإطراء والفرص هي "أنا، وأنتَ، وهم" حينما نُضـــيع في مثل هذه الأوقات الصعبة، فإن حسرتها ستظل تتقمصنا ما حيِينا ولكن حينما نحاول أن نتعامل معها على أكمل وجه، ونعطي لكل ذي حق، حقه؛ فإنا ربما نســتطيع التقلب عليها، لأن خطر ما!! يلوح في الأفق، لذا علينا الاحتراز منه قدر المـــــستطاع،

والاستعداد له، على أكمل وجه، والخـــطر هو تلك الثروة الشبابية، النشطة، والحماسية؛ والأيادي العاملة، والأرواح الطامحة، تلك التي لا تُباع في أي متجر، ولا يُنْتِجُهَا أي المصانع، ولا يمكن شرائها لأنه ليس لها سوق تباع فيه، وتشترى، وإنما هي تأتي في الأرض، تُلامس الواقع وأهله، لأنها حقيقة وأهلا، لتلك البقـــعة الأرضية، سواءً كبيرة، أو صـــغيرة فإن الأمر لا يهم؛ لأن هذا الإنتماء لا يخضـــع لمســـاحة معينة، ولا لمكان معين، وإنما يأتي كما أتت الأشـــياءُ، التي أتت قبله من دون أن تُؤثر عليه أي العوامل سوى عامل الظلم، والتهميـــش، فإنه القادر على القضاء على كل ذلك؛ لأن العامل هنا أَيْدٍ بشرية وهي لا تحب أن ترى أيادٍ بشرية أخرى مستفيدة منها؛ ربما هو سبب يرجع إلى جشـــع الإنســـان، وتلك الأنانية الفطرية التي قد تولَّدَ معها، ولم يحدث أن حاول ولو مرة واحدة الفرار منها أو أن يحاول أن يصنع لها حيلة تُمَكِنه من التـــغلب عليها؛ وربما هو لم يُحاول لمرة، أو هكذا نفوس عهدناها؛ لأننا رأينا كل ذلك الشرر، يقدح من أعينها، متى ما صادفتْنا في

أي طريق عابر كان! أو سمعنا صوتها في حديث عارض؛ أو في أي صوتية عابرة فإننا لا نكاد نسمع أو نرى إلا ذلك الطبع الذي عهِدنا، في تلك الأرواح الانتهازية، تلك التي تَسعى دوما لأن تخلط بين المتناقضات؛ ومتى ما كانت هناك مصلحة، فإنهم قد يجعلوا من ذلك التناقض مسألة متوافقة؛ بالنسبة لهم، ويُسَخِرُوهَا لهم؛ وقد لا نلْحظُ نحن شيئا منها، لأننا لم نكن مؤهلين بعد! لأن نضع النقاط على تلك الحروف؛التي لم تُشكل لنا بالعَمْد؛ ولأجل ألَّا نلمح شيئا، من الذي قد يحدث أمامنا ولا نرى أي شيء من ذلك القبيل، وهي أحداثٌ عابرةٌ، وكنا قد نشأنا عليها، وكان الحديث عنها مثل الحديث عن تلك المحظورات، ومن سولت له نفسه بأن يحاول كشف اللثام كان يُتهم بالتمرد وهي تُهمة عارضة في بعض الأوقات لأنها ليست صادقة، وحين صدرت لم يُتَّهم بها من يستحقها، لأني وكما قلت: عشنا على تلك التَرِكَةِ البالية تلك التي تُسَخِرُ كل الأحداث لها، ولكنها لا تجد حرجا؛ حينما تُغطي مثل هذه الأحداث بغلاف ديني، أو حتى وصية عابرة وهي وسيلة كنا قد نشأنا

عليها فلم يحدث أن تمرَّد شخص في هذا المجتمع؛ وكان الـــذين يُصـابون بذلك الداء؛" داء التمرد" فإنه لابد متهم بالجنون؛ ولهذا الســبب وخوفا من تلك التُّهمة، فإنه لم يحدث أن تجرأ شـــخص على ذلك وكان كل الذي يتجرأ على نبذ تلك المفاهيم، يتمرد عليها في نفســـه دون أن يُبـــصر شخص بذلك التمرد لأن صاحبه يمكن أن يواجه الكثير من المشاكل إن هُوَ أَصَابَتْهُ تلك التهم، وكان المتهم بالجنون لا يصـدق كلامه، ولا يُؤخذ بشـهادته، وماذا يبقى من الإنســان حينما لا يصـــدق قوله ولا تكون هناك عبرة بشـهادته، لم يتبق إلا جسـمٌ؛ ليحمل جثة صـاحبه؛ وتكون هناك بوصـــلة توجهه نحوَ ما يقتات به، ونحو ما يمكن أن يوفر له مزيدا من الحياة، ومزيدا من الصـــبر على تلك المصيبة، التي أصيب بها، أو ذلك الحدث العارض. ولكن القليل منا، هو الذي لا يستسـلم ويظل يحارب، كل الذي قد يعترض طريقه، لأنه قد أبصـــر أشـــياءَ غاليةً يمكن أن تُفدى بالـــغالي، والنفـــيس؛ وربما هي الهدف الغالي؛ والـصيد الثمين، والكنز النفيس، الذي لا يمكن أن يصطاده

إلا قَلاَئِلٌ؛ يمكن أن يُعَدُّوا في الأصابع؛ إن هم وُجِدُوا، أو وُجِدَ البعض منهم، وقد كان من تلك العُصبة صاحبنا، الذي ظل ينقب قدر المستطاع، وظل يكابد حتى لَقِيَ سبيلا، يمكن أن يهتدي إليه؛ وصاحبنا يمكن تسميته بنباش القبور وهي تسمية لا تَقِلُّ عن تلك التي سبقَ، وأن أُتهم كل المتمردين الذين هم الآخرون قلائل، وقد كان حظنا منهم هو حظ الفأر في تقسيم خيرات الغابة وهذا تبسيط سطحي، تعريفا لتلك الأرضية، التي كان من قدرنا أن تحتوينا بكل ما فينا ومَالَنَا وقد حَوَتْ منا ما شاء الله لها بأن تحتوي وهذا يُثبت لي أن الأرضية التي عشنا فيها مسطحة؛ أي أن قدرها قد لا يتغير هناك والكل مصيره معلوم لأن مُلاك العقارات؛ لا يذهبون عنها، حينما يموتون، وإنما تُتْرَكُ لأبنائهم والفقراء حين يموتون فإنهم لا يموتون إلا حين يتركوا الفقر وصية للأبناء، ويخبروهم بطرق غير مباشرة؛ أن قدرهم هذا الذي قد وُلدوا فيه؛ وعليهم الاستسلام والتعود عليه وعليهم ألَّا يحاولوا أن يغيروا شيئا من ذلك الواقع.

وهذا هو ما سعت تلك الأم التي تحدثنا عنها سابقا؛ لأن تجبر ذلك الابن الذي هو حديثنا، بألا تعطيه الفرصة للتفكير خارج ذلك الصندوق، أو ذلك الكوخ، الذي عاش فيه، أو تلك العتبة؛التي تَعَوَّدَ أن يرى أمه تجلس عليها منتظرةً قُدومه، وفي أي وقت كان! ومشكلتنا هي التعود، والاستسلام؛ في المحطات التي نقف عندها، منتظرين دورنا، وحينما يأتي دورنا لتجربة واقع جديد، والمضي قدما، في خيارات جديدة، قد تكون لنا أقل كلفة؛ وأكثر فائدة من التي سبقتها ولكننا قليلا ما نُجرب وحينما نجرب، فإننا نكون قد شحَنَّا ذاكرتنا مُسبقا؛ بفكرة قد تركها لنا ذلك الفقر؛ وذلك الضجر الذي كنا قد تجرعنا كؤوسه مُرغمين، ومجبرين في نفس الوقت لدرجة أن الواحد منا لم يعد يحلم بتغيير ذلك الواقع وإنما أصبح التأقلم معه؛ الهدف الذي يسعى الكل لتحقيقه، وكان ذلك هدف الكل؛ والكل قلَّما يتجمع في ذلك الغثاء؛ الذي لا ينتفع الناس به ولا يمكث في الأرض ربما لأن المنفعة لا تؤثر عليها الكثرة؛ لأنها زاكية حين يأتي القليل منها؛ وقد شاء الله بأن

تـــنتحل المنفعة شخصية، صاحبنا الذي قد أَلْقَى على كتفه عبئا، لا قِبل له بحمله؛ ولكنه لم يعترض حين انتحلت تلك المنفعة شخصيته؛ التي لم تكن يوما، ترى نفسها إلا في الأَعَالي، لأنها رأتْ، ولامَسَـــتْ قَعْر ذلك القاع؛ الذي كان مُوحِلٌ وفيه شتى أشكال الطين العفن؛ الذي لم يكن يوما لأن تتســـرب إلى نفوس أهله، أنه بإمكانهم تغيير هذا الواقع الذي وُلِدُوا فيه؛ ولكنهم كانوا من طينة حَمْقَاءُ لم تكن لتفكر بِـأَبْعَـدَ من توفير الحاجيات اليومية، التي اقتصرت على الأكل، والشرب؛ وحينما تهم بالتفكير عاليا، فإن تفكيرها لا يكاد يتعدى اللبس، وماذا كان يَنْتَظِرُ هوَ من نفوس، لا ترى أبعد من هذا؛ وكان العَارُ يلاحقه، وليس ذلك العار الذي يمكن أن يصيب شخصا في حياته، وإنما العار "الذي هو أن الله قد منحه طاقة، وعقلا حينما يُحســن التفكير به، فإنه لا بد موفر له حلا" يمكنه الاعتماد عليه، دون أن يُلقي بنفسه في عرض تلك الموجات تتلقفه وكأنه خشبة، ولكنـــه كان أفضل من ذلك فهو إنسان قد كَرَّمه؛ وفضـــله على كثير من خلقه، وقد منحته تلك الأفضـــلية

الكثير، وبعثت في روحه نشـاطا وحماسـا؛ لا بد أن يعتمد عليه لأنه سبيله الوحيد، للخلاص من كل الذي كان يحيط به من المخاطر وكان أول خلاص يمكن أن يضـمنه هو أنه عليه الذهاب بعيدا.

وكان قد وَجَدَ في الذهاب عنهم، الكثير من الفوائد؛ وتوفرت له فرصة البحث عن عمل لأجل أن يضمن لنفسه ما يمكن أن يوفر لـه بعض الأغراض التي تَحَتَّمَتْ عليه، تلك التي لابد لها أن تتوفر عنده؛ وهي مجرد كماليات لكنها أصـبحت اليوم من الضـروريات؛ وقد توفرت عنده، مثل اقـــتناء هاتف، يُمَكِّنُه من الاتصـال، ببعض أقرانه مع العـــــلم أنهم قِلَّة، إن هم وُجدوا ولو وُجد البعض منهم، وحينما قضى تلك الليلة خارج أسوار ذلك المنزل، تبين له أن العالم كبير؛ وبالإمكان أن يســع الجميع، إن هو حاول أن يجد موطئَ قدم له.

وقد كان له بعضُ ما أراد حينما قوتْ صِـــلَتُه ببعض الأشـــخاص الذين قد ســـاهموا في احتواء ذلك القلب

البريء، وتلك الروح الصافية، التي تبحث عن أي سبيل للنجاة، والهروب، من تلك السفينة، التي جمعت الكثير؛ مما لا يطيق، وكان ذلك الحمل يُثقل كاهله وكان يبحث عن حبل نجاة، يَمنعه من الغرق في تلك المتاهة، التي لا تفرق بين الصالح، والطالح، لأنها لم تَسْعَ يوما لأن تفرز تلك النفوس لأجل الظهور على حقيقتها ولكنها لم تكن تَعْمَدُ إلى ذلك وإنما حملتِ الكل على ذنب واحد وهو الاستسلام والخضوع؛ دون البحث عن حل وإن يكن وَسَطِي يمكن أن يُقَلِلَ من وطئة ما حلَّ بهم

. وقد فعل هو أكثر من ذلك، وقد استثمر تلك العلاقات وبعض المعارف التي كانت قد زاحمته في الطرقات، أو مكان العمل، لأننا ويا للأسف قد لا تكون لتلك المعلومات التي تعلمنا عبرة ولا قيمة لذلك العلم، الذي في صدورنا، وكأن الواحد إذا أراد تعلم شيئا، فإن المنفعة إن وُجِدَتْ فيه، وَوَجَدَتْ بيئة مثالية؛ يمكن أن تؤتي أكلها عليها، فإنها ستظل بقلب صاحبها؛ دون أن تجد فرصة للخروج منه، لأجل أن يَلتقطها غيره؛ وهذا لم

يحدث منه شيئا؛ وكان الذي يتعلم، يتعـــلم لنفسه، وكان يجد فيها غريزة فطرية، تحب العلم والتعلم، وكان الجاهل لا يجد مشـــكلة في جهله؛ ولم يكن المجتمع يفرق بينه والمتعلم على أن الواحـد منهم قـد يكون أكثر قيمـة من غيره، ومع هذا حين تجد جاهلا أو عالما، ولكن بدرجة أَقَلّ فإنه إذًا لا بد أن تتوفر عنده من المعرفة بهذا المجتمع التي تجعلك تتجنب الحديث معه قدر الإمكان، في مسـألة "الجاهل – العارف" فإن أســلحته هنا أكثر، ولهذا الســبب فإنك قلَّما تَجد من يَحْرِصُ على إكمال تعليمه المدرســـي ربما لأن المدرســـة قد لا تملك قيمة هنا، لأنها مجرد حُجرات ويتضـــح لك ذلك حينما تؤدي زيارة لها في أي وقـت كـان! فلا بـد أن ترى البؤس يظهر جَلِيًّا في وجـه الأستاذ قبلَ التلميذ وقد يوحي لك ذٰلك البؤس ويخبرك أننا هنا نقدم واجب ديني، ولكننا قد لا نضـــمن مكانا ملائما؛ يمكن أن تشـــفع لـك المعـارف، التي درســـت في هـذه الحـــجرات، لأننا نحن الذي نُعلمك ونأتي مبكرا لأجل أن نقدم لك هذه المعلومات الجافة فإن الواحد منا، لا يأمن

على أجـره حينما "يموت الشهر" هذا مع العلم بأن العـلم على صَـاحِبِه أَلَّا يَطْلُبَ مالا، حينما يقدمه؛ ولكننا لا نملك من الأمر شيئا، فقد كان لزاما على أصحابه أن يطلبوا المال به، لأنه الـسبيل الوحـيد، الذي يمـكن أن يضـمن لهم مالا حلالا طيبا لا غبار عليه لأنفسـهم ولكنهم حينما سـعوْا جـاهـدين، لتقـديم ذلـك الجهـد والعلم الـذي منحهم الله وُوجِهوا ببعض التهميش والظلم، الـذي قـد يتعرض لـه شُـرفاء هذا البلد الذي كان شـرف الواحد فيه عبارة عن عمل يسعى به للكسب الحلال أما غير هذا من الشرف فهو محل خلاف لأن الشريف حقا، هو الذي يتـقن عمله، دون أن تَـشُوبَه الظـنون، ودون أن يتدخل فيه أي شيء من ذلك الذي قد يُصيب العمل.

وكانت تلك المعارف التي قد كَسَـبَ في سـاحة العمل والطُّرُقِ التي كان يَسْـلُكُ، كانت قد وفَّرت له بعض المعـارف؛ والتي قـد تكون أكثر فـائدة لـه في ذلـك الواقع الـذي وُلـد فيه، وهي عملة قد توفر لصـاحبها الكثير من المكاسب؛ حينما يسـتخدمها في الأماكن التي تعمل فيها

وهي أي عملة المعارف هنا تعمل في كل المحلات، وفي كل الوزارات، فقد توفر لصـــاحبها أشـــياءَ لم يكن يَحلم بتحقيقها حتى لو تعلم العلمَ وعَلِمَ خبايا كل شـــيء إلا أنه لا بد من عملة إضافية، في هذا الواقع المرير؛ تضيفها على تلك الشـــهادة التي قد تتوفر لك وقليلا ما تتوفر لشـــخص لأنهم لم يكونوا لِيُعطوْ لشـــخص شـــهادة عبارة عن ورقة مجرد ورقة؛ وحينما تقضي معها قسطا من الزمن، تحملها معك في الأماكن والتي كان من المفترض أن يكون الشافع الوحيد لك فيها تلك الشـــهادة، ولكنك لم تجتهد ســـوى للعمل على تحصـــيل تلك الشـــهادة والتي عبارة عن ورقة مكتوب عليها اســـمك وقد تجد معها توقيع؛ ولكنك حينما جَنَيْتَ كل الذي سبق فلا شك أنك راجع بِخُفَّيْ حنين من سفرك، وسفر آخر لا بد للعبور منه أن تكون معك، وساطة وحينما تملك هذه الكلمة أو تملك من يمكن أن يوفرها لك، وقد توفرها لنفسك حينما تُجيد اللـــعب؛ على أوتار تلك القلوب التي تتحكم في مصـــير، هذا البلد الذي لم يصنف بعد! معايير العمل عنده، ولم ينصف بعد قيمة لهذا

الشعب الذي طحـــنته السنين، وصلـــبته المآسي؛ وأصبح يقـدر من يحمـل في جيبـه بعض أغراض المـدح أوِ التي تقتضي بأن يقول صـــاحبها أشياء لا يشعر بها، وهو النفاق الصـريح، ولكن ما عندنا منه أصـبحت له تصـانيف شـتى، وهي النفاق الصريح الذي لم يعد المرء فينا يشعر بالإحراج حينما يقول منه شيئا، ربما كان هذا النفاق مادة أساسية في المدرسـة، التي كان من المفترض أن تُعلم الناس الكسـب الحلال، وعليـها أن تدرســهم هذه المادة "النـفـاق" لأن صـــاحبها مضـــــــمون عمله؛ ولا بد هناك عبرة لكلامه، وشـــهادته، وهي صـــفات قد حُرم منها الكثير ربما لأن صدقهم، وشرفهم، واصطلاح نفوسهم، لم يكن لأن يجعل الواحد منهم يضع نفسه في ذلك القاع المزدحم.

وقد أَوْصَـلَه بحثه الكبير، وصـبره المُـــضـني، إلى شـخص؛ يمكن أن يكون سـبيله الوحيد، في تلك الهجرة، التي رأى أنها الملاذ الأخير الذي يمكن أن يتمســـك به، وقد شـاء الله له بأن يبحث في كل الأماكن التي يتوافد إليها مهربون غيرُ شـرعيين، وقد اهتدى إلى بعض المكـــاتب؛

والتي يمكن أن يـــــجد فيها ضـــالته، وكثيرة هي تلك المكتاب، التي قد انتحل جلها شـــخصـــية ذلك المهرب والذي تظهر نتائجه من خلف الأســـوار، وقد كانت تلك المكاتب، مجرد إعلانات لا عبرة لها، وكانت تـحتال على الذي يتقدم لها طَالبًا الهجرة عن طريقها فقد كانت تأخذ المال منه أولا، وبعد ذلك تَدَّعِـــي أنها مُنشغلة في بعض التجهيزات؛ إلى الوثائق مثل جواز سفر، أو ما شابه ذلك، وحينما يقع شـخص في ذلك الفخ، الذي كان يُنصـب عن طريق تلك المكاتب، فإنه يبدأ مسـلسـل آخر يـــقال له المواعيد، وقد يبقى ذلك المســكين الذي أعطى كل ما يملك مُقَدْمًا، منتظرًا لتلك المكالمة، والتي كانوا قد تعهدوا بها لذلك الشخص، حينما تتـوفر الظروف؛ أو حينما تصل الطائرة إلى المطار، أو حينما يَرْسُـــوا القارب الذي يمكنه الذهاب من على مَتْنِهِ، ولكنها مجرد مواعيد حتى يكد هو من المواعيد وقد تتأخر عنه تلك المكالمة والتي كانوا قد أطفأو بها سُمَّه وهو سُمٌّ زُعاف؛ لا بد لهم من طريق يمكن أن يحفظهم منه.

ولم يشإ الله له بأن يكون ضحية لأنه كان على علم بكل تلك الحيل، التي يلجأ إليها أصحاب تلك المكاتب فقد قضى فترة من الزمن، يتشمم فيها أخبار تلك الرحلة التي قد نوى قطعها دون تراجع منه، ولكنه لم يتسرع، لأجل ألا يُصاب بالإحباط؛ في بداية الطريق ولا أن يصيبه ما أصاب الذين سبقوه؛ ولذا فكان لزاما على "الراوي" أن يعترف بأنها الاستثناء الذي قلَّما يتكرر.

وحينما نقول الاستثناء، فإن هذا يُثبت لنا أن الذين حاولوا قطع تلك السبل هم كثر وأن الذين خاطروا كثر وقد كان من الحكمة ألا يصل إلا قلائل فلو أن الطريق إلى هناك كان سهل لَمَا بقي هنا أحد؛ ولكن الباقون هنا، لم يبقوْا لأنهم قد رضَوْا بهذا الواقع، وإنما لأنه لا يوجد بديل، ولو وُجد البديل لكانت الكلفة عالية؛ ونحن قوم تعلَّم ألَّا يدفع الثمن، وحتى لو كان ذلك الثمن في سبيل حريته؛ ربما لأن الحرية عندنا قد كانت مجرد مرتب إضافي، لا يوجد فرق يذكر بين وجوده وغيابه؛ وهذه الأخيرة قد نتفوق بها على غيرنا، ربما لأننا حينما رأينا

معالِمَ تلك الحرية التي يتشـــدق بها الغرب كانت مجرد التمرد على الآباء واتهام للأجداد على تلك التَرِكَةِ التي تركوا لنا؛ ولا يمكنني هذه المرة بأي سبب من الأسباب أن أقول أنها "تركة بالية" كما قلت ســابقا حينما صــادفت في طريقي بعض ما قد تركوا لنا خلفهم حينما حل بهم الأجل واصطادهم شبح يقال له"الموت"وهذا الشبح مكتوب على جبين كل حي، ولذا فإنه كما اصطادهم، فلا بد مصطاد كل حي منا؛ والحــياة تخــتلف من شخص إلى آخر وهذا قد يجعلنا ندخل في تفاصـــيل كثر، يمكن ألا تلتحق بنا في تلك التي أسميتها "هجرة" وأتمنى أن تكون شرعية؛.

فالحياة لا تعني مجرد اســتنشــاق الهواء، ولا تعني الحركة؛ قد تعني الحركة، ولكن على نطاق واســع، حركة يمكن أن تنتـــــشـــل صــاحبها، من أي مأزق قد يعلق فيه، وحركة هادفة يمكنها أن توفر لصاحبها كل صُنوف الحياة؛ ويمكنها أن تجلب له كل ما يحب إلى حيث هو موجود؛ وتعريف الحياة قد يكـون مجرد ضرب في الفراغ ربما لأن الحياة عملة مجانية يمكن أن يجد كل شـخص فرصـة، في

امتلاك قطعة منها، وحين يملك أحدنا تلك القطـــــعة، أو العـــملة؛ فإنها يمكن أن تحدد له ذلك المـــصير؛الذي قد يواجهه وتوفر له مدى المصـــاعب التي قد يتجاوزها، ويمكنها أن تحدد مصـيره؛ وهذا قد يدفعنا للاســتســلام؛ حينما نَطَّلِع على حظوظنا في وقت مبكر والحظ يمكن أن يبدأ في مسكن الواحد منا أو في تلك المَنزِلة التي حَبَاهُ الله بها ولكنَّ قليلا منا من لايستسلم وإنما يظل يعمل ويكابد ويجري على قدم، وســـاق حتى تتوفر له حظوظ أخرى، تفتقتْ له من كثرة الدق على تلك الأبواب التي ســـئم البعض الرجوع إليها وتكرار الكرَّة من جديد.

والحياة ساحة كبيرة يدخلها الجميع، ولكن بحظوظ متفاوتة ولكنها حظوظ متقاربة؛ ولكننا قد لا نســتكشـــف تلك الحظوظ، التي قد غرس الله فينا، وقد لا نُدركها إلا مؤخرا؛ وحينها قد يكون الوقت تأخر، ربما لأننا كنا قد شَــغَلْنَا أنفســنا في الإطلاع على تلك الحظوظ التي أعطى الله غيرنا وقد جعلنا الفضــول نُفَوِّتُ فرصــة الإطلاع على خَبَايَا نُفوسِنا والإطلاع على بعض ما وُضع فيها، فأصــعب

اكتشاف؛ هو اكتشاف الإنسان لنفسه، وأرى أنه اكتشاف قد يكون أصـــعب من غَزْوِ الفضاء، ربما لأن الفضاء واسع وفسيح، وهو شيء تراه من بعيد وحينما تصله يمكنك أن تلمســه أما الإنســان فهو غابة مجهولة لا يمكن رؤية أي شيء منها ولا يمكن معرفة شيء منها، إلا عن طريق ذلك الشخص الذي تكلم عن شخصيته وعَرِفَهَا أو عَرَّفَ على الذي يعرف منها ولهذا فإنك لا تجد دواءً محدد يمكن أن يستعمله الشخص الذي يعاني من بعض الأمراض النفسية وهذا يرجع بنا إلى شـــيء واحد وهو أن لكل النفوس مايميزها عن غيرها دون أن تكون نســـخة واحدة وتابعة بالوكالة لغيرها، وقد كان من تلك النفوس الخيرة، صاحبنا.

وقد تواصل مع أحد الأشخاص، الذين يمكنهم، أن يتكفلوا له بتلك التي أسميتها "هجرة" وأن يُسهلوا له عبور تلك الطرق؛ التي لم تكن يوما آمنة، ناهيك عن تلك الوحوش، التي تنتظر الواحد، حينما يضـــع قدميه على الأرض، وتلك الضباع وأسود الغابة، وهي الغابة التي لا بد له أن يقطع فيها أميالا، جريا أو سيرا على الأقدام، وهو لا

بد سائر هناك، وإن يشأ سار؛ جريا، أو مشيا وبعدما قطع تلك الغابة سيرا على الأقدام، فلا بد أن يجد نفسه مرة أخرى في أشد خطر يمكن أن يواجه شخص مثله، وهو الذي يحمل الكثير من الأعباء، على كتفيه وناهيك أيضا عن تلك الحقائب التي يحمل على ظهره التي أظنها قد مُلئتْ، أوراقا ليس لأنَّ شهادة بينهم كان قد كسبها في تجربة التعليم، وإنما بالفعل هناك شهادة بين تلك الأوراق، والتي قد اقتصرت على بعض المذكرات التي قد كتبها في وقت فراغه والشهادة، هي شهادة "الميلاد" والتي تحمل مجرد معلومات أَوَّلِية قد تمنح السائل نبذة عنه؛ لا أكثر! أو المحقق معه!. هذا هو بعض ما قد يواجهه، حينما تتوفر له تلك الرحلة؛ إلى تلك الوجهة التي قد وضع بوصلة عينيه عليها، وقد تَزِلَّ قدم بعد ثُبُوتها حينما تواجهه تلك العصابات التي تواجه عادة كل من سولت له نفسه بأن يقطع طريقا مثل تلك، التي سلك هو وفيها من المخاطر - ما فيها- لدرجة أن سُمِّيَتْ من قبل الذين عادوا منها، أنها طريق الموت، والناجي منها حقا فلا بد له أن يجد الكثير

ربما كان من ذلك الكثير نجاته بحياته ناهيك عن حظوظ أخرى قد تتوفر له، حينما يسعى للكسب الحلال وأن يبتعد قدر المستطاع عن أماكن الشبهات ويشغل نفسه بالذي أوصله إلى هناك، ففي تلك البلاد، يتوفر الكثير، وربما الكثير من صنوف الحياة والكثير من ألوان الحياة وكل شيء، هناك له أكثر من نسخة؛ وأكثر من لون، وهي ألوان ليست شائعة ولكنه مع ذلك لابد أن يَحتاط المُغْترب، على أية حال منهم، وعليه أن لا يقع في أول شَرَكٍ، قد يُنْصَبُ له هذا حينما يجد فرصة الوصول؛ هناك وعليه اختيار كل أقرانه بعناية خالصة وإذا كان بمقدوره أن يقضي مدة من الزمن من دون أصحاب فهو أفضل له؛ ولكنه لا بد له أن يجد إنسانا يمكن أن عونا له في تلك المحنة، والتي كان من قدره، أن يذهب مُكرها إليها؛وشاء الله له بأن يجد هناك الكثير، ممن يمكن أن يُحْسِنَ بهم الصحبة؛ ولكنه لم يختر منهم أحدا. حتى تمكَّن من تلك المنطقة والتي أقام فترة من الزمن فيها؛حتى قَوَتْ شوكته، واشتد عوده، وقد بنى فكرة أَقَلُّ ما يُقال عنها أنها فكرة جيدة، وعلى كل

مغترب أن يسعى إلى جعلها نبذة عنه، فهو مسلم بالفطرة؛ وللأخلاق عندنا حظ كبير وقد كانت مرتبتها أفضل من حيث الثواب، الذي يسعى كل إنسان مسلم؛ لأن يكسب منه ما شاء الله له بأن يكسب، وقد وفرت له تلك الأخلاق، سيرة ذاتية بين معارفه، إلى أن صار يسمى بالأمين "والأمين" وهذا قد يردنا إلى بعيد، حيث سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أفضل سِيرة، يمكن أن يقتدي بها إنسان؛ وأي إنسان، وقد حمل صاحبنا تلك الصفة، وقد تمسك بها قدر المستطاع، على أن تكون واجهة لدينه، ولمجتمعه؛ الذي خرج منه، وقد استثمر ذلك على أكمل وجه، لدرجة أنه صار يملك مكانة كبيرة، يمكن أن تجني له الكثير من المكاسب؛ وكان ذلك هدفه الرئيسي، وهو أن يرجع ومعه الكثير دون أن يُقلِلَ من المكاسب المعنوية، أو المادية؛ والتي كانت هدفه السامي بأن يجلب معه ما يمكن أن يجلب معه؛.

☆ ☆ ☆

ولكن اعذروني على هذه المقاطعة السافرة، والتي يمكنها أن ترجع بي، إلى بعيد حيث ترك أمه، أو حيث انتظرته أمه، كما انتظرته من قبل في أماكن كثر؛ وعن الأسباب التي وفرت له دفع تكاليف تلك الهجرة، مع أن الأرقام ليست صحيحة كلها؛ولا أرى أن هناك ثمن واحد يتفق عليه الجميع أي "المهربين"

وعلى أية حال فإن هذا قد لا يهمنا وإنما الذي يهمنا حقا! هو كيف وجد ذلك المال؟ أو كيف توفَّر له ذلك المبلغ؟ وإذا قال أنه كان يعمل في إحدى المهن التي إن كان قد تحصَّل عليها فإنه لا يمكن أن توفر له ذلك المبلغ، وإذا كان يوعِز بذلك إلى تلك التبرعات التي تحصَّلت عليها تلك الأم؛ بسبب مرض كان قد أصابها، وقد يئست من العلاج، وقد جعلها هذا، توفر ذلك المبلغ وتجمعه؛ حتى يحين موعد هجرة ابنها، فإنها يمكن أن تُخفف عنه بعض التكاليف، والتي لا بد أن يواجهها؛ ولا بد له أن يتجاوزهٰ ولو بشق الأنفس وقد كانت الهجرة هدف صعب المنال أي أنه لا يتوفر إلا لقليل من الأشخاص، والفكرة

يمكن للكل حَفْرها في ذاكرته ولكن لا يمكن أن تكون جزء من واقع يمكن أن يُعاش، ولا يتوفر سوى لقلة من الأشخاص، وهو أن يكون هذا الإنسان على قدر من المسؤولية، وتلك التي يمكن أن تجعل أكتاف صاحبها قوية، وتُمَكِّنُهَا من حَمْلِ الكثير. وفعلا لم تدخر عنه تلك الأم مالا، ولا جُهدا، ولا دعوة صالحة في أي صلاة، كانت قد صلَّتها؛ أو في أي تعويذة، قد تتخيل لها أنها قد تساهم في حفظ ابنها، أو أي شيء من ذلك القبيل الذي يؤمن به العجائز، أولئك الذين يحتاج إيمانهم إلى كتابة من جديد، ربما لأنهم عاشوا في واقع فيه الكثير من الأشياء، الغريبة، والعجيبة في مجتمع كان من المفترض، ألَّا يُؤْمِنَ إلا بالله وحده، دون أن يُشْرِكَ في عبادته؛ "شيخ" أو "عرَّاف" أو شيء من ذلك، ولكن شيئا من هذا الذي سبق، قد لا يَهُمُنَا في الوقت الحالي وقد نُعيد طَرْقَ هذا الباب من جديد حين نَجِدُ له الفرصة ومع أنه هذا ليس هو بيت القصيد لذا فإنه يمكننا التغاضي عنه حينما يتوفر لنا بعض الوقت وقد

نطرق الكثير من الأبواب، والتـي كانت من قبل موصـدة؛ في وجه كل من يُحاول الإطلاع على ما فيها، من خبايا.

ولكنه حينما جمع تلك الأموال والتي حصـل عليها من التبرع؛ الـذي لقيـت أمـه حينمـا أذاعـت ذلـك المرض وأرى أنهـا ليسـت إلا حاجة في نفس أمـه -أو في نفس يعقوب- وللأم قدرة هائلة؛على التنبؤ بالذي قد يصـيب أبنائها، على المدى الـقريب وفي لحظات ما قد تطَّلِعُ على المسـتقبل البعيد ولكن شـيئا من هذا قد لا يهم! لأنه مجرد ذر للرمـاد في العيون، وعيون من؟ ربمـا نفس تلك العيون التي كانت تتلصـص عليه، حينما كان مقيما معها في غرفة واحدة وفي مجتمع واحد ذلك المجتمع الذي يَمْتَازُ أهله، بشيء قد يسـمونه "الإتكالية" وهو مصطلح يمكن أن يفسر من اسـمه؛. وحينمـا لم يكفيه ذلـك المـال، الـذي أعطته والدته، كـان لا بد له من البحث أكثر باسـتحياء على أن تُفِيدَه تلك المعارف والتي كان قد تمـتَّع بها -قبل هذا- حينما كان لا يزال يُزاوِل عمـله، وحينما كان يسـلك تلك الطرق، التي عـهِد لنفسه السير فيها.

وقد أوصـــلته تلك المـــعارف، إلى شخص اسمه "أحـــمـــد" وهذا الشخص قيل أنه رجل أعمال وهو رجل يمكن أن تنطبق تلك الصفة عليه، فـقد سـبق له، وأن ذاع صـــيته، في تلك المنطقة التي يَقْطُنُهَا؛ وقد يكون هذا من الأمور الثانـوية، والتي علينا غض الطرف عنها، ليس لأنها ليست بيت القصـيد، وإنما لأنها هي أهم تفعـيلة في ذلك الـبحر؛ وقد تَـبَادَرَ إلى ذهن البعـض بحور يمكن قطـعها، وأخرى تُمَكِّنُنَا من التغني بها، ولكـــــن أحدَ البَحْرَين لا يمكن أن نتجاوزه دون الغوص، في مكنوناته على أملِ أن نلتقي بإحدى صدفاته.

ولكن أتمنى أن تضـعوا خطا أحمرا عريضـا، تحت "أحمد" وهو الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُه آنفا، وأظنُّه يسـمعنا، وأن كلامي يصـله ولكنه أَعْرَضَ منذُ زمن بعيد عن الكلام، وصار لا يميز من الأصوات إلا صوت تلك الدراهم حينما تصـل إلى جَيْبِه، من الذين سـبق وأن أقرضـهم بعضُ مالِه، ربما لأن مالَه كثير، وهي نعمة يمكن أن تجعله يفوز في أي سـباق حينما يكون المنافس غيره ولذا فإن المنافس

يمكن ألَّا يكون كمْ يَمْلِكُ الشخص من المال في حسابه الشخصي، وإنما اكتفى بأن يخوض تنافسًا آخر، ليس بمقدوري القولَ بأنه شريف، لأن بعض الربا موجود فيه، وهو ربًّا على نطاق واسع ربًّا ينخر فيه منافسيه فيُلقي لهم الطعم حتى إذا وقع البعضُ فيه، فإنه يصطادهم مثل العصافير، من على الشجرة؛.

هذا ما يفعله "أحمد" ذلك الرجل الذي يقولون عنه أنه رجل طيب؛ وهو الذي حينما تحتاج إلى شيء، فإنه قلَّما لا يكون عنده؛ ربما لأنه علم أن من أحسن إلى الناس فإنه قد يَسْتَعْبِد قلوبهم؛ وقد كان صاحبنا من أصحاب تلك القلوب، التي قلَّما يستعبدها من أحسن إليها؛ وكان صاحبنا أشد ما يكون الآن إلى شخص يمكن أن يُقرضه مالا يسد به بعض مما قد ألمَّ به وعن الذي ألمَّ به فهو كثير؛ وحَدثْ ولا حرجْ، لأن الحرج هذه المرة هي ألَّا تتحدث وتغض الطرف عن ما قد مضى من ذلك العمر؛ وتلك السيرة الحافلة من الهموم، والهُيام وهذه الكلمة قد تكون غريبة؛ لأن هذا المكان ليس لها، ولكنها مع ذلك

فقد وجدت هي الأخرى مكانا؛ وقلَّما يَتِيهُ من يتعلق بذلك الكتف أو يسقط؛ لأنه كتف مَرِنٌ ويسع الكثير.

ولأنه علم من قبل مرارة السقوط ذلك السقوط المدوي؛ الذي حينما يصيب شخصا فإنه قد يفقد طعم الحياة؛ وقد تتحول حياته من فشل إلى فشل، لذا فإنه لم يشأ أن يجعل الشخص الذي قد يتعلق به يذوق ذلك الطعم؛ ولا حتى يجد له سبيلا لأن مرارة السقوط تبقى تحاصر صاحبها في كل الأزقة وفي كل الطرق؛ الطرق المطروقة وغيرها، وحين يتذوقها الإنسان وأي إنسان كان ذلك!؟.

لذا فإن الكثير من الأشخاص حمل همهم؛ وكان -أيضا- يشعر بالفخر وهو يرى تلك النفوس، التي تحب له الخير، تسأل عن أخباره؛ وتهتم -أيضا- لأمره وتُكثر الأسئلة تلك الأسئلة والتي قد تكون في ظاهر الأمر بديهية، ولكن تلك البساطة حقا هي ما رفعتْ من قيمتها؛ وجعلتْ صاحبها يكسب عليها بعضا من المكاسب الإضافية؛ والتي

يمكننا القـــــول أنها معنوية إلى حد ما! وهذا الحدُّ هو ما سعى له يوما، ظنا منه ألا يكلف صاحبه شيئا؛ وهو لم يكن يوما يسعى لأن يكلف أصحـــابه أية أشياءَ وأشياءُ صاحبنا هذه، قلَّما تأتي إلا وعلامة النصب؛ في اللغة ظاهرة عليها؛ وهذه لغة للنحاة؛ ولكننا قد نستـــفيد منها لأجل استقامة بعض العبارات العابرة والتي قد سعى صاحبنا يوما؛ لأن لا تزل به قدم بعد ثبوتها.

ونحاول الرجوع؛ حيث تركنا صـاحبنا -هذه المرة- على عـــــتبة أخرى غير تلك التي تعوَّد أن يجد أمه عليها؛ لكن العـــــتبة هذه المرة نوع آخر لأنه في هذه العتبة هو الحَلَقَةُ لأضـــعف وليس معنى هذا أنه كان في العتبات السابقة أقوى وأشد بأسا وقد كانت له كلمة الفصل فيها؛ أو ربما كلمـــات أخرى كانت فاصلة في حياته وفعلا كان هذا له لأن تلك الأم والتي أســـأل الكريم أن يغفر لها ويرحمـــــها كانت تُشجعه على كل خطوة؛ يَخْطُوها ليس لشـــيء! وإنما لأنه وَحِيدُها كما قُلْنَا سَـابِقًا، وهي لم تَدَّخر جُهْدًا في سبيله؛ لأنها ظلَّتْ -يرحمها الله- تُصارع الموت؛

إلى آخر رمق وإلى اللحظات الأخـــــيرة في حياتها؛ فلم يحدث ولا مرة أن طلبتْ من شـــخص أن يُســـاعدها في شـــيء؛ أو حتى أن يُوفر لها أي شـــيء؛ ولو أن هذه الكلمة كانت صـادقة؛ لأنصـفتها "عصـامية" ولكني أظن أنها أكبر، وأعظم من هذه الكلمة ليس لأنها لا تَصِـــف أو لا تُعَبر؛ وإنما لأن الوصـف والتعبير يَقْصُـرُ في حقها، لأن الكلمات في بعض الأوقات قد لا تَصـلنا إلى الشـعور الذي يُؤَرِقُنَا؛ وقد أرَّقني حق تلك الأم، ولها عليَّ حق؛ وأتمنى أن أصـله إلى صَاحبَتِه؛ وهي أُمِّي.

وأتمنى -أيضا- لو تكون هذه المحاولة، والتي كنت أهْـدِف عن طريقها لأن أُذكركم بتلك "الأم" لأننا تكلَّمنا كثيرا وحتى أنني لم أضـــع لها مكانا في الفقرات الســـابقة ربما لم يعد هذا الوقت موعدٌ لِذكرها؛ والوقت هذا، كل الوقتِ وقتٌ لها؛ ووقت لأجل أن تُذكر هي فيه، لأننا بذكرها نعرف قيـــمة الوقت؛ وقد نشعر -أيضا- بـــتلك النعمة؛ والتي هي من النعم الكثيرة، التي حَبَانَا الله بها لكننا قوم مسـاكين لا نشـعر بقيمة النعم؛ إلا حين تُفقد أو حينما

لم تعد متاحة لنا؛ أو حينما لم يعد اختيار الاحتفاظ بها ممكنا، كل هذا قد يحدث، وهو لا بد أن يحدث، لأننا نحن لا نَفِيقُ من سَكْرَتِنَا إلا حينما نُصدم أو نفقد البوصلة، ونضيع في منتصف الطريق؛ وفي منتصف تلك الطُّرق الشائكة، التي قلَّمَا تتركنا نتجاوز تلك الصدمة والتي توقعنا فيها في لحظة ما من خيارات متعددة لم تكن متاحة لنا ولم يكن الخيار في الاحتفاظ بها ممكنا.

لكن هذه الأحاديث الجانبية، لن تدع صاحبنا، يبتعد عن بيت القصيد؛ وهو البيت الذي سعى صاحبنا يوما، لأن يحفظ كل تفعيلاته ولا لغرض إنشادِ قصيدة؛ ولا لغرض المدح؛ ربما هو لم يَسْعَ يوما لأن يجعل من معارِفِه تَسَوُّلاً؛ ولا أن يكون حتى علمه سببا في كسب المال، والمال حين يَتُمُّ كَسْبُه عن طريق العلم، فإنه يبقى مالا بطبيعته الحال؛ وقد اكتسى ثوبا ناصع البياض، ثوب لا تشوبه شائبة، ولا يكدر صفوه أي شيء؛ ربما لأن الأشياء كل الأشياء لاتملك شيئا من نفسها لأنه هناك قوة باطنة فيها؛ هي التي تُسَيِّرُهَا بأمرٍ إلٰهي؛ وقد لا تُبْصَرُ إلا بعد فوات الأوان.

بعد مدة من الزمن، وجد ما يَصـــبُوا له؛ ويحلم به، وهـــو حينما كان يحلم، ويصبوا؛ فإنه حلمه لم يكن يتعدى هجرة إلى بلاد غربية؛ وهي بلاد تردد صدى صوتها، ودوى في أكثر من بقعة من بقاع هذه الأرض الطيبة؛ والتي لو علم أهلها مدى الطيبة التي فيها وفي أهلها وقيمة تلك البركة التي وضـــعها الله هنا، لكنا نحن قِبْلة لكل العالم،العالم الظالم وحتى العالم المســـكين قد يجد هنا بعض الأمان؛ وبعضـــا من تلك الأحلام والتي ســـبق وأن حمل صاحبنا الكثيرَ منها، ولا عِلْمَ عندي -هذه المرة- أين وضـــعَتْ تلك الأحلام أهي في جيبه؟؛ أم في محفظته، أو في مذكرة هاتفه أو حتى في ذاكرته وهذه أشـــياءٌ مجرد تفاصـــيل ولكن الحقائق؛ كل الحقائق لا تَتَفَتَّتُ ســـوى من تلك التفاصـــيل الصـــغيرة؛ وحينما يكتمل نِصـــاب تلك التفاصيل؛ وتُغَرْبَلُ -مرة أخرى- وتُعاد صياغتها من جديد.

وتلك التفاصيل التي مرتْ بها رحلة سفينة صاحبنا؛ وقد شاء الله لها، بأن تَرْسُـــو في مينـــاءٍ آخر، غير هذا الذي قَدِمَتْ منه. قد لا نطرق الآن بابها ونطرق أبوابا أُخَرْ قد

تكون أشد صلابةً من تلك التي سبق وأن فُتِحَتْ، ولكن تعسر فَتْحُها على غيره من الأشخاص الآخرين الذين حاولوا قدر الإمكان أن يجعلوا منه -هو- قدوة لهم.

وهم أيضا حالمون ولكن بدرجة أقلّ ولَيْسَتْ مثل التي يملك هو، وهو هذا قد منحه الله قدرة عجيبة، على الصبر والثبات في كل أمرٍ يعزم على فعله؛ لأن عزمه من الأحجار الكريمة، ويصعب كسرها؛ ويصعب أيضا تجاوزها.

ومن اللحظات الأولى لقدومه إلى تلك البلاد؛ صَادَفَتْهُ إحدى تلك الفتيات الّتي تقطعت بها السبل؛ وهي إحدى السبل التي ظن هو يوما، أنها قد تكون بَرُّهُ الآمن في تلك البلاد، والتي لا يُؤتمن فيها برٌ ليس لشيء وإنما لأن الأمان هناك مؤجر لأهله وهم يأخذون منه أقساطا حسب دَخْل الواحد منهم؛ وهو لم يملك بعدُ دخْلا، يمكن أن يوفر ذلك الأمان المدفوع التكلفة وكان السبيل إلى ذلك الأمان هو التمسك بأي سبيل يمكن أن توفره له الصدفة؛

أو الـــطرق العابرة؛ أو في أي مكان آخر، قد يوفر له ذلك الأمان المزعوم؛ حتى يجد الوقت لأن يوفر هو لنفسه أَمَانًا أكثر جدوى أمانا لاتتوفر بطاقته عند أحد وَلْيَكُنْ ذلك الشـــخص ما يكن؛ وقد ربط الله على قلبه؛ وجعل له قلبا عصيا؛ هو قلبٌ لا يمكن كسبه، ولا يقع في أول شَـــرَكٍ ينصب له وقد استمرتْ تلك المناوشات بيـــنه، وبـــينهـــن؛ ولكن واحدة هي التي فازتْ بقلبه، وكســـبته، وقد طاوعته في ذلك الحـــــب، وطاوعها هو فيه، حتى تآلفتْ قلوبهم وأصبحت مثل الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد لكل ما من شـــأنه أن يقدمه لنـــصفه الآخر، الذي أصبح يملك نفسا أخرى، غير تلك التي تعوَّد هو أن يشعر بها؛ ولكن تلك القـــصة التي بدأتْ تُكتب في صفحة عمرهم؛ لم يكـتب لها أن تكتمل لأن هذه القصص من قَـــــدَرِهَا ألا تكتمل؛ والحكمة من ذلك، لا أعرف عنه شـــيئا، ســـوى أنه ما بُنيَ على باطل، فهو باطل؛ وأن البداية التي لا تُرضي اللهَ فحتما نهايتها لا؛ ولن تكون ترضى حتى صـــاحبها وهذه حكمة بالغة، لأن العلاقات مشـــروعة؛ وأن

تكون خاضـــعة لذلك النظام الإلٰهي، ويهدف من خلاله الإنسان أن يسنَّ سنة مؤكدة من سنن الكون.

وإني لأعْذُره، إن كان ســبـــــيله إلى ذلك هو تلك البداية، والغير مشروعة والتي كان من شأنها أن تُضَيِّق عليه الخناق وتحدد له خيارات حياته المســتقبلية والتي لو أنها بُنيتْ على البداية والتي كان يَعرف هو أنها لن تكتمل فإن هذه البداية لن تكون له سـوى علقما في فمه، يقضـي على قلبه بأن يَحرُمَه أن يميز بين ما يُحب، وبين ما يصـــلح له، لكن عن طريق تجـربته تلك؛ فإنه قد يَحُدُّ من تلك الفرص المـــتاحة، لأن هذا القلب حين لا يجد صاحبَه الأمان مِن الذي اختار وأحبَّ فإن قلبه ستُصيبه لَوْثَةٌ صحية؛ يَصْعُبُ عليه تجاوُزَها، وتصبح كل خياراته التي كان يَختارُ مريضةً؛ تحتاج لِلْفَرْزِ مرة أخرى، وحتى الخيارات التي كان يَثِقُ هو فيها لم تعد لها أي جدوى ولم تعد فَاعِلِيَّتُهَا ممكنة؛ ليس لشـيء سـوى لأنه حاول-هذه المرة-امتطاءَ جواد من نوع آخر.

كل هذا يحدث؛ والذين ترك خلفه، يحلمون بأن يرجع لهم هو ويحمل معه شمعة النور؛ ذلك النور والذي كان قبسه الوحيد هو.

وقد ترك من خلفه ذلك العالم المسكين، الذي ينتظر الشخص الذي قد يعيد بناء الحياة فيه من جديد؛ وشخص يحمل كل أسس تلك الفضيلة، شخص يحمل معه الحرية؛ والحرية في كل اختيار قد يختاره الإنسان وأي إنسان، لأن هذا الإنسان لا يخضع كيانه لأي وصاية، وعلى العالم أن يترك الإنسان دون أن يجبره على فعل أي شيء لا يؤمن به، أو أي شيء آخر، لا يحب هو فعله.

وعلى هذا المنوال عاش صاحبنا حياته: متمردا من دون أية وصاية، يمكنه الخضوع لها؛ وأية مبادئ يمكن أن يُركن نفسه إليها لقد عاش عزيز النفس وقد حمل معه كل ذلك العز، وكل ذلك الشرف من أمه؛ ومن الغرابة أن يحمل الإنسان الشرف من أمه دون أن يكون للأب فيه سهم واحد والحقيقة هي أن كل سهمٍ يُذكر قلَّما لا يكون

للأب فيه نصيـــب؛ ولكن النصيب هذه المرة مصدره الأم؛ وهي أمه والتي نادرا ما أقول له أنها أمي -أيضـا- ويُعاتبني أننا لكل واحد منا أمه، وهي أفضـل في أشـياءَ أُخر ولكنني نادرا -أيضا- ما أخضـع لذلك المُزاح الغـبي وأُصغي له، لأن الأم التي قال: أنها أمَّه تتوفر فيها كل صـفات الأمِّ التي هي أُمي ولكن هذا قد لا يهم الآن، لأنها ســواءً كانت هي أمي أو أمه؛ فإن هذا قد لا يغير من المعادلة شـيئا، ولكنه -أيضـا- قد يُغير أشـياءَ أُخر لا قبل لكم بها؛ ولْيكن ما يكن. المهم؛ أو الأهم أن أمه كان يرى فيها كل العلامات وتلك التي تدل على الصبر، والمثابرة والإصرار، والقـــناعة؛ بما وهب الله وعن الذي تم ذكره من قبل على ســبيل تلك -التبرعات- والتي ركن نفسه لها ولكنها مع كل هذا لم تُؤثر عليه، ولا حتى على على تلك السـنون الطِّوال التي قضـاها في التحصـيل مع أخيه حينما تقطعتْ بهم سـبل؛ بطرقٌ غير مطـروقة، ويمكننا القول أنها مطروقة؛ وقـلَّما يأتي صاحبها بشـــيء، إلا بعد الكثـــير من الصبر، والكثير من الإصرار؛ والمثابرة، وفي هذه الأخيرة هي التي سعى -هو- لتكـــون

دَيْـــدَنه أو هي علامـــته التجارية؛ تلك التي تُفرق بينه مع أقرانـه، وكـان يتفوَّق دومًـا حين يكون بين أقرانِـه؛ وأَقرانُـه ليسـواْ بِكثرة، ولكنه كان يرى في تلـــك الكثـــرة منافسة شـرسـة، منافسـةً لا يأمن صـاحبها مكانته لأنه قد يُزال منها الآن؛ الآن وليس غدا؛ وكان يرى في كل غدٍ يوما جديدا غيرَ الذي تعدى؛ وكان يُمنِّي النفـس بأن له عظمةً لا بد لها أن تظهر للعلن، وتلك العظمة التي كان يرى-هو-لم تأت من فراغ وقد كانت نتيجة للكثير من التراكمات والمصاعب والمصائب التي أصابت تلك الأم، وتجرعتْ منها كؤوسا؛ ومع هذا الصـبر فإن تلك المحن قضـيَ عليها، وظلتْ طي الكتمان، أو النسـيان ربما يرجع السـبب أنها لم تسـتسـلم لتلك المحن التي حلت بها ولم تركـــن لها؛ وإنـــما ظلت تُـجاهـد بكل ما أوتيـت من القـوة؛وكانت تجري على قدم وســـاق وكانت تعرف أن قيمة الإنســـان فيما يقدمه بين "ولادته، وموته" ولهذا لم تسـتسلم والعكس هو الصحيح، ظلـت تُكـابـد حتى الرمق الأخير من عمرهـا؛ وهو العمر الذي شـهدتُ كل فصـولِه التي عِشـتُها؛ ورأيت فيها إمرأة

بألفِ رجل، وهذا الجمع ليسَ مَنقصـــةً للرجال ولا من قيمتهم؛ وإنما يَحـــــدث أن تكون هناك إمرأة تخلى عنها الرجال، لأنها لا تخضع لهم.

إمرأة متجبرة ليس بـالظلم ولا بـالقهر ولكن بالاســتغناء عن كل ما عند الناس؛ لأن الذي عندهم مجرد حســرة، وقد تكون الآن مؤجلة ليس لأنها لا تملك مكانا، وإنما العكس هي هي تصلح لكل الأمكنة التي اعتاد الناس الوقوف عندها.

والوقوف هنا هو في تلك اللحظة التي يتخطى المرء صــعوبة فيها، وتلك التي كانت له، وعليه محنة قاتمة؛ وقد جعل منها مِنحةً وهذا ديدن المؤمنين، وهم الذين كلما أصابتهم مصيبة ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم؛ هؤلاء هم المومنين حقا وهم الذين يعلمون أن ما عندَ الناس ينفد، وما عند الله باق؛ ولهذا فإن تلك الروح الطيبة لم تسْــتكن لمخلوق، ولم تقف عند بابه وإنما كانتْ تعمل وكلما عملت نالت رزقها والرزق هذا لم يكن يعني لها شيئا، ولم

يكن لِيُشغل بالها، لأنها تعلم حق المعرفة أنه مرتب إضافي، وأنه -هو- الشيء الوحيد الذي ضمنه "الله جل جلاله" لعباده.

لقد كانت أمي بألف رجل؛ وكان الرجال حولها تَذْرُوهُمْ رياح الهوان والسكون، لقد كانت لنا أكثر من مجرد أمٍّ؛ وإنما كانت لنا الدنيا بكل حذافيرها، وبكل تفاصيلها، وحينما نكون معها فإن الدنيا العصيةُ على الهوانِ؛ تهون عندنا، وقد كانت البركة والستر، والفضيلة وكل تلك الأشياء الجميلة؛ والتي كانت من ضِمْنِهَا هي متوفرة عندنا وقد كان عندنا فائض من كل شيء وحتى الأشياء التي لا قيمة لها عندنا، كانت متوفرة هناك. فلم نكن نحتاج لشيء! لسبب واحد؛ وهو أننا نملك كل شيء أو بعبارة أخرى قد تكون أدق، لأننا نملك الذي يوفر لنا جميع الأشياء التي نحبها؛ ولم يحدثْ ولا لِمرة واحدة أن لُوحِظْنَا واقفين عند باب!! وكثيرة هي الأبواب التي تُعرض علينا ولو كان الوقوف هناك مجرد تسلية لا غير!.

إنّي والكلام، وعن أمي؛ كلام لا حد له وبحرٌ لا مِداد له؛ وحبر لا يَجِفَّ قلمه ولكن "وهذه اللاكن" هي المعضلة في كل وقت وحين.

لأني بهذه"اللاكن"أستدرك أشياءَ كانت وقد تكون على مرمى النسيان وهو ذلك النسيان المخيف الذي يَحذف خريفا كاملا من حياة الواحد منا، دون أن يدري؛ وحتى لو أنه درَى وَفَاتَه الإدراك، فإنها ستبقى هناك حسرة، وحلَقَة فارغة في ذاكرته؛ تُحَاصِره، وتُؤَنِّبُ ضميره متى ما فاقَ من ذلك الإسْتِكَانِ الذي لا يُعبِّر عن صاحبه.

تحدث أشياء كثيرة؛ ولكن صاحبنا قد لا يهتم لمعظمها؛ ربما لأنه اعتبر أنها أحداث ثانوية في مذكرة حياته، وقد لا تشكل فرقا في تلك المعادلات والتي كان قد تعوَّد أن تستقيم عليها حياته، تلك الحياة المليئة من كل شيء، والفقيرة -أيضا- من كل شيء؛ وهو مع هذا -أيضا- عنده فائض من كل شيء؛ ولمَ أرى قبلُ شخصا تجتمع فيه المتناقضات وإن كانت هي نفس هذا الشيء

الذي يُؤرقه، والذي يُؤرقنا؛ كلما حاولنا أن نقترب منه، لأجل أن يصـــيبنا وميض من ذلك النور، الذي يتجلى في شـخصـه الكريم؛ -وهذه ليسـتْ نكتة، فهو مع كل الأشـياء التي فيه من المتناقضـات إلا أنه يبقى شـخص في نوع آخر شيء من الرحمة، وتلك الرحمة، والشفقة، التي تغلب على صاحبها بكل ما فيه من طبائعَ مشتتة.

وقد دَلَّتْهُ تلك الفطرة السليمة؛ أو السلـــيمة في هذه اللحظات والتي كان فيها يحتاج إلى أي شيء سليم، يُمكنه من خِلاله أن يقنع نفسه، بأنه يستـــطيع المُضي قُدما، في تلك الحَماقة وأقول: لها حَماقة لأن الإنسان حينما يُصاب بها، فإنه يُصـاب بداءٍ أقل ما يقال عنه؛ أنه داءٌ يُخفي حقيقة الأشـياء، ويُصْـبِغُ عليها صـبغة أخرى، تطمِس حقيـــقتها؛ وهذه الأخيرة هي التي كانت مطلب صـاحبنا -في أكثر من مرة- ولكنَّ قليـــلا من يَفْقَهُ ذلك؛ ولكنه لم يُصـغ لجهل الناس، وإعراضـــهم عن حقيقة ذلك الشـــيء الذي حينما يحب شـيئا فإنه يسـعى إلى تضـخيمه وقد يعطيه مكانة أكبر من حجمه الأصلي؛ ولكـــن شيئا من هذا لم يحدث وإنما

العكس، فقد تم تضـــخيم تلك الأحداث وأُعطيت زخمًا أكبر من حجمها؛ ولعلَّكم الآن فهمتهم قصـدي؛ ولربما لم يتضـح بعد ذلك القصـد!؛ ولربما لم نصـل بعد إلى بيت القصيد

وهو البيت الذي وقفنا مرات عند بابه؛ مرة نـــنتظر الإذن، لأن ندخل، ومرة أخرى نطلب الإذن للخـــروج؛ ولربما كان الدخول أســهل، ولكن الخروج منه ليس بهذه البساطة، لأنك في هذه المرة قد أضعتَ المفتاح السحري، ذلك المفتاح الذي قد فتح ذلك القلب وجعله لك صَـرْحًا مُمَردًا أَترى أن الخروجَ يمكن أن يكون بهذه البسـاطة دون أن تدفع ثمن تلك اللذة، وحتى تلك المتعة المسروقة تلك اللذة المنتهيةُ الصلاحيةُ أوِ التي قد تم تناولها قبل اكتمالها؛ من قبل حتى أن تكون جاهزة ولا أسـعى لألقي اللوم على أي طرف، والحقيقة أن الكل ملام؛ وأن الكل مُتَّهَمٌ؛ وهنا لا حياد، إما أن تكون مع الجاني؛ أو أن تكون في صـفِّ الضحية، وهذه الأخيرة أحسـن -أيضا- وهي التي دائما ما يُفضـل صـاحبنا، ربما لأنه لا يحب أن يحمل قلبه غلا

لأحد؛ ولعلك الآن تسألني عن ذلك "الأحد" ولعلي الآن أسأل -أيضا- عن قصة "السبت" التي سبقتِ الأحد، والأحد لي، ولكم، ولهم ولكن "السبت" لمن يكون.

ربما أُحاول الآن سرد قصص، لعلها تُخفف عنك هذه الوحشة وهذاالملل الذي أصابك والذي أراه الآن يَتَصَبَّبُ مع كل قطرة تقطر من جبينك هذا نَاهيك عن ذلك الغيظ والذي لم تستطع كتمه؛ ربما لأنك سئمت من كل مرة، من المرات السابقة؛ تلك التي أشدُّ فيها حيلك؛ وينتهي بي المطاف دون أن أترك شيئا لك؛ قد يملأ أو يعوضك عن ذلك الطمع الزائد؛ والثقة العمياء تلك التي سبقَ؛ وأن كانت صبغة مع إحداهن؛ و"كثر هم هن" ربما لأنني في كل مرة كنت اختار "إحداهن" كانت الخيارات ضيقة؛ وكان كل شيء حينها محدود، الزمان، والمكان، وهذا من الأشياء الصغيرة، في حياتي، والتي لا زالت إلى حد الآن غير مرتبة وغير منظمة، وأنا أكتب هذه الكلمة؛ أحاول خداع نفسي لعلها تُهدي لي بعضَ الوقت، لأن اتفرغ لك أنتَ وأكتب لك، وأقول لك أن الوقت ضيق؛

ضيق جدا؛ وإني إلى الآن لا زلت ضائع ربما لأني أضعت ساعتي؛ تلك التي تركتـــها تِذكارا على يديها، حينما همت بالرحيل؛ أو حينما لمحت بها صـــدفة، أو حينما رفعت يديها ولم تعني شيئا من الذي فيه وكما قيل أن المرة حينما تسبقه إلى عقله؛ فإنك قد تسيطر على أفكاره وهذه أيضا نكتة خبيثة؛ وأشد خبثا من الذي سبق وربما كان العقل هو ما عندها والقلب هو ما تركتْ لأنها لم تترك لي عدا صخرة صماءً اقتصر دورها على توزيع الدماء تلك التي سبق وأن جَرَتْ من دون زَحْمَةٍ؛ لِمجرد أن قلبي كان على يقين تام أن هناك قطعة فيه ملك

وهذا الإسم لا علاقة له بكل الذي سبق؛ والذي قد يأتي لا حقا؛ لأني اخترته بعناية؛ كما أنني اخترت -أيضـــا- صاحبته؛ بعناية؛ ولكننـــا كُتِبَ لنا الحق في أن نختار؛ وقد نخطئ حينما نختار، لأننا لم نكن حينها نملك إلا نظرة دونية تنظر إلى الأشـــياء بمنظور طفولي ولقد كنا حقا! أطفالا؛ بكل ما فينا بدءً من تلك الحماقة والتي لا يجهل أحد منا أن مصـــيرها محتوم، ولْيكن ما يكن؛ والمهم هو

أننا عشـــنا في فترة وجيزة من الزمن، الزمن الجميل ما لم نَقْدِرُ حتى على أن نجد شيئا مثله يمكنه التعويض لنا وحتى نعيشـــه طيلة حياتنا؛ ولكن الحماقات أحيانا تكون جميلة وقد تكون أيضـا غبية، ولكنها مع كل هذا فإنها تكون معها ضحـــكة دائمة؛ وشعور صادق، منقطع النظير، شعور لا يمكن للكلـــــمات أن تعبر عنه، أو حتى أن تصـفه؛ ليس لشـــيء وإنما لأنه إِنْفِعَالٌ صـــادقٌ؛ والكلمات لا تصـــف الانفعالات لأن المفردات التي تملك قصـيرة؛ لا يمكن أن تعبر حاجز الصمت؛ إلى حاجز الشعور.

أتمنى لو تَضَع الآن تلك الـقصة؛ أو قـصة "السبت" وهي التي كنت أتظن أن بمقدوري قص القصـــص عليك؛ لأن القصـص ما هي إلا عذر من آلاف القصص والأعذار؛ تلك التي لا بد لي أن أقول لك عنها شـــيئا في كل مرة؛ ألْحظُ فيها أن الملل أصابك؛ أو أراه يتسرب إلى أعصابك وهي تلك الأعصاب والتي يمكن أن يخفف من وطئتها أي شيء؛ وقد كان ما سبق بديلا لذلك الشيء أو لتلك الأشياء الكثيرة والتي لا حصـــر في وأين هذه المرة ربما لا أعلم؛

ولكن ما أنا مقتنع به، هو أن مذكرة هاتفي هذه المرة بريئة؛ وأنا بريء مما تظنون.

ولقد كان الحب هو أجمل شيء يمكن أن تشاركه مع شخص آخر؛ هذا حينما تقتنع أن السعادة لا نجدها، إلا حينما نسعى إلى مشاركة الأشياء التي نملكها؛ ولقد كان صاحبنا فقيرا من كل شيء، ولم يكن يملك إلا هذا "قلبه" إشارة إلى ذلك القلب الصادق لذلك القلب الذي يَصْدُقُ نفسه قبل الآخرين بالشعور الصادق؛ الذي يبحث عنه كل الناس، ولكن قليلا منهم هو من يصادف ذلك الشعور ويتمسك به، فهو أفضل كنز يمكن لذلك الإنسان الذي قضى حياته بين الأخذ والعطاء؛ أن يكسبه ولو تم كسب ذلك الكنز، فليعلم أن الكنوز الأخرى مسألة محسوم ومسألة يمكن أن يُسدل عليها الستار؛ وتضاف إلى قائمة تلك الأحداث؛ والتي حدثت واكتمل النصيب فيها ولكن لم يتجرأ عليها الآن أحد على أن يبادر صوبها أو أن يسألها كيف حدث هذا؟ ولماذا حدث إن بعض الأسئلة جوفاء لا تمنحنا الجواب ومن تلك الأسئلة التي خطرت وتخْطر

ببال كل من سبق وأن أحبَّ شخصا، قد اختاره من بين ألوف مُؤلفة من الأشخاص وكيف له أن يتعرض للخذلان، وحدث هذا، ويحدث هذا بعد ما تم استدارجه، حتى وقع في ذلك الفخ؛ وفي ذلك الشَرَكِ الذي كان يخفي عن المحب والذي"أسميته الضحية نظرا لأن هذا النوع من الحالات المعقدة لا بد أن يجتمع فيها الضحية والجاني في نفس الوقت وقد تكون الأحكام التي تخص كل واحد مختلفة؛ لأنه ليس من العدل، أن نخلط بينهم -الضحية والجاني- في نفس القضية وبنفس الحكم؛ وقد يكون الحكم نعم!! ولكن الشروط قد لا تتوفر" وفي الذي سبق؛ كان السبق فيها"الضحية"لأني بنظري وبعيني التي أنظر بها إلى الأشياء وَأَزِنُهَا قالت لي هذا؛ وقد يرجع بي هذا إلى زمن بعيد؛ وليت الزمن يعفوا ويصفح عن أهله، كلما ارتكبوا حماقة؛ وفي كل وقت يسيئون تقدير موقف.

وقد كنت ضحايا ذلك الحب أكثر من مرة؛ ليس لشيء وإنما لسبب واحد؛ وهو أني لم أقتنع إلى حد الآن، أن المحب قد يُحول حياة محبوبِه إلى جحيم لا أمان فيه

إلى حجيم تَفْقِدُ فيه بوصلة حياتك وتتحول إلى جحيم لا أمان فيه ولكن من السذاجة أن نقتنع بهذه الحقيقة الصادقة؛ وهي أننا لا بد أن نجد في كل نزاع "جاني-ضحية" وعليك أن تختار حين تريد الدخول في تلك المتاهة؛ المُسَلَّمِ بها، لأنك حينما تبادر لتخلع ذلك الباب؛ واعذروني على هذا الخلعِ، والذي قد يكون سبق أوانه؛ أو كان مع الشخص الخاطئ، وهو الشخص الذي ليس يصلح لنا ولا بأي حال من الأحوال؛ ربما لأنه حبه كان شيء مستحيل بالنسبة لنا؛ والمستحيل ليس الحب؛ وإنما التفاعل معنا؛ وأن يبادلنا ذلك الشخص جميع الشعور وأن نكون نحن أهم مكسب في حياته" وبالمناسبة نحن، أحد أسمائي" ولكن هذا لا يهم الآن؛.

ولا زلت لحد الآن لم أفهم؛ كيف يحول إنسان شخصا ادعى يوما أنه يحبه، وكيف سامحه ذلك الشعور، أو اللاشعور أن يحول تلك الحياة إلى دوامة من التعاسة والقلق الدائم؛ وهو القلق الذي لم يعد صاحبه يَأْمَنُ نفسه على شيء؛ إني حقا لم أفهم كيف ولماذا يحدث هذا

الاستدراج ولماذا حقا أليس من العدل أن يتفقوا مذ البداية على تلك النهاية، والتي قد يكون الوصـول إليها لا بد منه، لأجل أن يســتقيم جزء منا، ســبق وأن طوَّعَتْه الحياة، وأعادت بناءه من جديد؛ إني وأننا قد لا نعي أو نفهم سبب حدوث بعض الأشـياء من تلقاء نفسـها إنها لماذا عقيمة لا تمنحنا على الجواب الذي نبحث عنه ولا حتى تدلنا على مربط الفرس.

ربما قد نتوصل لنتائج قد طُبِعَ علـــيها الفشل لأنها نتائج تأخر إدراكها، وإدراكنـــا الآن لا يعيد للحياة شعورا من جديد بعبارة أخرى إن الدق على الأبواب الموصـدة لا يقنع أهلها أن يفتحو الباب الذي أغلق في وجهنا؛ وأقول: أغلق وهو فعل بُني على أساس المجهول ولكن صاحبه أو حتى صـــاحبته أغلقته عنوة وقناعة منها ولا أفهم لحد الآن -أيضـــا- كيف تُسْـــنِدُ اللغة بعض الأفعال إلى المجهول ونحن نعرف أهلها؛ عن ظهر قلب أحقا! حينما تضـيق بك السبل؛ تصبح كل الأشياء ضدك، وحتى تلك الأشياء التي أحببت، والتي اخترت من بين الألوف؛ أن تقف ضدك، في

حياتنا الكثير من الألغاز تحتاج أجوبة وتحتاج أن يُعاد سكبها من جديد؛ لأجل أن تكون أفضل من ذي قبل!. وربما نحاول الآن -أيضا- محَاوَلَةً كُتِبَ عليها الفشل؛ من قبل مثل الأشياء سبق وأن جربناها وكان نصيبنا منها هو الفشل وحده؛ وكان ذلك الفشل، فشل في الحياة، وفشل في العمل وإفلاس في الحب؛ وهو الذي إما يعطينا كل ما نحتاج وكلما ينقصنا؛ أو أن يأخذ منا كل الأشياء التي نملك، ويتركنا صفر اليدين وهو مع هذا حينما يأخذ منا كل ما نملك فإنه لا يترك الواحد منا بحالِه وليْتَه كان مثل قطاع الطرق؛ يأخذون منك أشياء؛ لكنهم يتركون لك حياتك ولكن الحب مسألته عجيبة، إنما النجاح، أو الفشل؛ والنجاح فيه لا حد له، كما هو الفشل -أيضا- لا حد له!!.

☆ ☆ ☆

في الحب لا بد أن يكون هناك جاني، وضحية؛ وهذه المسألة ليست حكرًا على الحب وحده، وإنما على كل الأشياء، والتي تكون بين أكثر من شخص؛ وشخصين على أقل تقدير، ولهذا كان موضوعنا هو الحب وحده وغيره من

الأمور الأخرى هي أمور ثانوية ويمكن أن تكون أيضا لاغية لا غير! وهذه الكلمة واجهتُ في حياتي الكثير من الصعاب حينما يتعلق الأمر بها وقد كان ذلك في سبيل الوصف؛ والتفاعل مع هذا "المركب الكيميائي" الذي يُصبغ على حياتنا طلاء من نوع جديد، وهو طلاءٌ من النوع الرفيع؛ هذا حينما يستمر ذلك الإيقاع، والذي نُحب نحن؛ حينما يستمر لنا مع من نُحب، ونكون نحن، وهو في أعلى مستوى من التناغم، والتفاعل؛ والذي كلما استمررنا فيه معا، نأخذ ونعطي؛ ويحرص الواحد منا على العطاء أكثر مما يأخذ، هذا حينما يستمر فإني أضمن لكم أن الحب، الذي اخترتم سوف يدوم-علما أني لم أتعهد لكم من قبل بشيء إلا في هذه، فإني يمكنني الرهان عليه- لأن الذي رأى حقا!! ليس كمن سمع" والذين جرَّبُواْ هذا من قبلُ يعرفون قيمة ما معنى أن يُراهن الإنسان على الحصان الرابح؛ من كل تلك الأحصنة ولربما هو وجد ما يضمن له النصر، لذلك أظن أنه لم تصادفه غضاضة في ذلك الاختيار والذي اختاره عن قناعة والأخيرة هذه -أي القناعة- هي

التي حـــينما يتوفر لنا قسطا منها، فإننا يمكن أن نفعل أي شيء نرى أن فيه المـــصلحة لنا؛ والمصلحة هنا هي عملة مشـــتركة، عملة يربح فيها أكثر من واحد؛ ولهذا فإن ذلك الواحد كان يسعى؛ ويسعى دوما لأن لا يخسر ذلك الواحد الذي في المقدمة؛ والذي كان في كل مـرة يوجد فيها إيثارٌ يقدمه فيه على نفسه.

لأن الحب؛ أشـــد وثيقة يمكن أن تنشـــأ بين اثنين؛ ويحدث هذا حينما يكون الحب صـــادقا، لأن الصـــدق وليـــــس ذلك في الحب وحده، وإنما في كل الأشـــياء الأخرى؛ فهو الضـــامن الوحيد لها وهو الذي يَقِيها من التَّلَفِ؛ ولهذا كان الكذب من الكبائر وأنت مع هذا تظن أنه لم يكن يقتضي ذلك، وتقول في نفسك لماذا حين أَضَعُ كلمة مكان أُخرى، وأقول شيئا بدل شيء آخر فإن ذلك قد يغير أشياء كثر لا حـــصر لها؛ وهو بالفعل يغير أشـــياءً لا حصـر لها، ولكننا مع ذلك نسـتمر في الكذب، ونكذب - أيضـا- على نفوسـنا بدون اكتراث والكذب مع نفوسـنا قد يَحدث لأن الذي قد يتضـــرر منه هو نحن لا أحدَ غيرنا؛

لذلك فإننا يمكننا الكتمان، وحتى التغاضي، ليس لأننا لا نشعر بأثر تلك الكذبة التي حدثت معنا؛ أو التي أَحْدَثْنَاهَا مع نفوسنا، لا شيء حقا! من هذا هو ما أقصد، وإنما الذي أقصد، هو أن الكذب في أية علاقة كانت وفي أي معاملة كانت؛ فإنه يمزقها لقطع متفرقة كل قطعة في وادي؛ وتبقى تلك القطع تَذْرُوها الرياح، والشك ولا تلتقي أبدا، لأنها قَطَعَت الصلة مع بعضها البعض؛ والصلة مع بعضها البعض -الصدق- إن الصدق هو أفضل مكسب في تلك العلاقات التي تأسرنا وهي ليست علاقة بغض النظر عن العباءة التي تلبسها؛ لأنها حماقة أكبر من أي شيء آخر، وهي الحماقة التي لا تُقبَلُ لصاحبها شهادة، ليس لأنه فقد عقله. وإنما لأنه لم يعد يملكه بالمرة لأنه خاض سبلا؛ لا يوجد فيها مكان لعقل الإنسان، وأي إنسان كان ذلك، لإنه ذلك الإنسان الذي كان يتأكد من كل كلمة يقولها؛ وكان يتحمل المسؤولية عن كل فعل يفعله، وليكن ذلك الفعل ما يكن؛ ولكن كل هذا قد تلاشى اليومَ؛ لأنه سبيلا آخر، وحينما اهتم بالخوض فيه؛ تخلى فيه عن عقله لأن عقل

الإنســـان؛ هو الأداة التي يزن بها الأشـــياء لأن تظهر على حقيقتها؛ وهذه الأخـــــيرة -أي الحقيقة- كانت إحدى المكاسـب التي كرَّس صـاحبنا حياته لها؛ ولم يكن يشـغل نفسه بشيء آخر ولم يكن يَغْتَرَّ بالأشياء والتي غيرها.

ويحدث أن تقع في الحب مرةً؛ وهذه المرة مَدْخَلُكَ الوحيد، لذلك الصرح الممرد، لتلك الحماقة، التي لا تقبل الضـعفاء؛ ولا ترضـى بأقل من عقلك؛ وضـف إلى ذلك قلبك والذي كان عليه من الأســاس تحمل مســؤولية كل الكلمات، التي تقولها والسبل التي تقطعها؛ لأنك وإن كنتَ قطعتها حقا!! فإنها قُطِعَتْ تحت التهديد ولقد كنت مُكرها -في أكثرَ من مرة وأكثر من سبيل-

هذه إعترافات لا بد منها؛ ليس أنها من الكـــــتاب، وإنما العكس فإن هذه الاعترافات والآراء، هي التي تُضيف شيئا ولو حتى كان يسيرا إلى هذا لا قيمة له، ولا بأي حال من الأحوال ربما لأنه مجرد هراء، ومجرد كلام، خالي من كل تلك الأحـــاسيس والتي كانت يوما صادقة، تنبض مع

قلب الإنسان؛ حدث ذلك في كل نبض نبضه ذلك القلب حينما كان صادقا في كل تلك الأحاسيس والمشاعر؛ والآن يجد غَضَاضَةً في وصفها، ولرُبَّما كان الوصف أصعبُ، وكان التفاعل والتناغم مع تلك النغمات أسهل، حينما يُسند الأمر إلى القلب؛ لا للعقل، لأن العقل كانت مهمته تشريح الأشياء، ونقدها، لأجل أن تظهر على حقيقتها؛أما القلب فقد كان له رأي آخر وهو أن يتفاعل مع الإشعارات التي تصله؛ ولم يكن يهتم، ولا يسأل عن الأسباب، وراء ذلك الإشعار ولا حتى السبب الذي تصله؛ لأن قلب الإنسان مجرد حفاضة، لا غير! أما مستوى الأمان فيها فإنه قد يكون محدد على مستوى ذلك الشخص الذي خطف ذلك القلب، أو الذي أقام فيه فترة من الزمن.

وهي فترة قد تكون طويلة؛ وأيضا قصيرة ولكن تلك العلاقة لو حدثت، فإننا لا نحصي مدتها بعامل الوقت؛ والتوقيت في الحب لا يحصى بالثواني ولا الدقائق؛ وإنما يحصى بكل تلك اللحظات التي تُقضى في حضرة من

نحـــب، بُنِيَّ هذا الفعـــل للمجهول لأن موضوع حبي الآن ليس موجود.

لأن الحب مشـــكله الوحيد أنه لا يدوم، مهما يكن في أهله من حســن نِيَّةٍ؛ والصــدق، والإيثار، والمودة، ومع هذا فهو لا يدوم لأن لحظة واحدة منه كفيلة بأن تجعلك تذوق لذة الســـفر عبر الزمن؛ وليس ذلك الســـفر والذي يكون عن طريق تلـك الآلات، لا؛ إن السفر عبر الحـــب عكس لكل ذلك، إنه ســـفر لا ملل فيه، ولا ســـؤمٌ؛ ولا ضـجر، وأنت مع هذا قد تُسـافر عبـــره، وأنت في مكانك دون أن تتحرك ولا حتى أن تتحمل عناءَ حمل متاعك لو وُجد حقا ذلك المتاع؛ ولو أنه كان حقا! موجود، فاعلم أنه موجود في صحبة تلك المحـبوبة؛ أو ذلك المحبوب؛ وهنا قد نخلط ونجمع ما لا يمكن جمعه ليس لشيء؛ وإنما لأنه حينما يتعلق الأمر بالهوى، فإننا في الهوى ســـواء؛ نأخذ ونعـطي وقد نعطي أكثر مما نأخذ، وهذه الأخيرة أفـضل لو أنها تدوم؛ ولو أن شيئا في دنيانا يدوم، لكنا قد تمسـكنا به؛ فلا شـــيء يدوم هنا، فلا الحب يبقى، ولا العهد يبقى؛ ولا

الصـــدق يدوم؛ فهذه الأشياء التي سبقتْ كلها يأتي عليها الزمن، فيَقْتَلِعُهَا عن بكرة أبيها؛ ويُضـــيف مكانها أشـــياء أخرى قد تكون أفضل منها؛ لكننا قد لا نذوق ذلك الطعم، ولا نشعر بذلك التغير، ولا نَلحَظُ في حياتنا شيئا قد تغير؛ والحقيقة أن حياتنا في تَغيُّرٍ دائم، وهو تغير ســـريع ماض سواء لَحِظْنَاهُ أو فاتنا والسبـــب وراء إنعدام ذلك التغير هو التعلق، وهو تعلقنا بتلك اللحظات التي مضـــت من عمرنا مع من أحببنا؛ وأصـــــــبح زمننا الزائف، يَرُدُنَا إلى تلك اللحظات والتي مضـــت في صـــحبة من أحببنا نحن، والحقيقة أننا حينما نحب فإننا لا نحب الشخص لأنه هو، هو؛ أو على ســـبيل المثال ذلك الشـــخص لايحب تلك المرأة لأنها فلانة في ذاتها، وإنما يرجع سبب حبه لها، إلى نقص فيه هو، وقد وجد أن اكتماله ممكن، حينما يرتبط بها؛ لذلك فإنك تجد الـــشخص المسكين حينما يقع في الحب، فإنه لا تبقى عنـــــده قواعد لأن تضـــبط له إيقاع مشاعره، وانفعـــالاته، وإنما تراه يندفع بكل ما يملك من مشاعر جيَّاشة؛ وانفـــعالات صادقة تراها تُلـــقى على عتبة

ذلك القلبِ؛ والذي لو صدق حبه له، فإنه حتما سيبقى مَدِينًا له وَمُقَصِّرًا في حقه دون أن يدري؛ وحتى لو درى ذلك التقصير فإنه لن يعوضه شيئا منه؛ وسيبقى مكتوف الأيدي، حيال ذلك الأمر؛ لأن هذه الأمور، حينما تضيع على صاحبها فإنه سيبقى رَهْنًا لها، ولن يجدي معها تعويض، أو اعتذار لأن هذه الأمور حدثتْ من تلقاء نفسها دون أن تكون هناك أيادي خفية تُحركها في الخفاء، أو تعبث بها؛ ولقد حدثت دون أي تحرك بشري، والتحرك البشري "القصد منها هو عقل الإنسان، لأنه هو الذي ينوب عن الإنسان وهو المتحدث الرسمي باسم الإنسانية، أما قلب الإنسان فهو أشبه بالوعاء النظيف، وكلما أضيف فيه شيئا فإنه يظهر على حقيقته، والحقيقة قد كان عقل الإنسان يطمح ويطمع لأجل أن يصل لما هو أعظم منها'.

ولكنه غالبا ما تقصر يده عنه؛ لأنه في كل مرة ينوي الوصول فإنه تصادفه بعض المغريات، وتشغله عن هدفه السامي وهو الهدف الذي كان على كل واحد منا، أن يُكَرِّس نفسه له؛ وإذا ما وصل إليه! فإنه قد يكتفي بشرف

المحاولة، وهذا الشـــرف هو الشرف الوحيد الذي يمكننا القول أنه شرف غير مشروط وعن الشـــروط التي أتكلم عنها؛ فهـي تلك الشروط والتـي قد تتوفر "لفلاَن؛ بدلا من أن تتوفر لعـلاَّن" وهي نفس شروطِـنـا تلك؛ التي تجعلنا أو تجعل البعض منا، أو غالبية هذا البعض!! على تفضـــيل شـخص، على شـخص، لمجرد أنه ينتمي إلى تلك "القبيلة؛ أو تلك المنطقة" وهذه أشياء كثيرا ما تحدث، لأنـنـا شعب مسـكين، وعلته الوحيدة أو إحدى علـــله؛ أنه يسـعى لأن يقدم أصـــحاب المعارف، على أصـــحاب الكفاءات؛ وهذا السـبب جعل منا شـعبا متخلفا، والعالم تقدم كثيرا وتطور؛ ولكن الذي رآنا، ورأى طباعنا وأدرك ذلك التخلف؛ يمكنه الجزم أننا لازلنا نعيش في القـــرون الوسـطى-أو ما قبل ذلك-ولا عـلاقة تربطنا بهذا العالم المتطور، والمتقدم لأننا تأخرنا عن هذا الركب؛ فلا نحن كنا منه، ولا نحن أيضـــا تخلَّينا عنه؛ والحقيقة أننا لا زلـــنا في المنتصـف "لا إلى هؤلاء؛ ولا إلى هؤلاء" وفي المنـتـصـف يوجد الكثير من

الأمـاني والتي لم تتحقق؛ وبعض أحلامنـا لم تجـد النور بعد!! للتحقق، لأن قدرنا أن نقف في المنتصف.

☆ ☆ ☆

مرَّ زمن بعيد؛ على صـــاحبنا حينما همَّ بأن يخوض عُـــــــنوة في تلك الغياهب، وكنا نُمنِّي النفس، ونتشـمم الأخبار ونبحث عن أي ســـبيل يمكن أن يدلنا عليه، لأن أهل تلك المنطـقة نادرا ما تصل أخبارهم لأن الواحد منهم يسافر وقلبه على شـــوكة من الخوف مما قد يلتقي أمامه، ويراه ينتظره؛ وغالبا يكون عند الواحد منا نبذة لتلك البلاد، لأنها أصبحت حديث لكل الناس؛ ويجري اسمها على كل الألسن، متى ما همَّ أصحابُها بالكـلام.

وحينما يبدأ في الكلام فإنه نادرا مايبدأ عندها وإذا ما وصل -أيضا- للصمت ونفد كلامه؛ فإنه يختم بها، لأنها الوِجـهة لكل الناس أو هؤلاء الناس الذين كان ينتمي إليهم صـــاحبها؛ لأنهم جَمَعَهُمْ هدف واحد نبيل، وهو تغيير هذا الواقع، وإذا لم يكن للأفضـــل على الأقل يُغيروه للأســـوأ،

مع أن هذا الواقع لا يمكن بأي حال من الأحوال؛ أن يوجد ما هو أســـوأ منه، وقد لا يهم تغيير هذا الواقع من عدمه؛ لأن التغيير لا يحـدث إلا حينـمـا يكون من داخل ذواتنا، فهـذا هو التغيير الـذي يغير الواقع لأن التغيير يبـدأ من الداخل؛ وحينما نتغلب على تلك الظلمة التي في داخلنا فإن نورا ما يشـــع من داخل تلك القلوب هَلُمَّ بناإلى واقع آخر أفضــل، إلى واقع لا تؤخذ فيه حقوق الضــعفاء وإنما واقع يُكرِّس نفسه لأن يرد لكل ذي حــق حقه؛ وحقــنا أن هذا لا يمكن أن يحدث لأن حاجة في نفس" يعقوب" أي اليعقوب الذي يحكمنا، لأنه لا يريد لذلك النور الذي يشع من قلوبنا أن يبصــر شــيئا لأن لا تلتقطه تلك الأيادي التي تبحث عن سبيل يمكن أن تأمن به على نفوسها.

والحديث يطول عن ذلك النور ومصــدره الحقيقي؛ إن مصــدر ذلك النور الذي يظهر جليًّا على وجوهنا، ذلك النور ســببـــــه هو إيماننا المطلق بأن اللهَ لا يُضـيع أجر من أحســـن عملا؛ من تلك الأعمال التي رغَّب فيها؛ وقال في محكم تنزيله "فَامْشُـواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِزْقِهِ" الكسـب

الحلال؛ أو البحث عن كسب حلال؛ ومهما يكن ذلك الكسب المهم هو مراعاة الحقوق فيه وهي تلك الحقوق المهدورة أصلا، ولكن الله يمهل عباده لأن يتوبوا ويرجعوا قبل فوات الأوان؛ والأوان حين يمضي فإن الكرَّة لا تعاد بعده.

وإني لأعجب كيف يسوق الله الأرزاق لعباده؛ وكيف ييسرها لهم على قدر سَعْيِ الواحد منهم، ومن الذين عجبت لأمرهم كان نبي الله "موسى" بينهم هذا الرجل هو أحب الأنبياء إليَّ وهذا العُجب لا حد له؛ لأن هذا العُجب الذي بدا مني؛ لا تزال هناك دعامة سبق وأن كتبها الله عليه؛ وما كتبَ الله لا بد أن يجد بين عباده حظا وقد كتب الله محبة لموسى بين بعض العباد وأسأل الله دوما في كل وقت، وحين؛ أن تكون عندي مكانة في حب ذلك العبدِ الذي قال عنه -جل جلاله- "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي" وهذه المحبة ساقَها الله إلى فرعون على طبق من ذهب؛ ومن قَدَرِ "فرعون" أنه ضيع هذا الرجل الذي ساقه الله له.

هكذا الأرزاق يَسُـــوقها الله لعباده؛ ولكن قليلا من الناس يدرك مكر الله له، والله يَمْكُرُ لعباده حينما يقعـون في مأزق ما!، أو شـــيء من ذلك القبيل ولعلكم الآن تذكرون قصة النبي يوسف حينما مكر الله له لأن يلتقي بأخيه؛ وكان يوسف حينها ملك مصـــر، أو "العزيز" فقال جل جـــلاله؛ " ما كان لِيَأْخُذَ أَخَـــــاهُ فِي دِينِ اَلْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَـاءَ الله نَرْفَعُ دَرَجٰتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ"وسبق ذلك قوله جل جلاله -أيضـا- "كذلك كِدْنَا لِيُوسُـفَ" وهذا هو الكيد الذي يســـخر الله به لعباده أشـــياء لم تكن يوما بحوزتهم؛ ولكن الله سخر لهم الإمكانيات، ولو أنهـــا كانت في عداد المستحيل.

ومن تلك الإمكانيات تلك المحبة التي طبع الله على كل قلب شـــاءَ الله له بأن يختلط بصـــاحبنا أو حتى تجمعه بهم أحاديث العابرين، وهي تلك الأحاديث المُؤنســـة، والمنســـية -أيضا- في نفس الوقت، ولكنها ما تكاد تُسمع حتى تُنسى، ويبـــقى أجمل ما فيها هو الصـدق وهو ذلك الصـــدق الذي قلَّما لا يمنح أحدنا حياته رَهْنًا للبحث عنه،

ولكنه قلَّما يدركه، وإنْ هُوَ أَدْرَكَ منـــــه شـــيئا فإنه يكون مُشَوَّهًا مُلَطَّخًا بدم بعض تجاربه المُـــرَّة، لأنها حياة خالية من الصـدق مع أنفسـنا، ومع الناس، لكنهم نادرا ما يجدوا في نهاية الطريق، أرواحا تشبههم.

وتلك الأرواح نادرا ما نلتقي بها؛ إلا بعدما نشبع من التجارب المُرَّةِ، ونفقد طعم الحياة، وهو ذلك الطعم الذي كلمـــا يلمـــس جزءً من حياتنا، ومنا فإنه يعيد له الحياة من جديد؛ بعد ذلك التبلُّد الذي عاشـــه فترة من الزمن وهي ليست بالقصيرة، ربما لأن التجارب لا تخضع للعمر؛ ولا حتى لأن شـــرط من الشـــروط التي أقمنا لها يوما صـــرحا ممردا في حياتنا، وكنا نتســـــائل لأن نقول:أن كل فترة من عمر الإنسـان، هناك تجـارب لا بد له أنَّــ يخضع لها لأجل أن يتكيف، ولأن تكون الأعضـــاء طَرِيَّة، لأجل أن تتأقلم معها؛ وتنســـجم معها، لتكون بذلك روحا واحدة لكن في جسدين مختلفين.

☆ ☆ ☆

-كنت قبل عدة أيام مريض ولا زلت أتألم بحرقة، من المرض الذي أصابني؛ وقد وجدت أنها فرصة سانحة وما دام المرض الذي أصابني يترك لي فسحة للتعبير، ولو حتى بترك وصية يمكن أن أُودِعَها هنا في هذا الكتاب، والذي كانت بدايته هي قصة شاب مهاجر، أو شاب ينوي أن يفعل ذلك الشيء، المهم هو أنه لم يرضخ لذلك الواقع الذي ولد فيه، ولكن حبل تلك القصة ضاع من يدي، والآن أصبحت أُجدف لوحدي، وأحاول ربْطَ أشياءَ ليست متوافقة في كتاب واحد. وهو هذا الكتاب والذي أقص فيه بعض "قصصي المنسية" بعدما تركت خلفي بداية لا بأس بها، ويمكن أن أستدرج بها كل الأشخاص الذين يحبون الكتب ويعشقون الورق، هذا الكتاب قد يشفي ما بُدأ به ذلك الغليون، الذي نادرا ما يُلاحق الذين يقرأون الكتب. ربما لأنه لم يَسْعَ يوما لأن يُفرط في مثل أولئك الأشخاص. .

وكل ما أريد قوله هنا هو أن هذا الكتاب في البدء حاولت أن أتنبأَ بقصة لذلك الشاب، هو وأمه المريضة

والمُقعدة؛ واكتفى بي الأمر بأن أسرد قصة أمي دون أن أدري؛ أنني بذلك يمكن أن أتنبأَ بأشياء وتتحقق، وتكون كما هي؛ أما أمي فقد ذهبت إلى بارئها، وأما أنا فلا زلت هنا، ولم أقطع ميلا واحدا؛ نحوَ الهجرة، لأن الوطن لا يباع ولا يشترى، ولا يمكنني استبداله بأي شيء، لأنه الغالي العزيز ونفديه بكل قطرة دم فينا وتلك التي تجري في عروقنا مع كل نبضة؛ ينبضها ذلك القلب وهو الذي أثقلته كل الأشياء.

كنت قبل أيام مريض وكنت أخاف من الموت والذي يترصد كل الأشياء الحية وقد كنت ضِمنها؛ أو هذا ما كان يتخيل لي أنني ضمنها فقد كنت محاط بأرض مواتٍ؛ بأرض لا أرى فيها أي شيء يبعثُ على الحياة أو يُشير نحوها، ولكني مع جميع كل ذلك الموت الذي يحيط بي لم أستسلم ولم أترك نفسيتي ينهشها اليأس، ذلك المارد الذي يختفي بين السطور.

-وكنتُ أخشـــى الموتَ ليس لأني أخاف منه بلى! كنت أخشى أن يصيبني الموت وأنا لم أقل كلمتي الأخيرة، أو بالأحرى لم أقل حتى إحدى كلماتي التي اعتدت قولها ولربما التي لَزِمْتُ كتابتها، وهي حروفي اليتيمة تلك التي لم أُفرط يوما في أيِّ مكان يمكن أن يلتقطَ بعضـــها؛ وقد يشمل هذا البعض الكثير ومنهُ لا الحصر "سبورة يتيمة في حجرة مهجورة، من إحدى المدارس، التي أعدت يوما الجلوس في حجراتها؛ وربما ذلك القسم الذي أعدت يوما في أحايين كثر التقاط فيه الطبشـــور الذي كان يســـتخدمه الأســتاذ حينما يهُم بكتابة شـيء ما!! وقد كنت يوما أنا هو الأســـتاذ أكتب ما يمليه هو؛ ومرة أكتب كلما قد تجود بها قريحتي وكل الذي يمكن أن تســـعفني به ذاكرتي وذاكرتي نادرا ما تسـعفني بكل ما أحتاج؛ وفي الوقـت الـذي أكون فيه محتاج لشـــيء! وقليلا ما أحتاج لشـــيء؛ ولربما لأني نادرا ما أطلب يد العون من أيِّ كائن! ليس هذا لأني لا أحتاج وإنما لأني تركتُ ما عندَ الناس للناس لأني ابن للناس. الناس لا يحبون من يُكثر الأخذ، ويفضـــلون أكثر

ذلك الذي قد غَلَبَ عطاءه أخذه وإن أنا لم أضف لهم من العطاء شيئا سوى هذه الكلمات والتي لا تسمن، ولا تغني من جـــوع؛ ولكنها قد تسمن وتغني من جوع آخر، وهو ليس الجوع المادي لأن ذلك جوع لا شبعةَ فيه ولا ارتواء وصاحبه يظل طولَ الدهر ظمآن.

-إن سبب خوفي المتكرر من الموت، والخوف من كل ما قـــد يُصيب هذا الإنسان الذي يقال له -أنا- كان خوفا لم يأتي من فراغ ربما يرجع السبب إلى كثرة مشاهدة مظاهر المـــوت في حياتي؛ وهي تلك الحياة التي تحولت تدريجيا إلى مظهر من مظاهر الموت الســـريري، وهو المـــوت الذي لا يذهب بأصحابه وإنما يتركهم مرتبطين بهذه الحـــياة، وهو ارتبـــاط كاذب، وقد حاولت من قبلُ التغلب على هذا الموت السريري، لكن جميع الحيل التي اِمْتَهَـنْتُها باءت بالفشل، ولكنه فشل من نوع آخر فشل ظل هو الآخر يتربص بي، كلما أَفَقْتُ من ســـــــكرته، وكلما وجدت -أيضا- طريقا للنجاح يمكن أن يُخفف عني لوعة ذلك الفشـــل ولكن الليالي حُبالَى؛ لذا فإني كلما أفقتُ من

السكرات رجعت بي إلى حيث بدأت، وهي تلك البداية الكاذبة.

-كنت أخاف الموت قبل أن أقول كلمتي الأخيرة، وحتى قبل أن أُقدم كل ما عندي كان على الموت أن يترك أحدنا قبل أن يغتاله أن يعطيه الفرصة ليقول كلمته الأخيرة أو حتى لأجل أن يقول إحدى كلماته الأخيرة؛ وهي كلمات كثر، ولكننا بتلك اللحظة لا تعبر عنا إلا كلمة واحدة، وهي الكلمة التي نادرا ما يُحب الواحد منا أن يُنهي بها حياته؛ وعني فقد أقول الكثير من تلك الكلمات المتشابهة، وتلك الأماني التي لم توفرها لنا هذه الحياة التي تشبه المزاد؛ ولكننا حتى ونحن في غمرات حياتنا لم تتوفر لنا أدنى مُقومات الحياة، ولمن نشتكي ولمن نذهب إليه لِيُرجع لنا حقنا؛ لا أحد! لأن الكل هنا مهضوم حقه ولكن هذا لا يمنعنا من تقديم "الشكوى" مع أننا لا نضمن أنها قد تجد الضوءَ لأن تُرى، ولأن تُنَاقَشَ لمجرد المناقشة ناهيك عن أنها قد تجد استجابة، ولكنني لا أبحث عن

استـــجابة لها لأنها هي الأخرى استجابة لو حدثتْ فإنها كاذبة.

-كنت أخاف الموت وعلى غراره كنت أخشـــى أن يَلْتَهِمَنِي كما اِلتهم آخرون قبل أن يقولواْ كلماتهم الأخيرة؛ ولكني وشـــــــأني هو أنني كتبتُ كلماتٍ كثر وأخاف أن يغتالني الموت قبل أن تجد الفرصة لتُجانِس كلمات أُخرى قالها آخرون اِمتهنوا هذه الحياة؛ وأحبوها وعرفواْ كيف الســـبيل لأن يُحافظوا عليها أما أنا فقد كنتُ حديثَ عهدٍ بها؛ نظرا لهذه الســـن التي أظن أنه لا يزال صـــاحبها في مقتبل العمر، وهو عمرٌ لو أن صاحبه وضع له ميزانا وزانه؛ بكل ما قد تُزان به أعمار هؤلاء، الذيـن يحب هوَ لوجد هو الآخر، أنه لو بحث لوجد مكانا آخر له؛ وناهيـــــك عن الكلمات، لذا فإني ألوم صاحب مثل هكذا كلمات، يخشى الموت قبل أن تُبصـــر كلماته الحياة، وهي ليســـت مجرد كلمات عابرة وإنما هي صوته المبحوح ذلك الصوت الذي قد تلتقطه تلك الأنفاس التي تحب الحياة؛ وتشـــمُّ نَسِـيمَهَا من بعيد.

-ربما لأني كنت أخشـــى الموت ذلك الموت الذي يأتي من دون موعد ذلك الموتُ يُخيفني أكثر من أي شيء آخر ومعنى هـذا ليس أنني لا أخـاف بلى أخـاف وعنـدي فوبيا من رؤية عناكب سـوداء صـاحبة تلك الأرجل الكثر، تلك تخيفني أكثر حتى من الموت نفسه؛ ولكني دعوا نكتة الخوف على جنـــب، لأنها ربما ليست إلا نكتة عابرة؛ لأن الذي يخيف حقا هو الموت ومعنى هذا أن الموت هو أكثر حدث يُخيفنا كلنـا؛ لأنه الحـادث الذي حينما يحدثُ فإنه يحدث فجأة بدون مقدمات، ومع كل هذا فإننا نتعامل مع هذه الحقيقة التي يُقال له "المـــوت" على أنه وهْمٌ كبير في حياتنا مع أنه هو أصـــدق شـــيء في حياتنا، ربما يرجع السبب، إلى أن الذين يذهب بهم الموتُ لا يرجعون. وهذا لو دل على شـــيء فإنه يدل على صـــدقه في حياتنا وهو الحقيقة التي يتفق الجميع على صـــدقها، وعلى حَتْمِيَتِهَا؛ لكن نحن مع هـذا لا نكتَرثُ ولو أصـــاب الموت أقرب الأشـــخاص لنا، فإن تلك الحادثة لا تتعدى مُدتها بضـــع ثوان! لا أكثر؛ ربما أقل وقد يُصاحب تلك الثـــواني، بضع

قطرات من الدمـوع؛ ولكنها دموعٌ كاذبةٌ، فلو كانت صادقة لحدثت قبل هذا.

وعلى النقيض؛ فإننا لا نتعامل مع وَهْمٍ في حياتنا باعتبار أنه حقيقة أكثر من الحب، ولكن "الحبَّ" يا صاحبي؛ أجمل شيء فيه هو أنه حين يختلط بجزء من حياتنا، فإنه يعيد صياغته من جديد، ويخرج لنا أفضل نسخة منه؛ لذا فإني أقول -في كل مرة أُتيح القول لي- "إن الحب يجعل لحياتنا معنى، وهو وحده دون غيره، لأن الحياة الخالية من الحب، حياة فارغة لا معنى لها؛ لأنه هو الذي يجعل للتضحية معنى؛ وهو الذي يجعل كل جزء من حياتنا يلمسه جميلا؛ لذا فإن الأحبة وكل الأحبة يدينون بحياتهم للحب، الذي جعل في حياتهم أهدافا قابلة للتحقق، أهدافا يمكن أن تُبْصِرها العينُ قبل القلبِ، مع العلم أن القلب يُبصر كل الأشياء؛ تلك نُبْدِيهَا وحتى أنه يظهر تلك التي نكتمها، أو التي لا تستحق علينا نظرة نحوها، لأنها وببساطة شديدة يجب أن تبقى سارية من القلب إلى القلب"

☆ ☆ ☆

إن الحب عاطفة معقدة في مجتمعنا ربما لأن مجتمعنا معقد هو الآخر؛ ولكننا قد لا نلْحظُ هذا التعقيد الساري فيه؛ ولربما هو تعقيد صار جزءً من حياتنا التي نعيشها في مجتمعنا هذا البائس وهو البؤس الذي يظهر جليا على وجه كل من يمكنك أن تراه في يومك وحتى لو كانت تلك المخالطة مؤقتة فهي قد تفضح لك ذلك الزيف الذي يُغَلِّفُهَا؛ وربما يرجع زيفها ذلك لهذا المجتمع فَامْتَهَنَ الكذب، وحتى صار أرخص سلعة للبيع فيه؛ لذلك فإنك لا تجد غضاضة في أن يقف شخص أمامك ويقول كلاما لا مكان للصدق فيه، بعبارة أدق كلاما مجموعه الكذب ولا رائحة للصدق فيه؛ وهي تلك الرائحة التي إذا لم نَسْعَ للحفاظ عليها فإن الزمن سيأتي عليها؛ وهو -طبعا- ذلك الزمن الذي نادرا ما يأتي على كل شيءٍ جميل في حياتنا، أو على الذي كان يُجَمِّلُهَا ومهما يكن الجمال فيها ولربما الجمال الذي كان يُجملها فإنه هو الصدق وحده ولا شيءَ لأن صدقنا مع أنفسنا ومع الناس يجعل حياتنا تتغير إلى

الأفضـــل؛ ونحن بذلك ندرك أشـــياءَ كثر لم نكن يوما لنُبصـرها لو أننا غلب علينا ذلك الطبع "الكرنفاليُ" الخالي من الصدق.

وما أريد -أيضـــا- قوله هو أن الصـــدق هو العملة النادرة في كل علاقة يمكن لأي إنسـان أن يقيمها مع نفسـه أو مع النـاس، ولو أنـك تمعنـتْ أكثر يـا أخي المســـلم؛ لَوَجَدْتَ أن هناك مرتبة، قلَّما يصـــل إليها الإنســـان إلا عن الطريق المعـاملات والمعـاملات هي الأخرى لا بـد أن يكون عليها صـــبغة من ذلك الصـــدق، ولذا فإن تلك -المرتبة- يُقال لها "الورع" وهي العبادة التي لا توجد في الصوم ولا الصلاة ولا الزكاة، ولا الحج؛ لأنها عبادة خالية من الغرض؛ وهي تكتسب بين العباد أنفسهم.

لهذا السبب فإنه لا مَنَاصَ من الصدق، والصدق في كل شيء يَخُصُّنَا؛ وأي شيء نحبه يجب أن نكون صادقين معه ويجب -أيضـا- أن يكون الصـدق هو المبدأ الذي لا نحيد عنه لأنه هـــو هو الضـامن الوحيد للاسـتمرار ذلك

الشيء، مع ذلك الشخص ولْيكنْ ذلك الشيء ما يكن؛ وغالبا ما يكون"الحب"هو الشيء الذي يؤرقنا، وهو الشيء الذي يثقل كاهلنا؛ لهذا السبب فإننا حينما نتكلم عن العلاقات، والمعاملات، فإن الحب وحده، هو الذي يتربع على عرشها؛ وذلك التَّرَبُّعُ لم يأت من فراغ ولربما العكس هو ذلك، لأن الحياة، لا يمكن أن تخلوا من الحب؛ ولا يمكنك أن تمضي فيها، وأنت لا تملك صديقا يمكن أن يخفف عنك طول الطريق؛ ربما لأن الصديق يد حانية، كلما وُضعت على جرح طاب واختفى؛ وكلما وضعت على بتر، فإن الوفاء الذي يوفره لك فهو سبب آخر للمضي قدما؛ لأنك تعلم أنك لا تسير لوحدك؛ ومقتنع -دوما- أن هناك من ينتظرك في النهاية

وهناك من ينتظرك للوصول إلى ذلك الضوء، الذي عهدناه من قبل في نهاية كل الطرق المجهولة؛ تلك التي نمضي فيها ولا سبيل يمكن أن نأوي إليه لأن يخفف عنا بعض ذلك العناء. وحينما يتوفر لك ذلك الصديق؛ فإنك -أيضا- لست في غنى عن حبيب لأنه يمكن أن يخفف

عنك الكثير من البعض الذي تحمل؛ وقد يتقاسم معك جميع اللحظات، وهذه الأخيرة هي أجمل ما في الحب، أنَّه يختصر عليك المسافات؛ ويسخر لك الكثير من الأشياء، ويوفر لك الكثير من الوقت؛ مع العلم أن يومك لم يزد ولا ثانية واحدة إلا أنك وجدت في حياتك من يمكن أن تبذل له كل ذلك اليوم كله في سبيل إسعاده وحين تسعى انت لأن تُسعده، فإنك -أيضا- ستجد أنت الآخر سعادة مضاعفة "والله يُضاعف لمن يشاء" ولن تكون تلك المضاعفة إلا لمن بذل أكثر، وفي الحب لا يوجد ادخار وإنما فائض من كل شيء فائض في المشاعر؛ وفائض في الشعور؛ والدليل لا يمكن أن تشعر به وأنت تجانس اللحظة ولكن حينما تبدأ في محاسبة نفسك، وتبدأ في قص ذلك الوقت الذي قد فات من عمرك؛ فإنك ستجد أن لتلك اللحظات المحدودة، والمعدودة؛ في نفس الوقت أضعافا مضاعفة من العمر والسعادة وحينما تكون شديد اللحاظ فإنك ستعرف أنك هناك لحظة من عمرك كانت لا تتعدى مدتها ثانية واحدة، ويزيد؛ فإنها تساوي أكثر من

ألف سنة بالأرقام؛ وليس باللحظات، إلا أنها ما تمضي أن تنقضي ويبقى أثرها، ورائحته؛ وذلك الأثر لا يزول ولا ينسى ولسبب واحد هو أنه كان شعور صادق، لا لَبْسَ؛ وهذا الصدق حينما يلمس جزءً من حياتنا، فإنه يعيده إلى سيرته الأولى، حيث البراءة؛ حيث الأفكار المحدودة، حيث تفكيرك هنا، قد لا يتعدى لعب كرة القدم، ولا يتعدى جلسة قصيرة مع الأهل والأصدقاء، ولكنها كانت جلسة مع قِصَرِ مدتها مليئة بألوان الصدق، والمودة، وتلك التي لو أنك طلبتها أو سألت عنها في هذا الزمن؛ لكنت كمن يبحث عن شيء مفقود، وكل الطرق لا تُؤَدِي إلا إلى غيره وربما إلى عكسه، لأن النتائج النهائية، هي الأخرى قد تنحرف عن بوصلتها فينتهي بها المطاف إلى غير السبيل الذي قصدتْ في البدء.

-هل أقول شيئا لمجرد الكلام ليس إلا! إن هذه التجمعات من الآدميين تلك التي نجدها على الطرقات، وتلك التي نادرا ما تكون في المقاهي لو توفرتْ، وتلك التي تملأ الأسواق؛ وتلك التي تجمعها كرة القدم، وتلك

التي تتجمع لمجرد أنها وجدت أكثر من شخصين واقفين في مكان واحد، ولقد هَمُّوا -أيضا- هم بالوقوف معهم، وقد أطالوا الوقوف ليس لشيء؛ إن هذا النوع من الآدميين قلوبهم صافية ولكنها عَكَّرَتْهَا تلك الهِدَابُ ومسخها صراع الطبقات؛ قد لا تفهم هذه الفقرة، لربما يرجع السبب إلى أن هذه الكلمة ليست لي وإنما هي من الممتلكات التي شرعها المشرعون لكاتب مخضرم؛ وهو الذي لايمكن أن يخلواْ أي حديث لي من ذكر اسمه، لأن اسمه نسبةً لي! ليس مجرد اسم عابر ينطقه العابرون وكلما وجدوا أن هناك بعض الأسماء يمكن أن يتسلل إليها لسان البعض منهم! وقد ينطق منها ما شاء الله بأن ينطق ولكنه لا يفقه شيئا مما يقول ربما لأنه لا يعرف قيمته وهذه الأخيرة أي "القيمة" هي من يحدد موقفنا من الأشياء والأشخاص على السواء؛ وعن الناس فقد كَرَّسْتُ نفسي ألَّا أَدَعَ يوما من حياتي يمضي دون أن أُضيف له شيئا من تلك المكتبة المتحركة؛ والتي يقال لها "مصطفى محمود" إنني أُدين لهذا الرجل بكل الأحرف التي سَطَّرْتُ هنا فهي ليست

مجرد أحـــرف وإنما بحر أستمد ماءه من الينـــبوع الذي ذكرت -آنفا- وأقول هذا لأن الإنسـان لا بـد له من وجود قدوة في حياته، ولا بد له من وجود سيرة ذاتية من شخص كان عظيم النفس، شـــديد البأس؛ حريص على النفس لا يُوكِل إليها أمره؛ لأنها أمَّارة بالســـوء؛ هذا هو شـــأن هذه النفوس ولذا فإن صـــاحبنا لا ينتمي إليها لأنه طوَّع نفســـه حتى صـــارت مثل الحديد المصـــهر على النار؛ وهذا النوع من الحديد يسهل على كل ذي بال أن يلويه؛ ويوجهه حيث شـاء وقد كانت الفضـيلة هي الشـعلة التي أنار بها صـاحبنا حياته؛ وإني لأعجـــب حينما أسـمع له صـوتية، أو أقرأ له فقرات فأقول " والله اللَّ وخيرت كبيرة؛ والله إن هذا الرجل قد أَوْدَعَ الله الكثير من العلم في صدره، وقد نقَل لنا بعضَه، وذلك العـــلم في كتبه؛ وهي بمثابة عمره، أي أنه -عاش تقـــريبا 89 سنة، وقد ألَّـــف بعد ذلك أكثر من 89 كتابا؛ وكان عظيم الشـأن بالرغم من كل النكبات التي واجهته في بداية العمر، لكن اليأس لم يتسلل إلى قلبه.

وبما أن كل عظيم اتخذ قدوة له أو تمسك بشخص ما! حينما رأى فيه كل صفات العظمة التي يحبها ولأجل هذا فإني أشهدكم أني اتخذت من هذا الرجل قدوة لي؛ وقد أُعْجِبَ طه حسين بأبي العلاء المعري، وقد أعجب آخرون كثر بآخرين كثر؛ وما شأني بهم، إذا وجدوا من يمكن أن يُنِيرَ لهم درب حياتهم". "إن أجمل الخمور ما كانت مُعَتَّقَةٌ وخير الكلام ما كان صادقا -والله بعد الل وخيرت كبيرة- نعم الرجل هذا؛ ونعم العلم ما حوى قلبَه؛ ونعم السالك من سار على دربه؛ ونعم الوصول ما كان وَصْلُ آخر لحظة من لحظات عمره إن تلك البساطة التي تُغَلِّفُ طباع هذا الرجل تجبرك على الوقوف برهة، لا تملك ما تقول؛ سوى هذه الكلمة ولربما لأن السكوت في حرم الجمال جمال".

☆ ☆ ☆

ولعلكم الآن تذكرتم يا من قرأتم؛ وقلبتم الصفحة الأولى من هذه الكذبة، التي توهم البعض منكم أن هناك هجرة ستكون من نوع آخر؛ وهي هجرة لا يدخل

أصـــحابها الأبواب الضيقة لأن نفوسهم عظيمة الشأن؛ لا يمكنها الرضوخ لهذا النوع من الإملاء.

لعلكم الآن تذكــرتم، وربما تســائلتم عن نوع تلك العَتَبَةِ والتي كانت دوما مُتَّسَـــعا لتلك الأم؛ والتي من كثرة الإنجاب فإنها لا تملك إلا إبنا واحدا، إنها الأم؛ التي تعرف خــبايا أولادها حتى قبل أن يكْبروا، إني في كل يوم تشـرق فيه الشـمس، لقد كنت أتسـاءل كيف أن الأم تعرف خبايا الأشياء والتي يقترفها أحد أبنائها إن الأم قد منـــحها الله رؤية متبصــرة؛ ترى بها مســتقبل كل أبنائها، ولا يخفى عنها شيء من ذلك؛ لأن الله قد أطلعها على ذلك السر.

لم يكن صـاحبنا إلا واحدا من بين العشـرات والذين لم يحدث أن تسـائل بعضـهم كيف يمكننا أن نغير من هذا الواقع قبل أن يغيرنا؛ إن واقع الأمس كان مثل النار تســرح في الهشيم وهو مثل النار التي تأتي على الأخضر واليابس، وعلينا تدارك هذا قبل أن يمضي علينا الوقت، وتنقلب هذه الحسـرة إلى حسـرة أخرى مضـاعفة وتتقطع بنا السـبل ولا

نعرف كيف المضـــي إلى تلك الســـبيل؛ إننا الآن لا زلنا نملك حبل النجاة في أيدينا ربما لن يكون هذا الحبل معنا حينما نقع في مأزق قد يحدث هذا لأن الفرص حدث لا يتكرر في حياتنا، ولو حدث أن تكرر هذا

☆ ☆ ☆

" أمي ليتك الآن هنا؛ ولَمَا كنت قد شَـــيَّعْتُكِ مع أن كـل مـا قلـت ليس إلا ذر للرمـاد في العيون، أمي حينمـا ذهبت عني، بقِـــيت دون مأوى، ودون يد حانيـــة، يمكنني الإتِّـكاءُ عليـها متى ما شـعرتُ بالملل، أو متى ما افتقـدتُ حنـــانك؛ أمي إن الكلمـــات التي كَتَبْتُ ليست إلا مَضْيَعَةً للوقت، وهو الوقت، الذي ســـــبق وأن كانت له أكثر من عبرة، حينما كنت في حَـوزتك، أما الآن فلا أرض تؤويني، ولا بلاد أنتمي إليها، لقد تقطعت بي السـبل بعدك أمي لقد أدركت الآن تفاهة الأشياء التي كانت تشـــغلني عنك، تلك التي لم تستـــطع حتى الآن أن تنجـــب لي أي شيء، ولو صـــورة منك تحمل وجهك، ذلك الذي لا يعرف الحســـد ولم يســـبق له أن حمل الحقد لأحد ولا حتى نظرة خاطفة

من تلك الأعين التي لم تطَّلِع إلى ما عنـــد الـــناس، ولو أَرادت الإطلاع لنظرت ولرغبت فيما عند الله، وقد اختاركِ الله إلى ما عنده ولم يترك إلى ما عند الناس أمي حيـــــنما مرضــتِ كنت قاسـيا معك فكنت في كل وقت أسألك هل أكلت، وهل شـــربت وهل تناولت الدواء، أمي حين كنتِ معي لم أكن أجد غَضَاصَةً في تلك الأسئـــلة، أعلم يا أمي أني كنت القاسي معك في مرضك لأني كنت أنتظر شفائك ولكن الذي أراده الله غيرَ الذي أردت أمي لولا قلة همتي لكنت لآن أدركت الكثير من الأشياء التي سعيت يوما، لأن يكون لها جل وقتي، وتكون هي أكثر شـيء له فائدة عندي ياأمي قد أحببت كل الأشخاص الذين يحبون العلم وأهله، وناهيك عن الذين شُغْلُهُمْ، هو تقليب الصفحـات لا غير يا أمي أعلم أن الذي عند الله هو خير وأبقى ولكن أن تذهبي دون وداع منك حتى إن هذا لشـــيء يُخيفني أكثر من أي شـــيء آخر؛ وأرى أنهم كلهم عَلِمُوا بالذي أصـــابك، وأنا كنـــت وحدي أنتظر أن تُشْـفيْ لأني يا أمي أعلم أن الحياة

من دون حب حياة فارغة لا معنى لها، وأنا يا أمي أحببتك من جميع المغريات التي كانت تحيط بي."

☆ ☆ ☆

الحدث؛ فإن الكثير من التفاصيل سوف تختفي، لأننا الكرة لا تُعاد لنا كما هي، ولا بد أن يكون هناك اختلاف طفيف، وهذا الاختلاف -لابد منه- لأن يخبرنا أننا الآن نخوض غمار تجربة أخرى؛ وأتمنى لو تتكلل بالنجاح، وهذا الشيء الذي يقولون له النجاح أصبحت أشك فيه كثيرا، لأن الواحد منا نادرا وقد لا ينجح ولو حدث وأن نجح في أحد فصول حياته؛ فلابد له من دفع ثمن ذلك النجاح المزعوم، وهو ليس نجاح لأنه ليس إلا تنازل عن بعض ما فينا وعن حريتنا على وجه الخصوص لأن الناجح هنا، لا بد له أن يخضع للكثير من المعايير، وقد لا تتوفر له هنا ولهذا فهو يدفع الثمن؛ ولكنه على شكل أقساط. -إن أمي كانت النافذة الوحيدة، التي يشعر يها كياني بقيمة الحياة وكنت أرى بتلك العين المتبصرة؛ التي يقال لها "أمي" لذا فإني كنت أرى أكثرَ من مسألة في أكثرَ من

وقت؛ مع أن هذا ليس إلا شيء عابر ولكن ما أنا متأكد منه -الآن- هو ذلك الأمان الذي كانت توفره لي -أمي- لم يعد موجود.

-أمي لم تكن مثل باقي النساء، تلك التي يعرف الناس جميعَ ما يخصها، وإنما كانت إبرة وقعت في بحر، فلم يدرك الناس منها شيئا، ولم يجدوا من يمكن أن يدلهم عليها، سوى أفعال كانت قد سَعَتْ يوما لأن لا تذهبَ إلى ربها إلا وقد ضمنت أن تلك الأفعال قد تمت على أجمل حال؛ إن أمي كانت يوما من الذين اقتنعوا أن قيمة الإنسان هو ما يقدمه بين يوم ولادته ويوم وفاته؛ "وهذه الكلمة أَعَرْتُهَا من صديق لي، حديثُ عهدٍ بي اسمه مصطفى محمود" ولكنها لم تقل مثل هذه الكلمات وإنما كانت تعرف معرفة فطرية؛ وهي المعرفة التي لايحتاج صاحبها إلى شيء سوى الفطرة تلك السليمة، والتي لا يعاند صاحبها أي حكم ولا يتذمر من أي قضاء، وكانت تظن أن كل شخص بُعِثَ إلى الدنيا فهو سفير، يقدم فيها رسالة، وحينما تنتهي تلك الرسائل، وحينما يقلب آخر صفحات

منها، ويقول آخر كلمات فيها فإنه تسحب منه تلك الورقة، لأن عملة هذه الحياة مؤقتة، ولا تدوم لأي شـــخص كان، وحينما تنتهي مدة تلك العملة فإنها تسحب من صاحبها.

-كانت أمي تقول هذه الكلمات، وتســـتشـــعر أن الوقت قد حان ولكن لصـــغر ســـني؛ ولقلة حيلتي لم أكن أفهم قصـــدها؛ أن أمي كان بإمكانها أن تكون الآن موجودة معي، ولو كانـــــت الآن هنا لما أوكلتُ لنفســـي عناءَ هذه الكلمات؛ والتي غالبا تذهب لغيـــــر المعنى الذي أُوكل إليها، ولكن ما بالأمر حيـلة، لذلك فإنـي لم أجد حتى الآن غضـــاضـــة؛ ولا مَلَلاً في الانتهاء من هذه المهزلة والتي لن تدل أحدا على شـــيء، ولكني مضـــيت في هذا وأظن أني قطعت شـوطا عبر هذا الكم الهائل من الحروف والكلمات وبعض النقـاط والفواصـــل والتي لم أكن في غنى عنهـا فلولاهـا لكنـت الآن لا زلـت أَزْحَفُ على الصـــفحـات الأولى؛ ولكني حمدا لله استطعت بذلك التوكل، والإصرار، الوصول لهذه الصفحـة وقد كان قيمة ما أكتب أَقارنه بعدد الصفحات؛ لأني كنت من قبل أقرأ لكُتَّابٍ ولم يكن الواحد

منهم حينما يبدأ في الكتابة يجد غضاضة في ملء تلك الصفحات التي بين يديه؛ ولهذا أيضا فقد سعيتُ أن يكون كل ما أكتب هو مبالغة في مبالغة وقد أَتَجَنَّبُ الكلمات المباشرة وكنت أَمْتَهِنُ المَكْرَ في أحَايِينَ كثر حينما يَتَحَتَّمُ عليَّ ذلك.

-كان لأمي ولدين، وبنت؛ وكنت الإبن الأخير لها، لأنني حينما يحدثني الآن أهلي، عن أمي يقولون أنني كنت ابنها والذي لا يرفض له طلب؛ ومن يسألني الآن أقول له: أنها لم تكن تَدَّخِرُ جهدا عني؛ وكنت ابنها وصغيرها المدلل، وكان ذلك هو سبب من بين أسباب وهو أنها لم تعطي أي يد فرصة في أن تلتقط مني أيَّ شي فكنت ابنها وكانت لي أمًّا وأبًا وأنا كنت لها أكثر من ذلك؛ ولكني حتى الآن لم أسد شيئا من ذلك الدين، لربما ديْن الوالدين؛ هو الدفتر الذي لا يمكن سد كل ما فيه، ولهذا فإننا نطوي صفحة ذلك الدَّين الذي باسمها ونعيش في حياة غير مبالين بذلك الحمل الثقيل والذي يؤنب ضمير كل واحد منا؛ ولكن الجحود يا صاحبي طَبْعُنَا، وهي صفة ثابتة

جميعا فينا ولكن بمكرنا ننسى ونتناسى أشياء لا نرغبها؛ وليس هذا لأنها غير موجودة، وإنما لأن وجودها قد يُحدث أشياءَ نادرا ما تحمد عقباها.

-الوقت صباحا كما هو -معتاد عندي- وقد كنت أقومُ بروتين خاص بي؛ وهو الجلوس مع بعض الفتية الذي عهِدتُ لنفسي الجلوس معهم، فقد أحسست ببعض الأمان معهم لفترة زمن ليست بالقصيرة؛ وحتى لو قَصُرَتْ، فإن قيمة الأشياء لم تكن يوما بمدى طولها، وإنما بمدى ما تُقَدِمُ لنا من لحظات نشعر فيها بالسعادة وهي سعادة مؤقتة -نظرا لأن دنيانا كلها ثوانٍ مؤقتة- كنت في ذلك اليوم مع صديق لي حديث عهد -أيضا بي- وقد تلقيت إتصالا يسأل عني أين أنا الآن؛ وسألت سؤال المحتار الخائف، والذي لم يألف تلك الاتصالات من قبل بتلك الفترة من عمري وقد تملكني الخوف؛ كما أنه لم يتملكني من قبل، وقد سارعت بالذهاب إلى حيث أمي موجودة؛ ولم أجد بُدًا أو صعوبة لتأخير موعد الرحلة إلى وقت آخر وإنما سِرت إليها وأظنني حبوًا على الركب إن هذه المبالغة

التي توصلت إليها الآن لاغيةً لا معنى لها، لأني وفي تلك اللحظة بالتحديد أدركت أني كنت مخطئ حين قضيت جُلَّ عمري في متاهات بعيدا عن أمي، إني في تلك اللحظة أدركت أن عمري مضى ولكن من دون فائدة؛ وبدأت في التساؤل؟ ما معنى أن يجد كل شيء له علاقة بي فائض من الوقت وفائض من الاهتمام إننا حقا لا ندرك قيمة الأشياء إلا حينما أفقدها؛ ربما في تلك اللحظة بالتحديد لِهَوْلِ ما شعرت به وعاهدت نفسي على ألا يمضي يوم إلا أكون قد وصلت فيه أمي، وأنا الذي سبق وأن تقطعت بي السبل؛ في سبيل أشياء كانت تافهة؛ وفي سبيل صداقة ظننتها يوما دائمة، وفي سبيل حبٍّ، ظننته يوما قد يكون صادقا لو وُجِدَ والحقيقة أن كل هذه الأشياء كان هناك فائض منها؛ ولكنها ما إن أحسست بذلك الذي ألمَّ بأمي فإني أدركت أني حقا!! أضعتُ عمرا لا يمكن أن يعوضه صديق لي، أو حبيب؛ لأن بعض الأشياء قيمتها في ذاتها، وقد كانت أمي من ضمن الأشياء الجميلة في حياتي، ولكني لم أدرك الجمال إلا متأخرا وبعدما انتهى الوقت إن الوقت مشكلة

هو الأخرى إنه يَمْكُرَ علينا حتى يمضـي بنا، ونمضـي معه وغالبا للمجهول

-أنا الذي أضـعت يوما عمري في سـبيل أشـياء لا قيمة لها ربما لأني كنت أحاول إقناع نفسي بأن اعيش حياة من الوَهْمِ قد شـاء الله، لتلك الحياة بأن تتوفر كل معالِمها؛ ولكن السـتار ما لبثَ أن خُلِعَ عني، لأني في تلك اللحظة بالذات أدركت رداءة ذلك الهلس وذلك الوهم الذي كنت فيه.

وعلى غرار ذلك العمر الضائع؛ فإني والحقُّ يقال قد اِسـتعرتُ سـعادة ومع قصـر مدتها إلا أنها حمَّلتْ نفسـي الكثير من أعباءٍ لا حصـر لها، ربما لأنها كانت هي الكذبة الوحيدة والتي سـعتْ لأن تكون أجمل منعطف في حياتي وهي تلك الحياة التي لا بوصـلة لها، لأني كنت أسـير للمجهول؛ وكنت أُنهـي يومي، ولا أعرف كيف سيكون الغد الذي يليه، ولكن بعدما انتشـلني هذا الذي يسـمونه "الحب" من تلك الوحدة التي كنت فيها أدركت أن سـعادة

المرء قد يَسْـتَعِيرُهَا من غيره؛ وأنا حينما كان لـــزاما عليَّ اختيار ذلك الغير، لم أتردد في اختيار تلك التي لها أكثر من اســم، ونَعَتُّهَا بأكثر من قصــيدة؛ ولمَّحت لها بأكثر من نص؛ وهو دَيْدَنِي لأني كنت أميل للنثر أكثر من الشــعر؛ ويرجع هذا كون الشــعر محصــور في تفعيلات، وبعض البحور؛ ومن يحب الشعر عليه الالتزام بتلك الشروط، وأنا الذي لم يَحْـــدُثْ - من قبل- أن خضــعت لإِمْلاَءٍ ولا التزمت بشــرط؛ ولكن حينما تعلَّق القلب بها كَسَــرْتْ لها كل القواعد، وتنازلت عن كل المبادئ. -هذا هو الحب يصــهرنا ويحولنا إلى فتَافِيت، يمكن لأي وعاءٍ أن يحتوي منَّا ما شاء الله له بأن يحتوي لأننا حينما نَقَعُ في الحب فإننا نزْدَادُ قوة، ونزدَادُ بأســا، أكثر من ذي قبل؛ المعنى لهذا هو أن الحب يخرج أجمل ما في النفوس، لأن الحب هو الذي يجعل للفن معنى، وندرك معنى الفن حين نسـعى لكسـب قلب ذلك الحبيب أو تلك الحبيبة عن طريقه وهو أجمل تلك الطرق والتي غالبا ما يَعْمَدُ إليها الأحبة، لتعبيرهم عن مــدى الصــدق الذي يَكْتَنِفُ قلوبهم، وتفانيهم؛ وحينمــا

يتعلق الكلام بالحب، فإن الكلام لا حصـــر فيه، ولكننا قد لا ندرك طعـــم هذا الحب؛ والأسباب في هذا الصدد كثر، ودعوه -حديثـــنا- يكون على شكل تساؤلات، وأتمنى ألا تَخُـــونني ذاكـــرتي، لأنها سبـــق وأن خانتني أكثر من مرة؛ لأنها لم تكن تُطَاوِعْنِي في أوقـــــاتٍ كثر، كنت في حاجة إليها، ولكن هذا لا يهم! والمهم حقا كيف يكون شـــكل ذلك الحب، ومع من نبدأه؛ وكيف نبدأه، وهل هو يكون أكثر نجاعة قبل الزواج أم بعده إن الحب شـــعور جميل حينما يكون الصـــدق، هو الذي يُغلف تلك العلاقة، التي ربطت وَأَلَّفَتْ بين تلك القلوب، -الكلام عن الحب لا يُروج لأي رَذِيلَةٍ كانت، والحب ليس جُرما، والعشـــاق ليسوا في تُهمة؛ ويحدث هذا، وقد لا يحدث بعضه، حينما يكون تم قطف هذا الحب، قبل اكتماله؛ لإن الثمار حينما تُقطف قبل وقتها تُؤثر سلبا في حياة صاحبها والحب من أجمل وأفضل ثمار هذه البلاد- -وعلى غرار تجـــاربي السابقة؛ وقرائتي المتأنية، وملاحظاتي المتكررة أدركت أن الحب موجود؛ ولكن أين هو؟ إنه موجود في تلك البيوت

المهشـــمة وفي تلك البيوت التي لا يحيا أهلها حياة مترفة؛ في تلك البيـــوت التي تُغلفها البساطة، والقنـــاعة وفي أي شيء والرضا بأي شيء كان! إن هؤلاء أدركوا أشـــياء لم يُدركها غيرهم، ممن يعيشون في تبذل، وكذب؛ لأن الحب أهم شـــيء فيه، وهو الذي قد يحافظ عليه من التلف - الصـدق وحده هو الركيزة الأساسية- لأن كل ما هو قائم، لا بـــــد له من توفر بعض الأســس التي يقوم عليها فكلما انخفضـت قلل ذلك من تماسـكه؛ هذا حينما يكون الحب نشـأ على الزواج، وكانـــــت تلك إحدى بداياته، فإن هذا الحب لا بد من توفر الصـدق فيه لأنه لا تقوم قائمة إلا به، وكذلك لا ينهدم بيت إلا به، لذا فإن الذي أنصـــــــح به الأحبة، وكل الأحبة هو الصـــــدق؛ ربما كان هذا الصـدق مجرد عملة مجانية 'لدى البعض- وهذه العمـــــــلة حينما تنخفض قيمتها لـدى الطرف الآخر، فإن ذلـك قـد يُخَلِّفُ كـارثةً قد لا تحمد عقباها.

-ربمـا أكون من الـذين يُكْثِرُونَ الكلام؛ عن الحـب وهذا الدلـــيل يُوضِح لنا أن حياتنا خالية -من الحب- لأنه

من عادة الإنسان أن يُكْثِرَ الحديث عن ما يفتقده، ربما من فرط بحثنا عن ذلك الحب الذي غالبا ما ظنَّنَا يوما أن حياتنا لا يمكن أن تسمر منه دونه والحقيقة أنها قد تستمر لكنها تكون من دون بوصلة لها

قد تضبط تلك الحركات، وتحافظ على تلك التصرفات؛ معناه أن الحياة تستمر ولكن من دون طعم؛ من دون لذة ومن دون إنجاز، ومن دون سعادة حتى، وحتى سعادة مؤقتة، ربما لأن كل السعادة المتوفرة عندنا مؤقتة، ولكننا قد ندخر بعضا من تلك السعادة المؤقتة، في بعض الأوقات الفارغة والتي نشعر فيها بوحدتنا، وفي تلك اللحظة بالتحديد فإن الواحد منا قد يعبث بذاكرته ويعصر أفكاره ويفتح بعضا من تلك الصناديق الموجودة في مخه ويخرج أجمل لحظة مرت عليه؛ وهذا ما أطلق عليه السعادة التي تبقى معنا، لأنها هي الوحيدة والتي كلما شعرنا أننا بحاجة إليها، فإننا قد نُخرج منها فائضا، وقد يغلب ذلك الفائض تلك الحسرة، وحسرة كل الذي حولنا لأنها السعادة حينما تحدث، أو تُبصرُ، تنعكس على كل

الذي حولها؛ وهناك معادلة تصادفنا كل يوم، وهو أننا كلما صَادَفْنَا شخصا يضحك فإننا نضحك تلقائيا، والسبب هو أنها سريعة العدوى؛ لذا أنصحك بأن يكون أقرب الناس إليك، هم الذين يحملون روحا إيجابية، وروحا مفعمة بالطاقة، وقطعا هي تلك الطاقة لتُؤْنسَنا في تلك الوحدة، التي لا نجد فيها صديق؛ ولا نشعر فيها بقربٍ من حبيب، إنها تلك اللحظات الجوفاء وتلك التي إذا آتتك فإنها نادرا ما تقلب لحظات عمرك رأسا على عقب!. -الفشل المتكرر هو في كلامي عن الحب وعن أهله ربما لأني أصبحت أكفر بهذا الشيء الذي يسمونه بالحب؛ وهذا كفر قد لا يكون له ما يبرره، ولكنه موجود، فالكره، كما الحب، أشياءٌ لا دخل لنا فيها، لأنها أشياء تلتقطها قلوبنا قبل حواسنا، ولذا فإننا مع ذلك يمكن أن نضبط تصرفاتنا؛ هذا حين تُجذب تلك منا أو حينما تُسْرَقُ، لأن السرقة الوحيدة والتي لا يقام عليها حدٌ ولاتقطع فيها يدٌ هي هذه السرقة وحدها -سرقة القلوب- أتمنى لو تخفف هذه الأخيرة -سرقة القلوب- شيئا من اللهفة التي كانت تَعْتَرِيكَ حينما دخلت

هذا الصرح الغيْرُ ممرد، ربما كانت تلك مجرد لهفة البدايات وتلك التي غالبا ما نجدها في بداية كل فصل من عمرها، هذا القصير ولكنه مع ذلك طويل لو أن العمر يحصى بقدر ما فيه من تجربة، أو بقدر ما اكتمل فيه من إنجاز؛ -وعني فإن الإنجاز الوحيد، الذي قد أقدمه أو الذي قد أفخر به، هو هذه الحروف البسيطة، التي حمَّلَها هذا "الصاحب أكثر مما تقدر، أو أكثر مما تستحق؛ والحقيقة هي أنها تعني له الكثير، لأنها قطعة لا تتجزأ من قلبه، لأنها ليست مجرد حروف، ولا مداد، وإنما وتين قلبه؛ وأثر هذا الحرف لا يدل سوى أن صاحب هذا القلب حمل أكثر مما يجب ويقدر- -العجيب في الأمر هو أن هذه الرواية والتي قد حاولت معها لتكون مرآة للهجرة، تعكس الأسباب والنتائج عنها؛ التي غالبا ما تجبر صاحبها على أن تنحرف بوصلة حياته، لربما هو أراد واقعا غير هذا؛ واقعا لا مكان فيه -لإبن فلان أو علان- وربما تقطع السبل بصاحبنا ذاك؛ كما تقطعت بهذا؛ وربما هو انشغل بلوعة تلك البداية التي بدأ لذا فإننا لم نجد بعضا من ملامح تلك

النهاية، والتي لا شك أرى أنها أصبحت تلوح في الأفق. ولكن ما شأننا نحن بأي نهاية كانتْ ونحن الذين تغرينا بعض البدايات وغالبا تلك البدايات، التي يعلُواْ في الصياح؛ ويرجع هذا لكوننا لا نجد شيئا ذا فائدة، يمكن أن نُشغل فيه نفوسنا؛أو هذه الأيادي التي نملك، وكثير مانملك! لكننا لا نُبصر بعضا منه ومن ذلك هذه التي إذا لم تجد في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا.

ربما هناك أحداث كثر حدثت وأخرى قد تكون في الطريق لا شك أنها في الطريق؛ وأرى أن هذه ليست إلا مقدمة قصيرة، ليس إلا! لذا فإني أرى أننا لا نملك ذاكرة، ولو حقا كانت هناك ذاكرة فإن حجمها وسعتها لا تَعْدُواْ ذاكرة لسمكة تالفة -أيضا- لذا فإننا ننسى بسرعة أحداثا كان من المفترض ألا تضيع منا بوصلتها في أي طريق كان؛ وعبر أي سبيل لأن الأحداث هي التي تسوقنا للبحث في تلك التفاصيل الصغيرة، لذا فلا أرى غرابة في البحث والتدقيق فيها؛ والسبب هو أن هذا الإنسان الكبير، والضخم ليس إلا مجموعة صغيرة من التفاصيل ربما تكون موغلة

في الصغر، ولكننا على أية حال فإننا نخضع لها، شئنا ذلك أم أبينا؛ ولكن هذا أيضا لا يهم لأنها مجرد تفاصيل صغيرة قد تدلنا على شيء أكبر، وما هو أكبر من كل هذا، هو أني، وأنكم، وأننا لا نلغي بالا أو لا نهتم للذي يحدث معنا، أو الذي يحدث مع غيرنا.

لربما يَجُرُّنِي التساؤل؛ إلى "أحمد" ويعود بي إلى تلك العتبة التي تركت عليها "أمي" أو التي تَعَوَدَّتُ أن أجدها تنتظرني هناك، وربما ترجع بي ذاكرتي إلى إخوتي الأربع وإلى كل من له صلة بي ربما أحاول استرجاع السطور الأولى من الجحيم الذي عشته، والذي عاشه معي كثر؛ ومن كثرتهم لم أعد أجد منهم شخصا، يمكنه أن يقص عليَّ شريطا من تلك الذكريات التي عشت معهم، والتي قضينا فيها عمرا ليس بالقصير ربما لم يعد هناك شخص له صلة بي، أو له صلة بذلك العمر، الذي ضاع مني في وضح النهار؛ حيث تبخرت أحلامي، ولم يبقى منها شيء يذكر فيشكر أو يذكر فيحمد حيث عدت من دون ذاكرة أو أرشيف يمكن أن أجد فيه بعضا من ملامح

"الطفل" الذي كُنْتُهُ يوما؛ أو أية علامات لذلك الرجل، الذي كسى لون رأسه -يوما- بالأبيض؛ ولم يكن مخيَّرا حينها، بل العكس كان مُجبرًا على طلاءِ رأسه بذلك اللون أو ذلك الفتى الذي شابَتْ سَوَالِفُه قبل أن يحين وقتها، ولكن لا شيء من هذا تبقى، ولا شيء من ذلك الذي كان يُمَنِّي النفس أن يتحقق بعضه حدث لأن أحلامه ضاعت عليه؛ وهو واقف غَلْبَان ليس بالأمر حيلة كان همُّه الوحيد أو الشيء الذي كان يطمح له؛ والذي حاول من قبل أن يُطَوِّعَ نفسه في فعله هو "التأقلم" وحتى هذا لم يحدث منه شيء! فقد كان ينتظر أن تشفى أمه ولكنه شغلته إحدى المسابقات والتي يطمح لأن يكون الأول فيها، وإذا لم يكن على مستوى وطنه على الأقل على مستوى ولايته؛ وإذا لم يتحقق له ذلك على الأقل كان مقتنعا أنه الأول في حارته ولكن هذا لم يحدث وحتى أنه لم يكن الأول بين أقرانه وهم الذين ينخر الخمول عقلهم، ويسيطر على حركاتهم، فقد كان ينتمي لهم؛ لذلك القوم الذين لم يطمح أحدهم لأن يفعل أيَّة أشياء وحتى لو كانت بسيطة، فقد

اقتصـــرت همَمُهم على ملءِ بطونهم؛ وإشـــباع رغباتهم لا غير!.

وكان هو وهو الذي لايُشَـــقُّ له غبار ولايســـأل عن شـــيء إلا كان على اطلاع تام به؛ لأن حياته ملأت معرفة وتجارب لكنها قد تكون تجارب لاغِيـة؛ وعقيمة في ميزان اليوم، حيث لم يعد يزن هذا الإنســـان والذي هو أنا وأنت وهو، لم تعد لنا قيمة إلا بما نملك ليس بما نعرف؛ ربما لأن المعرفة أصبحت عبئا على صـاحـــبها، لأنها غالبا ما تكون سـببا في شـقائه؛ وهذا المصـطلح يحسـب لي، لأني الآن أحاول جمع ممتلكاتي لا غير؛ نظرا لأن تغير الأوضاع المعيشية قد ترتفع في السـاعات القادمة؛ وهذا تهافت ليس له ما يبرره مني، ما شـــأن الممتلكات هنا أَتَرَى أننا واقفين على باب دكان من يدري! ربما قد أبصـــرت شـــيئا قد لا يبصـــره أحدكم؛ وهذه الأخيرة ليســـت نكتة، ولأنها حقيقة مئة بالمئة، فإني لم أتردد بقولها "يا ناس إن المعرفة تُحـول حياة الإنسان إلى جحيم" وهو جحيم جَافٌ، لا سعادةَ فيه؛ ولهذا فإن صـــاحبه يفقتد الشـــعور بقيمة الأشـــياء لأنه لا

يَقِيسها بقلبه وإنما يقيسها بعقله؛ والعقل هو سبب شقاء الإنسان لأنه ماردٌ متهورٌ لا سلطة عليه، ولا يوجد قياس يضبط حركاته؛ معنى هذا أن عقل الإنسان قد يُسعد ويُشقي في نفس الوقت وقد يحيي، ويميت في نفس الوقت، لأن العارفين قالوا إذا أردت معرفة مكانك عند ربك فاعلم فيمَ أقامك وأنا أقول إذا أردت أن تعرف قدر عقلك فاعلم فيمَ أشغلك؛.

-ربما تكون هذه الفقرة مجرد اعترافات بسيطة وهو اعتراف كنت أعمدُ أن أدخره في كل شيء يسند إليَّ؛ لأني بكذا حيلة كنت أميز من الذي يقرأ والذي لا يقرأ؛ أو الذي أكمل الحديث وصولا إلى الفقرة الأخيرة، لأني كنت أكتب لنفسي أكثر ومن كثرة ما أكتب لها؛ كانت نفسي تحفظ جميع خواطري؛ لِقِلَّتِهَا لا أكثر! وكنت حينما أهُمُّ بالخروج بحروفي، من تلك النافذة الضيقة؛ أقص ذلك على أصدقائي، ولكثرتهم فإني لم أُرِدْ؛ أن يرى كلهم ما أكتب ليس لشيء سوى لأن من بينهم أشخاصا؛ لا يشق لهم غبار -بالنسبة لي- وكان الواحد منهم، حينما يقرأ لي

فإني كنت أقرأ معه؛ وقبل أن يصل هو إلى السطر الأخير لأني كنت أرى تلك البهجة في عينيه؛ وقد تغير صوته؛ وهو صوت كنت قد حفظته -من قبل- وحفظت معه كل التَّرانيم التي تميزه عن غيره وقد كان للأصوات ومن الأشخاص التي أَلِفْتُ؛ طعما آخر؛ وشعور ليس مثله شعور؛ لأني كنت أرى كل ذلك الصدق، والحب، والذي كان يَكُنُّ لي كل واحد منهم على حدى؛ دون أن تخالطني فيه ظنون لأنه كان صادقا؛ وقد كان الصدق هو الذي يغلف جميع تلك العلاقات، وكان يحيط بكل تلك المعارف التي دشنتُ به حياتي أو الجزء الأهم منها على -فكرة كل المحطات التي وقفت فيها مع نفسي كانت أفضل- لذا فلا يهم شيء مثل هذا لكم وإن بدا مني فإنه مجرد خطأ ليس إلا!.

-وكانت من بين تلك المعارف تلك الصديقة؛ ولربما الحبيبة، وربما أكثر من ذلك وأفضل لو كان حقا هناك ما هو أفضل أو أجمل؛ والحقيقة أنها كانت الأفضل، والأجمل وعلى أية حال، فإن هذا -أيضا- قد لا يهم؛

ولربما يكون -أيضـــا- أهم وعلى كلٍّ فإني والحق يقال؛ بحثتُ عن ملامح تلك الصـــديقة في جميع الأمكنة والتي عهدتْ من قبل أن أجدها فيه؛ وَلَعَلَّنِي أجد مـــــا قد يقف مكانها، أو يملأ ذلك الفــراغ الذي أَحْدَثَه غيابها؛ قلت هذا سابقا، قبل أن تَسُوقنِي أناملي إلى هذا الاعتراف؛ وأرى أنه اعترف سطحي، وهذا أيضا لا يهم؛ ولكن ما أود قوله، هو أن هذا الإنســان؛ قد تلتقط له حواســه ســعادة، لا يشــقى بعدها -أبدا- وقد تلتقط له سعادة أيضا وهي سعادة مؤقتة؛ لا يهنــأُ بعدها -أبدا- ونحن من شدة تعاستنا لا ندرك تلك السعادة، إلا بعد فوات الأوان؛ حينما نكون قد ضيَّعنا تلك الســعادة، وذلـــــك الشــخص الذي كان يحمل معه تلك الشــمعة التي أنارتْ حياتنا بعدما اِشــرأبتْ ظلمة، وظلمًا؛ ونحن بدورنا أو من عادتنا حين تُواتينا تلك الســعادة، فإننا لا نحتفظ بها، ولا نحافظ عليها بل العكس نظل نبحث عن ســـعادة أخرى، ولحظات أخرى، يمكنها أن تكون أجمل؛ والحقيقة أن حياتنا لا قناعة فيها، ولا اكتفاء ذاتي؛ يخول لنا رفض سعادة أخرى، أو خيارات أخرى.

-ومن بين تلك الخيارات، وجدت الفتاة التي طالما حلمت بها وهو حلم كان من الصعوبة بمكان أن يتحقق؛ ولكن الحلم هو العملة المجانية في هذه البلاد الطيبة والتي مُلئت خيرً وحبا وقد شاء الله بأن تكون الفتاة بمثابة "جواز سفر بالنسبة لي" لدرجة أنها خوَّلت لي قطع كل الحدود، وتذليل جميع صعابِ الحياة والتي من كثرتها لم أعد آبَهُ لها؛ لأني اكتفيت ولكن ما باليد حيلة وعن الصعاب التي ذللت هو أنها أخرجت من تلك الروح والتي هي -أنا- روحا مطمئنة، روحا بدأت تعرف قيمة هذه الحياة والتي في كل يوم ينتهي يتوافد إليها كثر؛ وكما أنها في كل ليل ينتهي ويأفل نجمه، يأتي ويذهب كثر؛ فقد كان لتلك الفتاة النصيب الأفر من هذه الشخصية، والتي ذاعَ صيتها بين أقرانها وأصبحت كيانا بذاته، قبل ذلك كانت لهذه الروح بعض الأحلام، ولكن من الصعوبة بمكان أن تُعاش ولو أنه حقا أراد أن يعيشها فإن تلك الحياة، لا تتعدى الرسم على الورق؛ وهو الورق المُقوى.

-وكان من كرامات صـــاحبنا أن الله يســـوق له كل الأشـــياء التي يفكر فيها؛ ناهيك عن تلك التي يحبها، أو التي استشعر أنه لا بد منجذب إليها؛ ولم يكن بالأمر حيلة، فهذه النفس مطـوعة لبعض الصفات ومنْساقة لبعض البشر وحينما تقع هذه الروح في تلك المرتبة؛ أو تلك الحَلَقَـــة فإنها تُسلِّم كل حَوَاسَّها، وكل ما يخصها لتلك النفس التي جُبِّلَتْ على حبها؛ ونحن الرجـــال مهما بلغنا من القسوة والقوة، فإننا نبقى ضـــعفاء حينما يتعلق الأمر بمن نحب؛ لأننا كلما واتـــتنا تلك الفرصـة في اقتراب مع من نحب، فإننا نظهر لُيونة، وتنازلا لم نَعْهَدْهُ من قبل؛ فقط

أنظر معي لبعض القادة والـذي أَفَـلَ نجمهم ولكن التاريخ شـهد لهم بالقسـوة والضـراوة، ولكن معدن الواحد منهم القاســـي كان حينما تجذب قلبه تلك المرأة، ومهما كانت فإنه ينقــلب رأســا على عقب والسبب هو أن المرأة بكل تلك الرقة، والهـــوان، لم تسـتكن وإنما اسـتطاعت بذلك كله صـهر ذلك الرجـل القاسـي والذي لم ينبض له قلب من قبل؛ أو لم يَسْتَشْـعِرَ أنه قلـــبا، وله عليه حق وله

رغبات عليه أن يُشـــبعها؛ ولكن! لا أن يكونَ عبدًا لها وله أيضـا مبادئ عليه أن يحافظ عليها؛ لا! أن يتنازل عنها ربما التنازل هو بداية السـقوط؛ وسـقوط الكبار، لأني أرى تلك العظمة التي شـــيَّدَها صـــاحبها وأقام لها صـــرحا ممردا والصـــرح، ليـــــس إلا تلك المبادئ، التي أقامها لنفســه، وحافظ عليها؛ لأنها بدورها تحافظ عليه، وعلى مكانته.

☆ ☆ ☆

فصل آخر

لم تكن تلك الأم التي أَعَاقَتْ مسـتقبل صـاحبنا، أو مهدت ذلك الطريق الذي شـغل باله فترة من الزمن؛ حينما كانت معه ولم يكن كله أو بعضـه إلا تشـبيها لهذا الواقع، والذي نعيشـه بهكذا، مجتمع لم يكن كله، إلا تقريبا بعض الشـــيء لما قد يشغل بال الواحد منا لأن الواقع هو أسوء ظرف حينما لا نُحســـن تعاملنا معه على الوجه الذي يليق به، وذلك التعامل لا يكون بالتمرد ولا بالتعنُّت وإنما باللين والتأقلم معه؛ لأن الواقع، هو الوحيد الذي حينما نعرف

من أين يؤتى فإننا نأمن مكره؛ ولكن الـــذي بدأ به صاحبنا لم يكن الواقع وحده وإنما للمجتمع هناك حظ -أيضـــا- وهمـا وجهـان لعملـة واحـدة وهي العملـة التي قـد تعطي الواحد منا شـــيئين نفس الوقت؛ ولكن ماهما: أنا لا أعرف ربما كنت أســـتغل بعض المعارف التي كانت تخصـــني؛ وبعـــض كلام العابرين الذي لم يأتوا حتى يشدُّوا الرحال عائدين، إلى أين؟ أنا -أيضا- لا أعرف، لأني لم يحدث أن سألت عن شيء ولهذا يمكنني الآن قول شيءٍ لطالما كنت أنتظر الفرصة -المناسبة- التي قد تخول لي قوله؛ ويمكنها أيضـا أن تصـبغ عليه لونا قد يحد من فاعليته ويعطيه بعض الشـرعية -أناأضـحك- شـرعية ماذا؟ أنا -أيضـا-لا أعرف؟ ولكني سمعتهم، أو سمعـت بعضهم يقول: أن الأشياء التي لا شـرعية لها، نادرا ما تتحقق؛ ولذلك فإني لا زلت أبحث عن شـــرعية يمكن أن تكون غطاء لمَا قلت والحقيقة أن الشرعية التي أبحـــث عنها، ليست لهذه الـــفـــقـــرة وحدها وإنما لكل الفقرات الســـابقة، والكلمات الســـابقة؛ وحتى

تلك الهفوات السابقة لأن الكلمات التي قلت: -من قبل- لا أرى أن هناك مبرر لها، ولكن هذا لا يهم.

والحقيقة أني حينما بدأت بالكتابة لم أكن أرنُوا لكتابة شيء ذو أهمية؛ لأن الهدف من الكتابة بالأساس، كان مجرد العبث بذلك اللون الأبيض الذي يُجمل حياتنا، بأن يُلبسها لونا أَبْيَضًا ناصعا، وكنت كالذي يملك فرشاة وألوانا سود، وبعض الألوان الأخرى؛ لم أتذكر الآن أسمائها ولكن ما أنا متأكد منه، هو أنها ليست ألوانا بيض؛ لأن سبب كل ما كتبت في الأساس، ليس إلا إفراغ رغبة كانت قد تَمَلَّكَتْنِي -من قبل- كلما التقطت قلمًا أو كلما صادفت ورقة بيضاء؛ لأني في المرات السابقة، كنت أقرأ كلما أجد أمامي، وكنت أقرأ -أيضا- ما أُحَاذر، ولهذا فإنك حينما تقرأ لي تجد أنك قرأت لشخص على اطلاع بكل شيء

وقد اقتصرت المعارف، لكل شيء على اسمه -فقط- وربما لم يُحبب إليَّ التعمق ببعض التفاصيل، والتي

كان من شـــأنها أن تبعدني عن أشياء كثر طالما التمست العذر لأصحابها، لـلبقـاء معي أطول فترة من الزمن؛ لأني أعلـم أن الأحداث لأجل أن تستمر يجب أن نغض الطرف عن التفاصيل-الصـــغيرة-وحتى الجزئية منها، لأن التعمق فيها والبحث عن كل شـــاردة فيها لا يزيد الطين إلا بلة؛ والوقت ليس عندي متـــسع منه، لأن أَبْنِي منه جسـرا، أو أشـدَّ به قلاع كانت على وشـك السـقوط، والحق يقال: لا هذا ولا ذلك هو الذي جعلني أَعْرِضُ ذلك على نفسـي أو أحاول تقبله؛ لا شيء حقا سوى أني أعلم أني أملك بضعة أيام هنا والذي مضـى منها أكثر من الذي بقى منها؛ وأتمنى لو يكون هذا الذي بين يدي الآن بقاءٌ لي، لأن المـرء الذي يُبْقِـــــي أثرا خلفه لا تُعْدَمُ أخباره هذا هو ما يســعى إليه الإنســان فقد حاول -من قبل- أُناس كثر! أن يسـلكوا هذه الطريق الشـائكة، والشـاقة في نفس الوقت؛ وبعضـهم وَصَلَ مبتغاه، وبعض آخر تقطعت به الســبل، وربما تجرَّع من اليأس كؤوســا، وقد ســاهم ذلك الكأس في تأخره عن الركب، وبعض آخر لم يكن يسعى؛ أو يطمح لبناء مجد له

وإنما ســـار مع القطيع وهؤلاء كثر ولذا فإنك تجد أنهم الأغلبية وغالبا ما يسـدل السـتار عليهم -أيضـا- ويموتون دون ذكرٍ؛ أو عاطفة ولو حقا كان هناك ذكر فإنه قد اقتصـر على ذكر أسـمائهم فقط، لأن التاريخ لا عـــاطفة له، ولا يُجامل أحدا؛ ولكنه يحفظ أهله جيدا ويشـــيد بأفعالهم ومهما كان ذلك الفعل الذي خلد به الواحد ذكر اســمه، - في صـــفحات الباقية أســـمائهم بعد موتهم-إن تلك الصـفحات أو ذلك الكتاب يحاول في كل يوم تشـرق فيه الشـــمس، وفي كل يوم -أيضـا- يُوَدِّعُ الشـمس أن يعطي الفرصـة لمن يسـتطيع تسـجيل شـيء؛قد يحفظ له ذكرى تخصه في إحدى الأيام الماضـــية، ولـــو أن الخيار متاح للواحـد منـا، وفعلا هو متـاح ولكن قليلا من يغتم ذلـك ويخلد ذكرى حسنة، ذكرى تُذْكَرُ لِيُشْكَرَ صاحبها؛ وأتمنى لو يكون ذلك الصـاحب -صـاحبنا- لأنه كان يُؤَمِّل الكثير، وقـــد اسـتخدم أكثر من وسـيلة ولكن الواقع لا يمكن تطويعه، سوى لمن كان الصبر هو دَيْدَنُ حياته.

ولم تكن -الهجرة- سوى الغاية، التي تبررها الوسيلة وكانت الوسيلة -أحمد- وهي وسيلة قد تكون غاية في الغرابة، لكن هذا لا يهم؛ فلم يكن -أحمد- سوى خيار من بين خيارات أرى أنها قد تمهد الطريق لصاحبنا، وهي طرق كثر، ولكنه لم يَأْمَنْ إلا واحد منها، وهو الطريق الذي كان يَرُدُّه لعتبة ما! قد ترك أمه عليها فترة من الزمن تنتظر قدومه، وقد تَعَوَّدَ هو رؤيتها في ذلك المكان، لا أذكر الآن اسمه ولكنه مكان معلوم، -نسبة له- وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقولون أو ما هو شائع عند أهل مكة؛ وما دخل مكة وأهلها، إنك يا صاحبي، كلما حاولت أن تسلك طريقا مستقيما، يردنا لإحدى السبل والتي تقطعت بنا -من قبل- نَرَاك يا صاحبي تُضَيّع الخيط، وتتركه يفلت من يدك مرة أخرى، هل هناك تفسير لهذا؟ ليس هناك تفسير، لأن هذه فقرة اعتراف لا تفسير وأتمنى لو تفهم في المرات الأخر أكثر.

كانت الوسيلة التي امتطى صاحبنا يقال لها أحمد وكان ذلك اختيار لا بد منه، لأن الذي كان يحتاج صاحبنا

متوفر جميعه عند أحمد، وأحمد رجل يمتاز بالنبل، والمكر في وقت واحد، ولم يكن صاحبنا يخاف من المكر الذي مَلَكَ أحمد -من قبل- رِقابَ خُصومِه وبعض أعدائه حينما أَمِنوُا مَكْرَه في فترة من الزمن، وهو الزمن الجميل، ذلك الزمن الذي يردني، أو يردنا كلنا إلى بعيد؛ حيث لا خوف لا من الواقع ولا من الناس فقد كان الكل يفعل ما يحلوا له، وكان الكل مقتنع بتلك الخيارات التي ولدوا فيها، أو تلك التي كان لا بد لنا التأقلم معها، لأجل أن تتوفر لنا خيارات أكثر؛ فالبعض قد اقتنعوا، بالواقع الذي وُلدوا فيه، وبعض آخر لم يقتنع به، وكان يردد -دوما- أن في الإمكان أن نفعل أكثر مما كان، وبإمكاننا جميعا أو البعض منا أن يغير شيئا؛ ويُحدث فارغا في تلك المعادلة والتي حُسمت من قبل، بين من يملك شيئا وبين من يبحث عن شيء يمكن أن يملكه، فقد قلت من قبلُ في سطرٍ من الأعلى الذي حُجِبَ الآن عني، من كثرة ما عَقِبَه من الحروف؛ أن البعض هنا لا بد أن يملك مستقبلا تم بناؤه له من قبل أن يولد وبعض آخر، لا بد له أن يستيقظ في كل

يوم ليقدم شـــيئا ولو كان يسير في سبيل بناء ذلك المجد الذي يحلم بأن يكون له، هذا لو حينهـــا يكون يسعى لبناء مجد له؛ وقد كان من تلك البقية، التـــــي قد حُكم عليها بالإعدام، لأن الفقر هنا، إعدام لا تسمـع صـرخـات أهله، والسبب هو نفس السبب، وما دُمْـــنـــا ولدنا فقراء؛ فعـــلى الأقل يجب أن نُجنبَ أبنائنا تلك الويْلات، وهذا حينـــــما نكون من الـذين يســـعون لأن يزيـدوا من عـدد الأفواه المفتوحـة هنا؛ مع أني والحق يقال أعلم علم اليقين أن كل فم خلفه الله ثم فتحه صـــاحبه، فإن هناك -دوما- ما يمكن أن يملؤه والمعضـــلة هي هذه وهو ألَّا أحد سوف يسعى لأن يسد ذلك الرمق الذي كان من قدره أن يكون فيه؛ على غرار الذين تعددت خيارات قد أخذها البعض منهم على محمل الجد فإن أولئك وإن قَلُّوا فإن أثرهم لا يمكن أن ننكره. لأنه الآن في المعادلة وهي المعادلة التي كانت -دوما- مسـمار نعش يقوم عليه هذا النظام والغير مُنظـــم، وبما أنني وصلـــت للنظام؛ يمكنني الآن قول أشياء كثر، وكنت قد حجمت عنهـــا فترة من الزمن، لأنها كـــانت من

المحظورات؛ والتي لا يسمح لأي أحد مهما يكن خوضها، لأنها كانت بمثابة لُغْمٍ، يمكنه أن ينفجر عندما تدوسه أي قدم! وحتى أقدامي هذه المتواضعة لو أنها داستْ عليه بالغلط؛ لغيَّرت أشياء كثر، كان البعض من شدة حرصه عليها لم يكن يتوقع أن تقلب عليه الطاولة وهي طاولة أرى أنها لا تُقدر قيمة الذين يجلسون عليها، وتعاملهم على أنهم سواسية، لا كبير بينهم، وإنما هم كلهم أبناء "لوطن يتيم" هذا الذي نعيش الآن على ترابه، ولكنه لا يساوي بينهم وإنما فضَّلَ البعضَ على البعضِ؛ وهذا الأخير، -أي التفاضل- ليس له ما يبرره، لأنه قد اتخذ من التفاضل، تفاضلا فطريا؛أي أننا نولد في مشفى واحد على سبيل الإعارة، وعلى نفس السرير؛ ولكننا لم نعرف بعد! المعايير المتبعة عندنا التي تميز بيننا، وتفضل شخصا على شخص.

-إن مثل هذه الأسئلة مشروع؛ وقلَّما لا يجد صاحبه جوابا، مع العلم أنه ليس إلا سؤالا من بين المئات التي تطرح يوميا أكثر من مرة، وفي أكثر من مكان؛

وهو أكثـر الأسـئلة إشكـالا تلك التي تطرح بقصد وبغير قصد.

-ونمضي نتسائل، أو يتسائل معظمنا أو معظم تلك القلَّة التي بدأت تفتح أعينها لتواجه هذا العالم والذي كان يسـعى يوميا لأن يُبَشِّـرَ أهله، بأن يقول أنه في الإمكان أن نفعل شـيئا، وأننا يمكننا أن نجعل الغد أفضـل من هذا الأمـس الذي مضى، وقد انتهى أو انتهى معظمه؛ إن التغيير آت لا محالة ولكن لماذا لا نواجهه -الآن- قبل أن يقتحم الباب علينا، ويفـرض خـياراتـه؛ والعالم من حولنا يتغير وكل يوم تتكشف عورات أهله والذي لا يستر عيوبه يمكن أن يطاح به في أول مواجهة.

-إن هذه الفقرات ليسـت سـوى تحصـيل حاصـل، سوف يحدث عما قريب؛ ولذا فإني أخذت أن أقدمـه لكم هنا، قبل وقوعه؛ لأنه في تلك اللحظة بالذات لم يعد ينفع الندم ولم يعد هناك معنى، للاعتذار.

ولكن هذه الأشياء قد لا تحدث لنا؛ ولم توضع هنا إلا لأن هنا فراغ لم يجد ما يملؤه، لأني نادرا ما أستغني عن أية عبارات قد تزيد من وزن هذا الكتاب، أو قد ترفع من عدد الحروف التي فيه أو شيء من هذا القبيل ولأني ألعب على هذا الوتر فإني غالبا ما أُضَيّعُ حرفا؛ إلا حين أملك مكانه أكثر من كلمة وأكثر من حرف، لأني ولو أجبرت مرة على المجادلة عن هذا الكتاب لقلت للناس تعالوْا وانظروا إلى عدد الصفحات والتي ملأت حبرا؛ ومن ينكر ذلك، وقليل من يعترف بذلك؛ لأنك لا بد قد لا حظت شيئا من ذلك التهافت الذي اختل المعنى عن طريقه؛ هذا لو كان حقا!! هناك معنى وهو موجود وقد يجده البعض، ويفوت البعض الآخر؛ وأتمنى أن تكون عزيزي القارئ من الذين صبروا بدءً من الصفحة الأولى حتى الاخيرة؛ لأني أريد أن تكون واجهة لي لتدل الناس على هذا الكتاب، والذي واجهت الكثير من الصعاب، - حينما هممت بكتابته- واعترف لك أني لم أُصَادف، ولم يعق طريقي عدوًّا، أكثر من الكسل لا أعرف حتى الآن،

كيف استطاع البعض التغلب عليه؛ وبعض آخر كيف أسلموا له الرقاب طوعا، ومكرهين لأن الذي يسلم نفسه للكسل كمن يقف على عتبة المشنقة ولايملك من خيار سوى التسليم للأمر الواقع.

-وقد كنت من الذين غَلَبَ عليهم يأسهم طموحهم؛ لأني كنت أَعْرِضُ عن الكتابة فترة ليست بالقصيرة من الزمن وقد كنت حينما أهم بأخذ القلم، أو بفتح تلك المكتبة الموجودة ضمن تطبيقات هاتفي، كان حينها ينزل علي شيء من الإلهام، ولم يكن باستطاعتي مجابهته؛ وإنما العكس كنت أسلم له نفسي حتى أفرغ ذاكرتي من كل ما فيها؛ وكنت حينما تفرض كتابة أي شيء عليَّ، كنت أبدع حينها فكان بمقدوري لحظة واحدة ملء أكثر من عدة صفحات؛ وأنا الذي لا يقدر الكتب إلا بعدد تلك الصفحات السودِ فيها، تلك التي عليها طلاء، وزخرفة، لا يمل الناظر من الشوق إليها بل العكس يتشوق إليها لأنها هي التي تمنحه بصرا؛ وبصيرة في نفس الوقت، لأن هذه

ليست سوى مخلوقات قد فطر الله قلوب البعض على حبها.

ولذلك فإنك تجد المحب منهمك ومشغول، في موضوع حبه؛ ومهما يكن ذلك الموضوع الذي شغله، لأن الذين يقعون في الحب نادرا ما يكون هناك غشاء يخفي تلك العيوب، التي في الذي أحبوا؛ لذا فإنك يمكن أن تجزم بأن الحب أعمى، وكذلك أهله وأنت قد لا تَلْحَظُ ذلك إلا حين تقف في زاوية منخفضة في مكان -أيضا- فإنك ستلاحظ أن الناس حينما يقعون في حب شيءٍ فإن العمى العقلي يصاب عندهم بالفتور لذلك فإنك قد تجد بعض الأحبة يسرفون بأشياء لا قيمة لها؛ -وأنا أعذرهم- لأني أعرف أنه ليس بالأمر حيلة، ونحن حينما تقع القلوب التي في صدورنا فريسة لدى البعض، فإننا نَنْساق إليها، وإما طوعا أو مكرهين؛ ونحن مكرهين لأننا نندفع نحو أشياء؛ ولا نعرف ما ينتظرنا هناك خلف تلك الكواليس ونادرا ما ينتظرنا هناك إلا صدمة بليغة الأثر ممن نحب وتقلب هذه الدنيا على رؤوسنا وتحولنا أشخاصا

غير مبالين لابما حدث ولاحتى بما قد يحدث مستقبلا، ولأن ما يهدد حياة الإنسان ليس الموت وإنما الصدمة والقلق وكلها أعداء خفية لا نراها ولكننا نلمس في حياتنا؛ كل الآثار التي تدل عليها وهي أشبه بذلك الموت البطيء والذي نسلم له نفوسنا ويظل ينخر تلك العظام حتى آخر رمق يصل إليه الإنسان، وهو ليس إلا مشنقة بالغة الأثر. - إن الذي يهدد حياتنا، ويبقيها على المحك ليس الموت؛ إنما القلق، وهو ذلك الشعور الذي نحسه في داخلنا، وهو الشعور الذي لم يكتشفه الطب الحديث، ولم يدركه؛ لأن الطب يملك بعض الأعراض، وهي التي تدله على مَكَامِنِ المرض، والسبب الذي قاده إلى ذلك، هي أعراض لا غير! وسلوك يدركه الكثير من الناس حتى أولئك الذين لم يدخلوه إلا مرضى، ومع ذلك فاقدي الوعي؛ وهو الوعي، الذي ندرك به الأشياء، وقيمتها لا شيءَ يخفى على الإنسان الذي ينساقُ لفطرته، وهي الفطرة التي فطر الله عليها جميع قلوب البشر؛ ولكننا نادرا ما يكون بيننا مُكابرين وناكرين لتلك الأحداث وحتى يولون وجوههم إلى مكان آخر؛

أقول هذا: لأني أرى الخوف والقلق من جميع الأشياء التي كانت يوما مَؤْمَنًا للنفوس من قســـوة هذا الواقع الذي لم يعد يخضـــع لشـــيء، مع أن كل شـــيء زاد عن حده ولم ينعكس ذلك على حياتنا بل حوَّلها إلى جحيم لا يطاق!.

-وعن موضوع ذلك الحب، والذي رسمه صاحبها، فهو لم يأت من فراغ وإنما هو نتيجة لكثير من التراكمات، تلك التي ربط بعض عوالم حياته بها، فكانت تارة تُزين له دنياه، بأن الأمان قد يكون على شـــكل فتاة يمكن أن تحفظ له حياته، من الـــذي قد يكدر صَفْوَ تلك الحياة التي لم يتاونى يوما في رســـم تلك الملامح التي تزينها عن غيرها فكان يرى من الكل مثل طوق نجاة له من ذلك الخذلان المتكرر الذي لقيه في أكثر من مرة وفي أكثر من صديق وربما تجد هناك أخا يقوم مقام صـــديق! لكنه لا يهم؛ ولو أنك دققت أكثر لوجدْتَ من تلك الثلة " فتاة كانت بمثابة الدنيا له" بعبارة أخرى، قد تكون أدق وقد تكون أســـهل عليه هو؛ وكان يحاول رسمها، والتفيكر كثيرا من شدة الشوق الذي حل به، بعدما تلقى تلك الصـــدمة؛ التي وصـــلت له عن

طريق أقرب الناس إليه، أو أقربهم على قلبه لأنه قد كان - من قبل- يقيس معدل حياته على نبضـــات ذلك القلب، والذي نادرا ما ينبض لعابري السـبيل وكثير هم؛ وقد كانت تلك التي كان يُمني النفس أن يمضـي الذي تبقى من العمر بالقرب منها، أو معها؛ فقد كان يرى الحياة من تلك النافذة الضيــقة؛ ولكنه حينما لقيَ منها ما يسوءه، في تلك اللحظة بالذات، لم يتبقى منه شـيء فقد تشـتَّتَ تفكيره وأصـبح هو ضــائعا، لا يَلْوِي على شــيء؛ ليس لأنه لم يحدث أن فعل شيئا، وإنما لأنه وضع كـــل بيضه في سلة واحدة، "هكذا الذي انتهى بهم المطاف، حيث لم يتوقعوا أن ينتهي بهم" أولئـــك الذين عَقَـــدُوا آمال حياتهم على لحظات عابرة، وهي لحظات كانت تمدهم بالنشوة التي كانت تضاهي لذة مكتملة الأركان والتي كانت وكما الشـــيطان يزين للناس أعمالهم، فكانت هي الأخرى تســجن الواحد منهم في قبوٍ صـغير لايكاد يتسـع لأكثر من شـخصـين أو قلبين على أقل تقدير؛ وهذا التقدير الأخير، لم يأت من فراغ، وإنما نتاج لأشياءَ كثر -لا حصر لها- في ذلك العالم، المنـــهمك في

إحصاء أنفاس أهله، في ذلك العالم الذي لا يدع صغيرة، أو كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرا؛ ولا يظلم الواقع أحدا، أيًّا كان لأن الواحد حينما يسير في هذا الواقع فإنه نادرًا مايجد إلا نفسه، وشخصيته تلك التي اعتادَ أن يُخفيها عن النـــاس؛ وهل يخفى الإنسان على نفسه؟ كلا! لأن هذا الإنســـــان يمكنه أن يخدع الجميع، ولكنه قَلَّما يخدع نفسه؛ لذا فإنك نادرا ما تتفاجأ حينما تجد نتيجة لك في مسابقة ما! أو حينما تجد معاملة حسنة من شخص ما! أو حينما تجد -أيضا- أشياء قد تسوءُك من شخص ما! ونادرا ما تتفاجأ والسبب ربما يكون تلك النتيجة النهائية تلك التي علمت من قبلُ، من قِبَلِ عقلك الباطن وهو ذلك العقل الذي يجمع لك الكثير من الملاحظات في قالبٍ واحد في مكان معين، من بين تلك الخلايا الكثيرة في دماغك تلك غالبا ما تخزن في النتائج النهائية للكثير من تلك الأحداث التي قد تطرأ على حياتك الشخصية، أو حتى تلك التي كان يغلفها الغموض أو شيء من ذلك الذي غالبا ما قد يشغل أحدنا وينصب هو وتفكيره وينهمك

لانشـــغاله بذلك البال للواحد منا؛ وقد تكون تلك حوادث عَرَضِـيَةٌ، لأنها وغالبا هي كذلك، ولكن هذه الأشـياء قد لا تهمنا، لأننا بالأســاس ليس هناك شــيء يهمنا بالمرة، لأننا ســبق وأن شَــبِعْنَا اِهتماما، للكثير من الأشــياء والتي قد تمسكنا بها من قبل، وقد تم وضعها في قالب معين.

ولأننا لم نجد ما كنا نبحث عنه. -فإن حياتنا وللأسـف قد تنقلـــب رأسـا على عقب؛ لأنها لم تجد ما كانت تبحث عنه، في الشخص الذي تصورت عنه، وأنه قد يملأ كل تلك الفراغات التي أَحْدَثَهَا هذا العالم الكئيب وهو ذا العالم الذي لم نعد نأمن إحدى جوانبه، لأننـــا كنا في كل وقت نكتشــف فيه خللا جديدا، نادرا ما يقوم عليه ذا بال، أو معنًى والمعاني كثر في دنيانا الفانية، ولكننا قلَّما نختار منها سوى الذي يُوافق هوَى الواحد منا، لذلك فإنك قد تلمح -اختلافات متفرقة- في نفوس متشابهة، لأن ذلك التشـابه لم يُفْضِـي إلى سـبيل قد يترجم إلى فضـيلة يباركها الجميع ويعترف بها ربما تكون هذه الأخيرة وهي ما نبحث عنه بنهاية الطريق، كنا قد اعتدنا الذهاب فيها وكنا من قبل

نلتقي فيه بالذي نفضل من بين جميع الخيارات المتاحة لنا وعن الذي متاح لنا فهو كثير لكننا غالبا ما نغض الطرف عنه، لأننا بذلك الاختلاف الذي قد وَهَبَ الله البعض منا، قد نسموا به إلى مراتبَ عُليَا، ويسعى البعض جاهدا ليدرك بعضا من ذلك؛ الذي أحاول -أنا تَقَمُّصَهُ- عن طريق هذه الثرثرة التي صاحبها كمن يلوكُ عظما، لا ريح له ولا طعم؛ ولكن هو مُجْبَرٌ بطريقة أو بأخرى على الاستمرار بهذا النهج علَّه يرده إلى رشده أو يهديه إلى سبيل؛ وصاحبنا يبحث عن سبيل يمكن أن يأمن نفسَه به لأن الكثير من سبله تقطعت به، ولم ترده لا إلى رشده أو إلى سبل، ومسكين هو الذي يبحث عن سبيل في زمن الضياع.

إن أصعب مطاردة قد تُفْرَض على الإنسان؛ هي مطاردة تلك الأحلام التي يَرْغَب يوما لأن تكون جزءً من ذلك الواقع الذي وُلد فيه، وهو ذلك الواقع الذي يبدوا من اسمه كل شيء فيه مستحيل حتى هذا الأخير "الأحلام" ربما لم يكن هذا الحلم الذي تلجأ إليه نفوسنا ليس إلا يئسا وهروبا من الواقع ونحن قد نتغلب على الواقع لفترة

من الزمن، حينما نلجأ إليها عبر الأحلام، لأن السفر هناك لا حد له، ولا توجد هناك شروط، قد تفرق بين الأسفار هناك! أو شيء كهذا.

-وقد كان من بين تلك "الأحلام" والتي سعيت يوما، لتتحقق فلم يكن متاح لنا سوى الحلم وكنت كمن يملك قلم الرصاص وهو ذلك القلم، الذي بإمكانه استبدال فيه أي الحروف شِئْتَ وأي الكلام شئت؛ لأن صاحبه لديه متسع من الوقت، ويملك مجموعة من الخيارات لا حصرَ لها، ويمكنه أن يضع أي خيار يصلح له في المكان الذي يريد هو، لا كما يريد غيره؛ وغيره هذا هو ذلك "الواقع-القدر" الذي يجبرنا بأن نمضي مكرهين على تلك الأخطاء التي ارتكبت عن سبق تعمد أو إصرار مهما يكن ذلك السبق، أو الإصرار، فإنه أسوء شيء فيه، هو أنه لن يمنح الواحد منا فرصة أخرى للنظر إلى الوراء قليلا؛ لعله أن يفكر في تصحيح ذلك الخطأ الذي اقترفه أو حتى يجد خطأ آخر لعله أفضل منه أو شيء من ذلك القبيل الذي -دائما- نرى أنه هو الذي يدفعنا نحو تلك

الخطا وبعبارة أخرى لعلها تكون أكثر مفردات؛ إن الإنسان مخلوق ضعيف، ولهذا السبب فكلما وقع في مأزق فإنه لا بد له أن يسند ذلك إلى قوة خفية لأنها تعمل ضده؛ ولهذا السبب فإن الشيطان هو المتهم الأول، لكل تلك الأخطاء التي نقع فيها، ولكي أثبتَ لك ضعفنا؛ هو أننا لا يمكن بأي حال من حال من الأحوال أن يعترف أحدنا بشيء قد ارتكبه إذا كان خطأ.

-ربما لم يكن هذا الذي مضى، ليس إلا كلام المُفْلِسِين؛ أولئك الذين نادرا ما يكون عندهم فائض من العبارات؛ وفي قالب واحد كبير، لذلك فإنك حينما تكون من الذين يقرأون، وتقرأ فإنك ستدرك أنهم لم يريدوا لأنفسهم أن يأسرهم اليأس ذلك الذي ما إن يصلَ بعضه لنفسٍ وأي نفس كانت! ربما لأنه حين يتسلل للنفوس فإنه يقضي على كل ذلك الشغف وحتى ذلك الإصرار الذي فيها؛ ذلك الذي فضَّلها نسبيا على غيرها، ودون أن يعطي فرصة أخرى لأي شخص لأن يُزاحمه في مكان ما!! من هذه الأرض قد شاء الله له بأن يملأه، من دون أن يعطي

أدنى فرصة لأي شخص قد يكون ندا في ذلك العـــمل، أو ربما حتى في تلك المكانة، والتي لا شك أنه قد كسب في قلب ما أحبَّ؛ وكثيرٌ ما أحبَّ، لربما لأنه كان على صاحبنا في الأصـــل أن يحب نفسه؛ وحتى هذه لم يقدرْ عليها لأنه كان في جميع المرات التي يفرض شـيء اسـمه الحب، أو أن يصـــادفه بطريق ما! فإنه كان يقف بُرهة، ويقف وقفة المتأمل، ذلك الذي سبق له بأن مضى به الزمن وأمضى هو جلُّ عمره، يلتقط أشـياء لا حصـرَ لها، وفي سُـبل لا فائدة منها، ولا يمكن أن تهديه لســبيل كان قد تعمَّد الوصـــول إليه، لمجرد أنه رأى الذين وصلوا إليه.

كنت أقول هذا، لأن هذا الإنســـان لا بد له من أن يعرف عدوه قبل أن يختار صـــديقه، لأن العدو هو المرآة التي ترسم هدفنا في كل مكان، ولكل اتجاه؛ وقديـما قالوا اعرف نفســـك، تعرف عدوك، هذا القولُ ليس كما بينتُ لكم ربما لأنه قد يكون أشـــد شـــراســـة في أماكن أخرى، وكـذلـك قـد يكون أكثر نعومة بمكـان أُخَرْ لا نعرف عنهـا شـــيئا، ومهما يكن فإننا يجب ألا نكتفي بأي نوع من أنواع

المعرفة، لا تلك التي تـــعرفنا بأعدائنا، ولا حتى التي تميز لنا أصدقائنا؛ معنى هذا لا شيء! ولا أعرف المـبـرر الذي قد يبرر هذه الأخيرة، ربما لأني اكتفيتُ تبريرا، كما أني شبعتُ من قبلُ من شيءٍ آخر لم أعد أذكره-الآن-لأنني لم أَزُرْ هذا المكان منذ زمن بعيد ولن أقول هذه المرة هاتفي؛ لأنه لا يفارقني بتاتا، ولكنه اقتصـــر في الأيام الأخيرة على تطبيقات ثانوية لا فائدة منها، ولم يحدث أن أَوَيْتُ إلى مكاني والذي ينتمي لي، وأنتمي له من كل تلك الخيارات الأخرى، والتي لا حصر لها؛ ولكني لم أجد غضاضة في ذلك الإعراض، الذي قد انتابني فترة من الزمن ليســـت بالقصيرة لأني في ذلك الوقت

كنت أحاول شحـــن نفسي بالكثير من العـــبارات، وأحاول قدر المســـتطاع، جلب معي في المرات القادمة بعض الأفكار تكون جديدة، لأني سئمت نيابة عنكم، وعن نفسي، من ذلك الفراغ الذي أحدثه هذا الذي مضى! دون فائدة تذكر.

ولكني هذه المرة جلبتُ أشياء كثر؛ وكثر هذه، دائما ما تكون على لساني لأني بها أُجمِّلُ الأشياء التي تخصني، وحتى هذا الذي بين يدي الآن، هو من ضمنه؛ وأتمنى لو تدعوا خاطري هذه المرة، يفضفض لكم بعضَ ما فيه؛ مع أنه لم يتبقَّ كثيرا فيه وليس معنى هذا أنه سبق وأن ساق لكم كل ما فيها ربما لم يكن يملك في الأصل شيئا، ولكنه ملك أشياء وكان يتغنى بها قدر المستطاع في الأماكن التي تخصه، وقد تجد الطرق التي تعوَّد السير فيه، أو بعض الأماكن التي ألفها، وحتى تلك التي ألفَ بعض أهلها؛ وأهلها هي التي كان يبحث عنها، وربما اختار أن يترك انطباعا له في كل مكان يزوره وفي كل زقاق يعبره، وشيء من هذا، وذلك؛ ولو أنك جمعت شيئا من الذي سبق، لفهمتَ قصدي، أو لا حظتَ شيئا مما أقصد؛ ولكن شيئا من هذا لا يهم!؛ لأني لم أعد أهتم بشيء من هذا، وبالأساس تلك التي تعوَّد هو أن يجد فيها بعض الأحبة عنده.

-ونيابة عني وعنكم هذه المرة، أتمنى لو أجد رجلا رشيدا قد يفسر لي لماذا كلما صادفتني كلمة حب! توقفت كثيرا عندها لعلها تردني إلى رشدي، أو تهديني إلى سبيل؛ إن الجـــــواب قد لا يكون عندي هذه المرة، لأني اطلبه منكم. -لأن الحب ليس إلا وهْمٌ، ولكنه وهْمٌ مريح، وهو من الأوهام التي تُجَمِّلُ حياتنا وتضـــيف لها ألوان أخرى أكثر نضارة، وأشد وضوحا وهذا عندنا نحن-لوحدنا-لأننا الوحيدين الذين نحس ونشـــعر بذلك وغيرنا لا يدرك منه شيئا بل إن هناك بعض يراه مجرد أحداث عابرة لا إحساس فيها ولا مشاعر؛ وهذا الأخير شيء لا يحس، ولا يشعر به ســوى صــاحبه، لأنه هو وحده من يكَابد تلك اللوعة التي تنتابه وذلك الشوق الذي يؤرقه؛ لكني لا ألوم أحدا، وعلى الســـواء ســـواء الذين أحبوا، أو الذين ظنوا أن هذا الحب مجرد مرتب إضــافي، وقد يغير شــيئا أو يحدث شــيئا في تلك المعادلة، أو يغير شــيئا من الفارق؛ ولكنه مع كل هذا فهو أفضــل مكســب يمكن أن يكســبه الواحد منا في حياة لابد له أن يجد فيها الكثير من اليأس والحســـرة وقد تجد

هنا شيء من الندم ولا شك هوَ كثير ومن يهتم لا أحد يهتم ربما لأن الواقع البائس قد أجبرنا على الإعراضِ عن أشياء كثر، لا حصر لها؛ ولكننا كان يجب علينا من الأساس أن نندفع نحو هذا الحب، وبدلا أن يأخذنا، يجب أن نأخذه - نحن- ونلتقطه، وَنُهَيِّئُ له الأرضية المناسبة له لينمُوا، ويستمر، فهو شأنه كما هو شأن الأشياء الأخرى، ما إنْ تجدَ أرضيةً مناسبة لها، حتى تنمُوا وينعكس ذلك على تلك النفوس العابسة، التي عكَّر هذا الواقع مزاجها؛ لأنه أجبرها على الكثير من الأشياء، التي كان يفترض أنها أشياء ثانوية؛ لاغيةً، لا غير!.

-لأن هذا الحب؛ هو الفلتر الذي يُجَمِّل الحياة، ويجعلها شيئا مقبولا، يستحق علينا بذل قصارى جهدنا لنحافظ عليه، ربما تكون هذه العبارات الأخيرة، والغير عابرة، وعبارات فقيرة لا روح فيها، ولا عاطفة؛ ولربما يرجع السبب وراء هذا الإصرار هو أنني وضعت أمامي هدف معين، لن يكون هذا الهدف بما يحمل هذا الكتاب من معنى لأني لا أبحث عن معنى بقدر ما أريد إفراغ هذه

الرغبة التي تنتابني؛ بأني كان لزامـــا علي، أن أترك خلفي شـــيئا يذكر؛ وإن لم تكن هناك أشـــياءٌ على الأقل أن أترك شـــيئا واحد يذكر الناس بي، إن هُمْ عَدَموا أخباري أَوَهُم تناســوني، لكن ســأظل أذكر الناس بي، إن لم يكن بكتاب يملك معانٍ فيه على الأقل يجب ترك كتاب وأي كان! لأن كل الذين مرَّ عليهم التاريخ لو لم يحملوا إلينا في بطون الكتب؛ لضـــــاع خبرهم بين الناس، لأن الإنســان ولكن ضعفه ذلك! كان يحمل معه ذاكرة قوية، يمكن أن تنتــشله من أي مـأزق يقع فيـه، لأن توفر لـه الجواب في تلـك المســألة، التي شــغلت باله، أو التي لا شــك أنها أثقلتْ كاهله، حتى وهن عظمه ذلك العظم المنْحني الذي يظهر جليا، في كل وقفة تأمل، أو في كل هرولة وشــيء من هذا وذلك، حينما تخلطه فإن لا شك ستجد شيئا، وإن لم يكن ذا بال، فعلى الأقل ذا معنى؛ والحقيقـــة أنه لا بد أن تجد أحدهما إن لم يكونا معا!.

-إن أكثر شيئا يحزنني، هو أن يعيش هذا الإنســان، والذي قد يكون أنا، أو أنتَ، أو أنتِ عمرا طويلا، لم يترك

فيها ذكرى قد تذكر الناس به لا أصـــدق كيف يمكن أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون من المنسين هو ما دام حيا كان يذكر بعض الموات الذين لم يرضَـــوْ لأنفســـهم أن يكونوا من المنسيين، بأن يســـــدل عليهم الستار، وإنما العكس بقوْ صامدين في وجه الصعوبات وقد كانت أمواج اليأس تتلقفهم حيث ما وَلَّوْ وجوههم، لكن وقفوا صامدين في وجه هذه الرياح العاتية، والتـــي لم تتـــرك إلا من كان يتكئ على أشياء كثر لا حد له، ولا بد له من بأس شديد، لأن يشـتد به عوده، إن عاودتْ تلـــــك الرياح العاتية، أن ترجع له مرة أخرى، وتعيد الكرَّة من جديد.

-ولكنك ياصـــاحبي؛ في بعض الأوقات يمكن أن تفرض عليك خيارات لا ثالث لهما، وأحلاها مرٌّ، ولكنك مجبر على الاختيار وحتى لو أعرضـــتَ عن الاختيار فإنك إعراضـــك ذلك خيار، قد تدفع ثمنه مســـتقبلا، وعلى كل حال فإن أي اختيار نختاره، لا بد أن ندفع ثمنه، ولكننا قد ندفع ثمنه على شـــكل أقســـاط كثر لا حدَّ لها، ونحن في سبيل ذلك الدفع، أو ذلك الثمـــن، فنحـــن ندفع فيه الكثير

منه صحتنا، ومنه وقتنا، والكثير منه -أيضا- حسرة وهي حسرات نادرا ما تنفرج لأن صاحبها قد يأس من كل شيء وقد صغرتْ في عينيه كل الحلول، وهي نفس تلك الأعين التي يرى بها-من قبلُ-كل زاوية من زوايا هذه الحياة العكرة، هذه الحياة التي ما إن تَصْفُو لصاحبها حتى ترجع له أشد وطأة، وأكثر بؤسا من قبل، وهو نادرا ما يملك حلا، لهذا وفي أكثر الأوقات يكون قد اكتفى، فتتحول حياته لمبالاة لا تفسير لها، وليس لها ما يبررها، ولكنه يمضي في سبيل تلك المبالاة لأنها ليست إلا ظله التعس والذي تخلى عنه فترة من الزمن حينما شعر بأنه وجد نورا، أو بصيص أمل، والنور كما الأمل موجود ولكن من يلتقطه أو أين نحن من تلك الحواس التي قد تلتقطه هنا لا جواب لأن الجواب يختلف من شخص لشخص آخر لذلك فإنه على الكل أن يبحث عن ذلك النور أو الأمل الذي يشع من داخله، لأن الكتاب ليسوا إلا مدربين همُّ الواحد منهم هو تشخيص المشكلة، ليعطيها أكثر من حل، أو أن تجد أكثر من وجهة نظر! وفي الأخير، لا أنا ذلك

الطبيـــب، الذي قد يشخص ذلك المرض، ولا أنا الكاتب الذي يعرض من تلك الوجهاتِ النظرِ شـــيئا؛ أنا أضـــحك لأني وجدت مكاني بين هذين الشـــيئن المختلفين الطب والكتابة ولكن قد وجدت من الطب شـيئا مسـتحيلا لكثرة تعقد تلك المســألة، والتي حتما لا بد من شـــخص يملك النفسَ الطويل، ولا عجلة فيه، ولا شـــيء من ذلك، وإنما تجد فيه حرصا، على أن يدقق في التفاصـــيل الصغيرة ولا يدع شاردة ولا واردة، إلا فتـــش خلفها، لأن يجد تفصيلا صـغيرا يمكن أن يهديه إلى الشـيء الذي يَعْتَمِلُ بقـــــلب مريضـه؛ وأما الكتابة فحدث ولا حرج، لأن صـــــاحبها لا يحتاج ســـوى لقلم وكرَّاس أبيض؛ ولو توفرت له هاتين لأبدع ويمكن ألَّا يقتصـــر ذلك الإبداع على ذلك الكرَّاس لوحده، على العكس ســينتقل إلى كل الحاضــرين بالقرب منه وحتى أولئك الذين لا أنهم ســيقرا الواحد منهم شــيئا من تلـك العبرات، ولكن اخترت الكتـابـة لأني أرى فيهـا حرية لا حدَّ لها، والحروف واحدة، لكن الإبداع هو مربط الفرس كما يقول بعضـــهم؛ لأن الهدف المراد من الكتابة

ليس العبث بتلك الأوراق البِيـــض، ولا حتى سفك ذلك الحبر الثمين الهدف منها هو الإبداع بأن تُنْتِجَ للناس فنًّا ويبقى ذلك الفن يذكر الناسَ فيك، إن المسألة كلها ليست إلا! مساومة يهدف الكتاب عن طريقها لأن يحفظ اسمـــه بصـــفحة الخالدة أســـمائهم بعد موتهم والحقيقة أن الذين تركوا خلفهم ذكرى حسـنة، في قلوب من أحبُّواْ لم يموتوا بالأساس، وإنـــمـــا الموت يقتصر على الذين لم يتركوا خلفهم شـــيئا وحينما همُّو بالذهاب لم يكن الواحد منهم يلوي على شـــيء؛ ولكنه حتما لا بد أن يكون هناك شـــيء حمله معه إلى قبره ولكن ما هو ذلك الشـــيء فقد كان بالإمكان القولَ بأنه لا يعنينا ولكنه يعنينا إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ وهذه الأخيرة قد تكون أكثر شمولية لأنه ما دام الذي حَيِيَ يذكر ذكرى غيرِه، وَلِمَ لا يَبقى شـــيء في قلبه، أم أن نفسه أصابها ذلك الوهنُ والسكون ربما لم يكن ذلك الذي أصابه ليس إلا يأس من هذا الواقع، والذي لأن يجَمِّلَ نفسه لنا، وقليل هم الذين يسلموا منه.

-حينما جئت أو جئنا كلنا لم نكن نحمل معنا شيئا بالمرة لكننا حينما واجهنا هذا الواقع والذي لا يقبل الضعفاء ولا المغفلين حينها في تلك اللحظة بالذات لم أرضَ لنفسي أن أكون ممن يوارى عليهم التراب ليمضي بهم الزمن في خبرٍ كان يفترض ألَّا يكون خبر كان! لعلكم الآن فهمتم قصدي، وعلى الأقل هو قد اتضح لي، أنا الذي كنت أجدف في عرض البحر الذي أرى أمواجه تتلقف الركاب، وقليل من يملك مأوى وقليل من يرى تلك القلاع التي يمكن أن يرسو عليه ذلك القارب الصغير في عينيه هو، والكبير في أعين بعض الناس، بعضٌ مما أحب!!. وإن قلُّوا لكن حب الناس للناس يشعرهم، ويمدهم بالطاقات المضاعفة وهي تلك الطاقة التي يبحث عنها الجميع والقليل هو من يهتدي إليها ويعرف مكنونها، ويفك بعض من الألغاز التي تغمرها؛ ولكن هذا قد لا يهم ربما لأنه هناك بيننا شخص ما! خلَّد ذكرى لنفسه ربما لم يرض أن يكون ممن يسدل ذلك الستار الذين يرتديه المنسين لم يرض لأن يكون لنفسه منه حظ وأراه جاء قديما وكان من

أوائل المعمرين لعلــك الآن قد اهتديت إليه أو على الأقل بدأت في التساؤل مادامـــت ذكرى قديمة وصاحبها كذلك من أوائل المعمرين كان من المفـــــترض أن تكون على اطلاع بهذا الحدث، أو علـــى الأقل يكون عندك شيء عنه ولو كـان يســـير ولكن أن تقف هكـذا لا ذكرى لـك، ولا ذكرى لغيرك في تلك الذاكرة، والتي أراها تلقي بالـــلـــوم عليك وأحســـبها تقول: أضـــاعوني؛ وأي ذاكرة أضـــاع صـاحبي، ربما قد تكون هذه الحادثة الصـغيرة الأخرى قد حركت شـيئا بداخلك لا أعلم أين هو ولا حتى مكانه لكنه موجود! وحتى لو لم تك تعرف مكانه؛ لكني كلما سـمعت صوتك لاحظتُ ذلك، في ذلك الصوت الذي تعودت على سـماعه حتى أضـحى عندي كالبيت الشـعري الذي حفظته في أول نظـم قرأته، من الكتاب، والذي كان من فضلِهِ عليَّ أن يدلني على ذلك الورق الناعم، لأنه هو يشـــبه الحرير ولكنه ليس بالحرير لأنه أنـعَـمُ منه، وأكثر فائدة أما الحرير فهو لباس البســطاء، أولئــك الذين لم يكلف الواحد منهم

نفسه شيئا، لا مجد ولا ذكرى ولا نيشان؛ ولا شيء فقد اختاروا بالعَمْدِ أن يكونوا من المنسيين.

-وتلك الذكرى لا شك يذكرها أشخاص كثر، وكل واحد منهم يذكرها بالطريق التي أحبَّ هو، أو على الأقل بالطريقة التي وصلته هو وهذا ما أراه صائبا لأن تشابه القصص والذكريات يدل على أن هناك تشابه ما! لا أكثر بين رواة الحادثة، والتي وقعت في مكان معين! ولكن حتى هذا الأخير لم يسلم حتى من التحريف وقد أصابه ذلك الخلل والذي يصيب الكثير من الأحداث التي حدثت معنا في هذه الفانية هذه التي نادرا ما تسدل الستار إلا لمن رضيه لنفسه، للذي رضى لنفسه الخنوع والخضوع، والذي ليس له ما يبرره؛ وأيًّا ما يكن فإن صاحب تلك الحادثة التي خلد بها صاحب لنا آخر ذكرى له، في تلك القائمة التي لا تفرط في أهلها بل العكس تحفظ لهم ذكريات كثر لا شك هم! أقاموا لها صرحا ممردا وصرح عصيٌّ على أن يسقط في أول هزة أرضية قد تحدث بجانبه، على الكل

فهو يبقى ثابتا وشـامخا؛ مهما عصـفتِ الرياح به وحتى لو اختلف رواة تلك الحادثة التي تربط البعض به.

لعلي -الآن- أكون قد أنْهَكْتُ نفسي في سبيلٍ غيرُ سبيلِي، أو في رواية قد لا تَخُصُّنِي بالمرة وبذلت مفرداتي التي هي كل ما أملك لِقِـلَّتِـها، إلا أني لا زلت أحسـب نفسـي من أغنياء هذا الزمن هذا الزمن الذي لا يُقَاسُ مال أهله بعدد المفردات التي يملكُوا وحتى لو كان ذاك ذلك، فإني من المفلسين، والذين لا حول لهم ولا قوة، ولا حتى قدرة على المضي قدما، وفي أي سبيل كان!.

-لكن رواياتي كثر، وقصـصـي كثر، وتجاربي أكثر!؛ وحتى الآن لم أعرف أي واحـدة تمثلني حينمـا أبـدأ في اسـترجاع الشـريط الذي يحفظ لي كل تلك الأحداث، أو في ذلك الألبوم، وهو ما يحفظ لي جميع تلك الصـور ونادرا ما يساعدني على فهم كل ذكرى وترجمة كل حدث على الوجه الذي كان لذلك فإني كل ما حاولت الرجوع بي قليلا إلى مكان بعيد، حيث يمكنني أن أجد من يمكنه

أن يقص عليَّ شيئا من ذلك الشريط لكنه غير طويل، لا هو ممل، ولا هو قصير يُبقي شيئا في النفس بدون تفسير، والحقيقة كما هي -دائما- لا هذا ولا ذاك.

-كان لقصتي الأولى وروايتي الأكثر شُيوعا، تلك الرواية التي لم تجد بعد! الورقَ الذي يتكفل بها أو على الأقل تحمل بعضا من تلك المسؤولية والتي كنت ألقِيها على كتفي في كل مرة كنت أحاول فيها إلقاءَ أيَّ شيء، وحتى لو كان كلمة عابرة أو اقتباس من كتاب كان قد سَكَنَ في بالي فَبَقِيَ -بعضا- منه أو كله في ذاكرتي، أو حتى كلمة عابرة كنت قد أَوْدَعْتُها ببعض الأمكنة أو في زقاق، أو على مرآة سيارة، وأي سيارة كانت لا بد أنها شَبِعَتْ غُبارا من كثرة الانتظار لربما كانت تنتظر أحدا ربما يكون صاحبها؛ والذي تعَوَّدت منه أن يُوَارِي تلك السوءة والتي هي الغَبْرَةُ، تلك التي نادرا ما تخفي تلك النضارة، التي تظهر على الوجوه التي تعكس جمالها عليها أو على الأقل قد تُري صاحب ذلك الوجه بعضا من حقيقة صاحبه، لأن المرايا تعكس الوجه والذي يضمر كل شيء على

حقيقـــــته، لربما هذه أي -الحقيقة- هي المكســـب الذي كرَّس صـــاحبنا حياته لها ربما ليس صـــاحبنا هذا، ولكنه صاحبٌ لنا قد صَحِبَنَا من قبلُ بأكثرَ من مكان.

إن هذا الصـاحب الجديد والذي حتما لن يكون أنا؛ أنا أضـحك ربما لأني لم أضـحك من قبل، منذ زمن بعيد، وأنا منهمـــــك في كتابة شـيء لا يخصـني أو على الأقل يخصـني ولكن قد يكون بدرجة أقل، ليس شـيئا يسـتحق الكثير من الأهمية، أو الكثـير من الوقت، ذلك الذي دائما ما كنت أعطي منه أضعافا لجميع الأشياء التي لا عبرة لها، حتى وقـفت مرة أسأل نفسي؛ لماذا في كل مرة نقول شيئا، أو نكتب شـيئا يخرج عن السـياق ولا يجد شـخصـا يمكنه فهم منه شيئا أو يمكن أن يُأَوِّلَ منه شيئا على الأقل أو حتى يجد شـخصـا قد يشـفع له؛ لمجرد أن يُثْنِي عليه، أو حتى يقول عنه شـــيئا أيَّ شـــيء، أو على الأقل يعطيه بعض الأهمية، ولا ضـــير في أن يخصـــص له وقتا لقرائته، لعلَّه يفهم منه شيئا، أو يستنتج منه شيئا، وأي شيء كان؛ إلى أن وقفت مع نفســي -هذه المرة- وربما قد لا تكون نفســي،

عوضـــا عن قلمي، ذلك الـذي لم أفقتده يومـا من كثرة مُزَاحَمَته لي لم يحدث ولا لمرة لواحدة، أن بحثت عنه ولم أجده، وقد كانت تلك الكثرة، لقلتها لم تكن لتقدرني، لولا هو؛ فقد كانت تخافه ليس لأنه حاد مثل السـكين، ولا هو ليّنٌ مثل شِــفرة حِلاقة قد كان مزيجا أو خليطا بين هذا ولا ذاك، ولولا ذلك القلم، لكنت الآن من المنسيين أولئك الـذين تحـدثنـا عنهم أكثر من مرة. -لكن بمـا أنني على وشــك كَتْبِ الصــفحات الأخيرة من الكتاب الذي عكفتُ عليه؛ وعاهدت نفسـي على إكماله في أول ظرف وفي أول فرصـــة قد تُتَاحُ لي ولكن هذه الأخيرة لن تكون هنا متاحة لأنها تحتاج مني أن أَخْلُقَهَا، وَأَضَـــعُها على أرض الواقع حتى تكون شـيئا يمكن تطبيقه، أو أن يَخْلُق لي شـيئا، ما!! قد يســـاهم في خروج هذا الكتاب بأن يجد النور ويخرج من ذاك النفق والذي كان صـــدري أولا ومن النفق الثاني ذلك الموحش والذي هو مذكرة هاتفي تلك التي أودعتها كل الأشياء والتي تخصني والتي -أيضـا- نادرا ما يطـــلع عليها أحدا، ومهما يكـــن ذلك الشخص، أو ذلك المكان،

ربما لأن البعض كان يَعْـــمَدُ إلى كتب بعض الأسرار التي تخصـــه على ســـطح جدار، أو مكان ما آخر لا أعلم عنه شـيئا، ولكنه يعني الكثير لصـاحبه، والذي هو ليس دوما.- أنا- لأننا وكلنا وكل واحد منا، يحـمل في ذاكـرتـه الكثير من الأسـرار التي تخصـه، وقد تخص -أيضـا- غيره، ربما لأن الواحد منا نادرا ما ينشـغل بغيره وقد يقوده الفضـول إلى ذلك؛ ليس لشـيء، وإنما لأن كل واحد منا، قد ضـاق ذرعًـا بكـل مـا يخصـــه، وعلى الأغلـب هو لم يهتم من الأســاس بِمَكْمَنِ تلك المســألة أو ســبب تلك اللامبالاة والتي أصـــبحت حياته، إلى أن صـــارت تهتم بكل شـــيء باستثناء نفسه لأنها نفسٌ سولت لهذا حياته.

-ومرة أخرى في الكتابة من دون قصـد، لأنني نادرا ما أكتب!! وحينما أكتب فإني لا أنقش على ذلك الورق ســـوى القليل من تلك الكلمات، والتي لو أنك -الآن- قمت بإحصـاء كل الكلـمات التي هنا؛ صدقنِـي! لأن كل الكلمـات التي هنـا، لا تعـدُوا الخلط بين "لكن، وحتى، وهنا، وربما، ولأن، ولهذا السبب، ولِمَ، ولولا ومع أن هذا

وقد تجد هنا -ربما- مرة يسبقها اللام حتى تكون لربما، وهذه الأخيرة قد تجد منها شيئا هنا، لأني حينما بدأت الكتابة هنا، لم أستغنِ عن شيء، وحتى الأخطاء الإملائية لم أستغن عنها لأني نادرا ما تركت هنا بعض الأخطاء لكثرها إلا أني لم أستطع التغلب عليها -كلها- قد تركت البعض منها هنا؛ولم تكن تلك الأخطاء! إلا بمثابة كبش فداءٍ، لأولئك الذين لم يجدوا هنا ما يسرهم، وعلى الأقل ما كان الواحد منهم يُمَنِّي النفس بأن يجد أمامه ما كان يتوقع مني، أو على الأقل الذي كان يتوقع من عنوان هذا الكتاب، والذي حمل معه، أكثر من عنوان، وإلى هذه اللحظة لم أغير هذا العنوان والذي أسميته -بعض قصصنا المنسية- هذا العنوان إلى هذه اللحظة لا يزال هو العنوان الرئيسي لهذا الكتاب، والذي يمكنني القول: أنه لا يحمل قصة واحدة، وإنما مجموعة من القصص ولكن واحدة منها لم تكتمل! وهذه الأخيرة ربما تكون بتعمد، لأني أرى أني كنتُ عن طريقها أستدرج بها القارئ لعلَّها تُفلِحُ معي فقد كان لكُتَّابٍ سبق وأن قرأت لهم هذا النهج في الكتابة

وهو أنهم لا يتركوا للقارئ الفرصة في غلق أي صفحة حتى يكون هو قد نوى على قراءة الصفحة الأخرى أو على الأقل يكون قد قَلَبَ الأخرى، وحتى لو كان ذلك بداعي الفضول، والمهم أو الأهم هو أن يقلبوا الصفحة الموالية لعلها تشدهم، وتمدهم بنشوة، كنت قد فشلت في إلقائها، ربما لأني لم أُرِدْ أن يكون لي، في هذا الكتاب شريك لأني أردته أن يكون خالصا لي، حتى ذلك الشخص الذي نادرا أو دائما ما أطلعه على الأشياء التي كنت أكتب -من قبل- قبلَ هذا، ذلك ولكنني في هذه المرة، اخترت شخصا غير مألوف لأني أريد منه أن يكون حجر رشيد حتى ينتشل ما أمكن من تلك الزلات على كثرتها، والتي لا أنكر هنا شيئا منها ولكنني وكما هو عمل ابن آدم فإنه قلَّما يكون أكثر توجُّها للخطإ على غرار الصواب ولكني اخترت هذه المرة أن أكون صريحا معكم، لأني لا أعلم لحد الآن شيئا عن النقد ولا أعرف من الذي يصنف الكتب، ويؤلفها في هذا الصدد، ولكن ماأعرفه حقاهو أن كل الأشياء الموجودة هنا وهناك نسبية لا تقاس بمقياس واحد، لأن الجمال، يصنفه

الواحد على مزاجه لا يوجد هناك معيار يتفق عليه الجميع والجميع هذا نادرا ما يكون على خطأ، لذلك فإني لا أُلامُ على تلك الوحدة والتي لا يُنْكرها عليَّ أحد إنما أنكرها على نفسي، وأستغرب من كوني كثير الصَّحب وكثير المعارف ولكني وحيد، سوى من الأثقال التي أحمل على عاتقي ومرة أضعها على كتفي، إذن لا بد أنه سَئِمَ من بعض تلك الأحمال، وضاق بها ذرعا، كما ضاق غيره بها، لكني لا أهتم! وهذه الأخيرة لم تجد مكانا بين جميع تلك الكلمات السابقة تلك التي تركتها في مكان واحد! يضمها في قالبٍ واحد ولكنه متفرع من عدة فروع أو أعمدة وشيء من هذا القبيل، وهذه -أيضا- لم تجد مكانا، بين كل ما سبق! ربما كان شأنها كما هو شأن كلما سبق، قد نسيت عنها، كما أنني لا بد نسيت أشياء أخرى كثر، أو أنني تعمدتُ نسيانها لأن تكون لي تذكير بذلك الذي سبق، ليس لشيء سوى أنني كما قلت: أنني كنت أحاول بكل ذلك استدراج ذلك القارئ، الذي لا أراهُ قد يصبر حتى الوصول إلى هذه الفقرة علَّها تسد له بعضامن تلك النشوة،

أو شيء يسير من ذلك الرمق، وحتى -الآن- لم أغلق هذه الأخيرة التي فتحت فيها المجال، والتي قلت فيها أشـــياء كثر وهي ليســـت إلا اعتراف مني لقارئ ما! قد لا يُضَـــيّع مثل هـذه الفرصـــة، طـالمـا أن كـل قـارئ يتمنى لو يجد اعتـراف من كاتبه المفضل -أنا أضحك- لأني قارئ نفسي المفضل، كما أنني -أيضا- كاتبُها المفـضل؛ لربما تكون -الآن- تتمنى لو أننـــــي أُحدِثُك مرة أخرى عن العنوان، أو عن العنوان الموالي، ولربما كنت -أيضـا- تتسـائل عن نوع الغلاف، أو فحْــوى الصورة التي لا أرى -الآن- تفسيرات لها، مع أنني الآن أملك أكثر من صـــورة في مكان واحد وكلها تعبر عن نفس المعنى عن شـــخص يقف على مقعدٍ في مكان مهجور إلا من ذاكرة صـــــاحبه، وهي تلك التي أَخَّرَتْهُ -يوما- عن الرَّكب، أو ركبٍ لاشك هو سيكون أول من يعتلي تلك المنصـة التي تصـنف أهله أو شـيء وخليطٌ من هذا وذاك لا تقاطعني -الآن- وأنت ترى تلك الفجوات التي قد أَحْدَثَها هذا الضـــجيج الذي حولي فأنا -الآن- أكتب لك بسـرعة لأني أخاف ألَّا تشـرق شـمس الغد وألا

أكون من أهله؛ لأنني لا أضمن لك سوى تردد صدى كلماتي التي كلما قلت: منها شيئا كان صوتي يَتَغَيَّر لكن شيئا من ذلك التَّغَيُّر الذي أصابني ولم يترك لي الفرصة بأن أَعْرِض عنك ولا لمرة واحدة وليس هذا لأني لا أعرف أين أذهب عنك! حين تواجهني ببعضٍ من ذلك الغدر، أو شيء من ذلك الغضب، الذي أصابك، وذلك الإرهاق، وأنت الآن يُخيل لك أنك عدت بخفيْ حُنَيْنٍ، وهما خُفَّيْنِ، قد تعودت -من قبل- على المضي بهما قدما، بهذه الفيافي، التي أخوضها مُكرها؛ وأتمنى لو تكن هذه الاعترافات الصغيرة، قد لَقِيَتْ آذانًا ضاغية لها وقلبًا متأنِّيًا عند كل حرف تمت قرائته لأجل أخذ كل العبر الموجودة هنا، مع قلتها.

-ربما كان من المفترض أن تكون هذه الفقرة عبارة عن خاتمة لكل ما سبق، لكن كما تعلم أو أعلم أنا نيابة عنك؛ لأني حينما همَمْت بالخوض في هذه المغامرة كنت طرفيْ المعادلة ومرة كنت فيها أنا، ومرة كنت فيها أنتَ؛ لذا فلا تتفاجأ كونك تجد هنا بعض الأحكام التي ركنت

نفسك لها، أو التي اخترتها من كل تلك الخيارات الأخرى لقلتها أو كثرتها ولكن لا يهم، المهم هو أنك لا بد أن تختار، ولذا فإني قد اخترت بعض الخيارات لك، أتمنى لو كانت كما كنت تتمنى، والحقيقة أنني لم اختر! لك شيئا، لأني لم أعرض خيارات حتى!. -حينما كتبتُ هذه الرواية، كنت أقصد فيها الكثير، وربما كان من ذلك الكثير هو ترك أثر خلفي؛ ومهما يكن ذلك الأثر، لكن لا ضير في ترك أي شيء مهما يكن ربما لأن الغلاف لم يعرف بعد! وكذلك العنوان لم يعرف بعد! وحتى أن الفكرة لم تعرف بعد!، والذي سبق لم يكن إلا تحصيل حاصل على الأقل ليس إلا اللعب بالكلمات على أوتار مختلفة وإيقاعات منخفضة قد لا يدركها إلا شديد اللحاظ هنا؛ أتمنى لو تدَّخِرُوا كل ملاحظة لكم وعلى كثرتها، إلى أن تصلوا إلى هذه الفقرة، والتي أظنها قد تعوض لكم الكثير مما سبق، خاصة أني؛ أنا شخصيا لا بد أني لاحظت الكثير لذلك، أظنك تسير على نفس الخُطا التي رسمت لك، وهذه المرة ليست بقلم من الحبر الجاف، وما هو إلا ذلك القلم الذي

دَوَّنْتُ فيه من قبل معظم الأحداث، والتي سبق وأن حدثت معي حينما هممت بهذه الفكرة، وربما تكون الأفكار هنا كثر وكذلك الأفكار كثر! وكثر هذه حتى كلماتها لا تكون إلا ضخمة، وكذلك حروفها، وقد كان من تلك الأهداف التي لم ألاحظها إلا مؤخرا، أن هذا الكتاب قد لا يكون مجرد كتاب وإنما حجر رشيد بالنسبة للبعض فهو ذلك البعض الذي كان يوما يحب أن يَكْتِبَ ولكن لايعرف من أين يبدأ أو حتى يعرف أين ينتهي به المطاف، أو كيف ستكون البداية التي لا بد له أن يبدأ بها، وقد لا تكون هذه الأسئلة -هي- التي تتبادر إلى البعض ممن يحلمون بأن يكتبوا شيئا ولو كان يسير ربما قد لا تكون هذه الأسئلة منظمة، لكن الإجابة هنا واحدة، لكل الأسئلة التي تتعلق بالكتابة.

-ربما لأن الكتابة مسألة تراكمية، ولا يمكن لك أن تجني ثمرة في وقت واحد، وبعبارة أخرى في نص واحد؛ وهو نص كان من المفترض أن يكون هو أول شيء تبدأ به، وقد يخيل لك أنه -أيضا- اي شيء يمكن أن تجني منه

ثمار الكتابة -مثلا- لا ليس كذلك، وإنما عليك الكتابة في كل وقت، وعن أي شيء؛ والذي يهمنا ليس مالذي تكتب، وإنما كيف تكتب؟ وهذه لها مالَها، لأنك طالما أنك إنسان لك بصمة خاصة بك، لا تشبه أي بصمة إنسان آخر؛ فإنك أيضا من هذا المنطق يجب أن يكون لك أسلوب خاص بك لا يشبه أي أسلوب آخر من الكتابة، قد لا تفهم ما أقصد أو ربما لم تفهمه ولكن على أية حال فإننا لا نستخدم حينما نَهُمُ بالكتابة إلا تلك الحرف الأبجدية، ولهذا فإنك تقرأ أكثر من كتاب، لكُتَّاب مختلفين؛ ولكن لا أحد منهم يشبه الآخر في استخدام تلك الأحرف التي تُزَيِّن أكثر الكتب أو كل الكتب، لأن الجمال الذي يُزين الكتب لا يباع في متجر ولا يعطي، إنما هو مجموعة من الإحساس المرهف ذلك الذي ليس إلا مجموعة من التراكمات المعرفية وربما التجارب تلك التي تصقل الإنسان وتخرج أجمل ما فيه.

-حينما يتعلق الأمر بالكتابة ليس هناك وصفة سحرية يمكنها أن تختصر لك الوقت والطريق فلو كان

ذلك لكان الكل كُتَّابٌ أو على الأقل يمكن أن يعبثوا بهذا الورق الأبيض، والذي أراه على بساطته، إلا أنه يعطي أهمية بالغة لكل ما يكتب عليه. ولكن السؤال يجب أن يكون دوما لِمَ نكتب؟ والجواب، نفس السؤال ولم لانكتب؛ ربما لأن الكتابة هي المهنة التي يفترض من الكل أن يتقنها لأننا لسنا في غنى عنها، لأنها تقرب لنا كل بعيد، وتسهل علينا الكثير ومن ذلك تواصلنا مع الآخرين عَلَّنَا نفهم كيف يفكروا، وكيف يمكننا التأقلم معهم، وأن نجد نحن الفرصة في التعبير عن ما داخلنا، أو دواخلنا كما يحلوا للغير قولها؛ وهذه دواخلنا لا يشق لها غبار، لأننا بالكتابة، نجد أكثر من فرصة للتعبير عن مكنون ما في داخلنا حتى لا تبقى تلك الأحلام والهواجس محبوسة في الداخل؛ كان لزاما علينا، أن نخرجها؛ لأن ترى النور، وتبقى لنا بعدَ موتنا، لأننا عبر الكتابة نستطيع التكلم بأكثر من لغة.

ربما حان الوقت؛ لقول أشياء أخرى كثر، لم تجد مكانا بالذي مضى من هذه المذكرة في تلك الفترات

السابقة؛ وكان يجدر بهذه المذكرة، أن تكون مذكرة اعتقال لمريض أصيب بداء لم يجد له الأطباء تفسير، ولم يجد شخصا يقف معه فيه، حتى لمجرد الاقتناع به أنه مصاب بداء يفتك بضحاياه في صمت مدقع في صمت ليس له مثيل، لكنه مع كل ذلك فإنه يحدث ضجيجا وأصواتا صاخبة، لكنها لا تتعدى نفس صاحبها، على الأقل أنه لا يشعر بها غيره ولا حتى يدركها، إلا في اللحظات الأخيرة من عمر ذلك الإنسان البائس والذي لم يجد -شخصا- أحدا قد يقف معه في محنته تلك التي لا يشعر بها غيره. ولكنه مضى مع الزمن، أو مضيت -أنا- ومع الزمن، ذلك الزمن الذي لا يقبل الضعفاء ذلك الزمن الذي لا رحمة في نفوس أيٍّ من أهله، ربما لأنهم خرجوا من مشكاة واحدة؛ وهي المشكاة التي كان من المفترض أن تنقذ الجنس البشري أو على الأقل أن تساهم في تقليل بعضٍ من تلك التبعات على كثرتها، فإنها تحرك أحدا، أو أن تبقى شيئا في نفسه وعجيب هو أمر هذه النفوس والتي كان من المفترض -أيضا- أن تكون نفوسا فيها كل معاني الإنسانية من

الرحمة، إلى كل تلك الأســس الفاضــلة الاخرى، وعلى كثرتها، فإني لم أذكر منها شيئا، ربما لأني كلما حدثتني بها أقول: "الأشــياء الأخرى" وهذه كلمات صــادقة، إلا أنها يمكن أن تحدث بعض الضــجيج في النفوس التي يمكنها أن تتلقى هذه الكلمات، أو على الأقل تتلقفها، لأنها كانت في بحثٍ عن سبب، لقول أي شيء ومــــنه التثبيط" وهذا ليس إلا من ذلك الكثير، ولكن من يهتم لا أحد! ولا أنا، ربما كنت أريد أن تمضــي معي مذكرة الاعتقال هذه إلى القبر، لعــــلها تُؤنسني في ذلك القبر المظلم الموحش في ذلك القبر الذي كل الصور التي وصلتنا منه، وعنه مخيفة؛ وهي حقا!! مخيفــــة بطول ما قد يمكث الإنسان في تلك الظلمة، ولكنها ظلمة أحب إلى من كل نعيم الآن، ومذكرتي تلك كانت هي أُنسي في وحدتي بما كانت تحمل بجعبتها فكانت كل مرة تداريني بكل لذي أبحث عنه.

-كنت في المرات السابقة، أتودد إليك بالشرح في كيفية تعلم الكتابة، وفجأة انتهى المطاف بي وهو ذلك

المطاف والذي لا يؤخرني عن الركب، بل العكس يرجع بي إلى أشياء كثر، ربما إلى تفاصيل كان من المفترض أن تكون في المقدمة، لكن مـــا إن آخذ هذا القلم الذي بيدي حتى تتلاشـــى جميع تلك الأفكار التي كان تملؤه والتي كانت -أيضا- تثقلني حينما أهم بالسير في الطرق العابرة، وحتى تلك الطرق التي عهدتها إلى نفسي فإنك تجدني في أغلب الأوقات أردد بعض الكلمات، والتي لا أملك لها من تفسير: سوى بأنه نوع من الإلهام وهو مرتبة من الوحي ولكنه وحي من نوع آخر؛ وهو الوحي الذي يصـــل إلى البسطاء أمثالي، وأمثالك أولئك الذين لا عصمة لهم، لكن لهم بصر شاخص يدرك الكثير من الأشياء، وتملك رُؤًى للمستقبل وهو مستقبل قد لا يكون لنا فيه مكان ولكن من يهتم لا أحد حتى أنا! ولكننا لا بد أن نقول أشياء لا يحسن قولها، لكن بما أن قولها ظريف، ويحدث أشياء في النفوس التي تتلقاها لذا فإني أحزن لمن أعطاه الله القدرة على فعل شيء، ولم يفعله إن الفرص حدث لا يتكرر في حياتنا هذه لكنها موجودة على أية حال، لذا فإن المشـــكلة تقع على

عاتقنا نـــحن، لا على أحـــد آخر؛ ولعلك الآن تسأل، أو تتســـائل، ومن حقك ذلك، ولكن عن ماذا، ربما يمكنني الآن القول لك مرة أخرى، أني في الفقرات الســابقة، كنت على نية توضيح أشياء كثر، طالما أنني قطعت شوطا كبيرا، في هذه الغياهب، ولا أظن أن هناك شقي يمكـ ان تسـول له نفـسه الوصول إلى هذه الفقرة، وأتمنى الذي وصله هذا الـ وت، ألَّا يتعدى الغلاف، والصـ حات الأولى فإن أجمل مافي هذا الكتاب أو الرواية أ قصـــة، أو "شـــبه رواية" وهذه الـ رة تحسب لي "شبه رواية" ولكن ما أعتقد هو أن هذا الـ اب لا يعـ ا مجرد سيرة ذاتية لكاتب لم تزكيه إلا نفســه، وو شـــهدت له، بأنه يملك قلما، ومذكرة في هاتفه غنية شـــيء، إلا من الأشـياء التي لا فائدة لها، وأتـمنـ لآن أن يقبـ مني العـذر، لأني أعتذر -الآن- من كل سـاهم من قريـ أو من بعيد، في أن يرى هـذا الكـ ب النور، وربمـا لا يعـد العـذر نوع من الكبرياء، لـ جد له تفسـير، وهو التفسـير الـ لا مبالغة فيه، وإنـ بســاطة لا حدَّ لها؛ ولكني لا أهتم لمـ نا من

تهافت وتباعد بين كلمات كان من المفترض أن يكون لها سياق واحد، وتتكلم عن فكرة واحدة.

ربما كنت عرَّجْت لك من قبل ليس ببعيد أن هذاالكتاب ليس إلا سيرة ذاتية، ولكن الكثير من الأحداث طَغَتْ عليها، حتى لم تبقى لي فقرة أقول لك فيها، أن هذا الكتاب يخصني -أنا- وحدي وليس فيه مكان لغيري، ربما تجد هناك بعض الأسماء الأخرى، وهي ليست ببعيد، مما قصدت قوله في كل الفقرات السابقة، ولكن الذي ينقصني يا صاحبي هو الثقة العمياء تلك التي لا يوجد لها شيء يبررها فلو أنك حاكَمْتَ وعامَلْتَ الكل على مزاجك وعلى طبعك، فأنت حتما هو الخسران، ولو أنك -أيضا- التزمت في كل تلك الوعود التي قطعتَ، والذي غيرك لم يهتم بها، فأنت الآن مرفوع عنك القلم، وهو "قلم الالتزام" هذا القلم كان من المفترض أن يكون عند الكل، ومتوفر في كل المحال حتى تلك التي ليست تجارية؛ لأن هذا النوع من الأقلام يقتضي أن يكون صاحبه حاضرا ذهنيا ليكون -أيضا- فوق تلك الطاولة التي يجلس عليها كل هذه

الاحتمالات، لذا فإني أرى أننا يجب ألا نتأخر عن تقديم معروف أو رد جميل لمن يستحقه علينا، حتى الذي يمكر بنا، يستحق علينا جميلا -أيضا-ربما لأنه يجب أن يرد ويكون من نفس الصاع -أيضا- ونقول بعد كل جميل نسده، "[redacted]" هذا النوع من البضاعة ثمين، لأن الثمن يدفعه الواحد، من قلبه لا من جيبه وما يخرج من الجيب سهل، لأنه قد يعود، ولكن ما يخرج من القلب لا يعود، وما يعطيه القلب، ويمنحه لا رجعةَ فيه ومعضلة القلوب هي الوفاء الزائف [redacted]

-أقول هذا لأن الكثير منا ضاع عمره رهنا لتلك الوعود والتي سبق وأن قطع، ربما قطعها بحسن نية، أو بسوء ظن، لكن ما يهمنا هنا حقا!! هو أنه قطعها، لقد أضاع عمره بين التزام كان من المفترض ألَّا يشغل باله كما وأنه لم يعكر حتى مزاج ذلك الصاحب الذي قُطع لأجله، ومرة أخرى أقول: يجب ألا نُبقي أنفسنا في ولاءٍ مزيف؛ وفي التزام اختلَّ أحد طرفيه.

-ما دام أن الصفحات تقادمتْ والكم هائل من كلمات لا حَلَقَةَ وصلٍ بينها سوى أنها تشترك لغة واحدة، وقالبٍ واحد -أيضا- وأنها ترمز إلى شخص واحد والذي يفترض به أن يكون -أنا- وهو فعلا -أنا- ولكن بصفة أخرى، قد لا أكون -الآن- أهلا لها ولكن لايهم ربما لأن اسمي سيبقى هناك دون أن يَشْغُلَ شيء مكانه، ولكن باختصار ستذكر قبل اسمي صفة طالما كنت قد تمنيت من قبل لو أنها تكون هي اسمي، لكنها صفة يا صديق والصفات ليست مسمياتٌ تولد معنا، ولكنها مسميات تُكتسب ونكسَبُها في حربنا الصامتة، مع هذا الواقع اليائس، والبائس في نفس الوقت، وهو وقتٌ كان من المفترض ألا نترك شيئا منه يمضي دون أن نقدم فيه شيئا وأي شيء كان! لأن المهم حقا! والذي سيبقى معنا، هو ما قدمنا وحده، ولا يوجد شيء آخر سيبقى معنا غيره، ربما يبقى معنا كلما نقدمه لكنه بعضًا قد يسوء الواحد منا، لذا فإن هذا قد لا نسميه شيئا قد يذكر لنا، وليس لشيء سوى أنه حسرة لنا، أكثر من أي شيء آخر. -وعني فقد حاولت من

قبل تقديم شيء أي شيء كان! المهم عندي هو ألا تكون ولادتي تشبه موتي، وبعبارة أخرى هو ألا تقام نفس تلك المراسم التي أقميتْ من قبل، وحضر من شاءَ له بأن يحضر، وفرح من كتب الله له الفرح، وضجِرَ من كتب من كتب الله له الضجر ولا علم لي بالذي ضجر بقدومي لكن لا يهم كما هو شأن الأشياء الأخرى، وتلك التي في كل وقت نعمد لقولها والسبب هو أن هناك مكان فارغ لم يجد كلمة ما! قد تملأ ذلك الفراغ، وقد عملت على ملءِ كل فراغ، لدرجة أني في بعض المرات أقول أشياءَ لا معنى لها، كما هو معظم هذه الفقرة الأخيرة، والتي شغلت نفسي بكتابتها؛ لربما كنت ألعب على أوتار قلبك، وهو وترٌ إيقَاعه منخفض، هكذا قالت: مخيلتي عنك في حوار عابر؛ وتلك الحوارات، التي تكون مع مخيلتي القليل هو ما يبقَ منها؛ لم أكن أريد أن تكون حياتي مثل حياة الأشخاص البسطاء أولئك الذين لم يمضي الكثير من الوقت على ولادتهم حتى ينساهم الناس، ويغفل التاريخ عنهم، حتى يحيلهم إلى خبر كان!، بدل أن يكون اسمها لها.

أولئك الذين لم يشغلوا لابحياتهم ولا بموتهم أولئك أشخاص مساكين ما الذي تقوله عنهم، سوى أنهم رضوْا لأنفسهم على أن يتركوا ويضيعوا في مزبلة التاريخ وهذا الأخير "التاريخ" كان شغلي الشاغل، لأني كنت ألوم نفسي أكثر حينما تتغافل عن يوم في سهرة ما! مع الأهل أو الأصدقاء، أو حتى في أي ملهًى ليلي كان! وفي أي وقفة كانت المهم، هو ألا يضيع جل ذلك العمر على قصره في لذات عابرة، وبعض الملاهي والتي تسلبُ الإنسان أكثر مما تعطيه؛ وهي حينما تمنُّ عليه البعض من ذلك العطاء فإنها لا تقدم له إلا لذات عابرة جافة لا شيء منها يبقى معه، حينما تنتهي تلك النزوة، أو تلك الفترة التي كان يتعاطى فيها ذلك المسكن الذي اسمه "اللحظات العابرة" ونتيجةً لهذا الحرص على عدم تضييع هذا الوقت فإني لا بد قد واجهتُ الكثير من الكلمات المثبطة، وبعضا التنمر الساخر مني شخصيا ولكني مضيتُ مع الزمن علَّني أجد أنيسا يمكن أن يعوض لي شيئا من كل ذلك؛ ولكن كل ذلك لم يزدني عدا حرصا على قنص الوقت، وغنم كل

الفرص، التي قد تتاح هنا أمامي ولكن حتى الفرص أيضا لم أجد لها سبيلا، ونتيجة لما حصل معي من تنمر، وعني فإني لم أذكر هذا لأن أجد شفقة ولا حتى تعاطفا من أيٍّ كان! وإنما ذكرت هذا لأني لم يتبقى لي إلا صفحات معدودة ويجد هذا الكتاب النور، ولعله يكون أفضل من جميع الأخوة التي سبقوه فهي الكتب التي كتبتها لكنها بقيت في ركن خفيٍّ عن الناس، ولم يطلع عليها غيري، وكنت حينما أقرأ منها فقرة أقول وفي نفسي غصة "كلمات مثل التي في مذكرة هاتفي تستحق الحرية، ويجب عليها ألا ترضى بأقل منها؛ ولكني أقول: -أيضا- بحسرة إن واقعنا هذا لا يقبل الضعفاء، لأنه واقع مثير للشفقة، وكل الحظوظ التي فيه ليست متساوية"وعن الشفقة التي ذكرت آنفا فهي أسوء شعور قد يشعر به الإنسان وهو ذلك الإنسان الذي يحس بأن الكثير من حقه مهضوم ونتيجة لهذا يجب ألا يبقى أي شيء فيه مثير للشفقة لأنها أسوء شعور، لربما تكون تعرف شخصا اسمه "طه حسين" فهذا الرجل أسوء شيء واجهه في حياته هو الشفقة من إخوته

فقد كان كفيفا، وكانوا المبصـــرين حوله هم؛ ولكنَّ العمى الذي أصـــابه لم يحجب الرؤية عنه وهي تلك الرؤية التي منبعها القلب فقد رأى شـخص اسـمه"طه حسـين" ما عجز المبصـــر عن إدراكه؛ ونتيجة للذي واجهت في حياتي فقد كنت أقبع في برجي العاجي، وكان الضـــجيج كثير حولي لدرجة أنه يودُّ القولَ لي أنه لا مناصَ من المشـــاركة فيه حتى لو اقتصـرت تلك المشـاركة على تحريك الأصـابع أو شـيء آخر لكني ضـقتُ ذرعا بالكثير من الأشـياء لكني لم أعد أهتم لذلك لأني خبرت أهلي، وأنتم تعرفون أن مكة أدرى بشـعابها، هكذا يقول من يعرف أهله وقد ضـاق ذرعًا بهم، لكن الأهل لا يمكن اســتبدالهم، وإنما علينا الرضـــا لكل ما يحدث عنهم، والمجتـــمع ليس ببعيد عنهم؛ لأنهم ذنبهم يكفره التأقلم، مع كل ما يصدر عنهم.

-ونتيجة لكل ذلك فقد كنت صـــغيرا جدا، في كل الأعين التي لا تراني بالعيـــن التي أرى بها نفسي، وأجمل في هذا كلـــــه هـــــو أنني لم أهتم فكنت أرد على تلك الأصـوات التي تصـدر حولي بنبرة العارف أو الزاهد وهو

ذلك الزاهد الذي عرف قيمة هذه الدنيا حتى صـــغرتْ في عينه، فلم يكن يهتم فيها لا بلبس ولا بنيشان ولا حتى رفع رأس فقد تقوس ظهر صـــاحبنا من شـــدة التفكير، مرة في نفســه وكثيرا ما يفكر في من حوله ويحاول أن يقنع نفســه كيف استطاع غيره أن يخدر نفسه ليرضى لها أن تكون جزءً من هذا الواقع لتصـــدق كذبة، لا منطقَ لها. -وقد كان التنمر هو أسوء ما واجهت في حياتي وهي حياتي هذه التي لا زالت في المهد؛ ولكن ضَراوة ذلك التنمر كان قد منحها عمرا، لم تكن لتصل إليه لولاه، فقد اختلت مـــيـــزان ما! عنـدي، ربمـا لأني رأيـت أني لا بـد من ميزان أقيس عليه بعض الذي واجهت حتى لا يواجهه غيري؛ من الذين لم يشفع هـذا الواقع لهم، وحتى لو أنه شفع لهم، لكانت تلك الشـفاعة فـــيهـــا الكثير من التنمر وحتى التكبر، وبعض الاســـتعلاء بغض النظر عن الوجه الذي ظهر به، أو العملة التي اســـتخدم، أو ربما تلك الحيلة التي لجأ إليها؛ وهنا يمكنني القول "أنه من أعطاه الله حيلة عليه أن يحتال بها

ويمكر بها لنفسه، دون أن يؤثر ذلك على غيره، ويهضم بعض حقه".

-ونتيجة لخوفنا من أن نأخذ حقَّ شخص ما فإننا بذلك حتما لا بد لنا أن نترك حقنا على جنب تتقاذفه الأيادي وهي أيادي لا رحمةَ في أهلها، ولكن المعضلة ليست أن نترك حقوقنا لأن أخذها قد يجلب لنا حقًّا آخر غير الحق الذي لنا، ومعنى هذا أننا في سبيل أخذ حقنا يجب ألا نأخذ حق غيرنا، وعلى هذا الخوف ألا يبعدنا عن أخذ حقنا، بأن يقف في وجهنا. الخوف شعور جميل حينما يكون ينبع من داخلنا من الضمير ومن تلك الحاسة السادسة أو السابعة التي منحناالله فما هو إلا منبه صغير لا مكان يعبر عنه في الجسم ولكنه في داخلنا كلنا، لدرجة أننا حينما ننوي فعل شيء أو نعكف على اكتماله فإن ذلك الصوت أو المنبه يطلق الكثير من الإشارات وبعضها لتشجيعك على المضي قدما، وبعضها الآخر ليس إلا إنذارات لك بأنك مقدم على حلقة فارغة وخطر ما! يتربع على عرشها وفي الأخير القرار لك سواء مضيت قدما؛ أو

أخرت قدما لك على أنك مقبل على شـيء لا فائدة ترجى منه.

-اعذريني يا أمي؛ لأن الحرب وضعت أوزارها قليلا لأن تأخذ قسـطا من الراحة، وهي تلك الحرب التي لم يكتب لها انطفاء شـعلتها تلك وتلك التي كانت توقظنا في كـل وقـت وحين لأن تقول لنـا: أن الحرب بين الحق والباطل، لا بد أن تسـتمر حتى ينتصـر طرف على طرف، وتكون الغلبة لطـرف من معادلة ما! كتب لها الله أن تستـمر من قبل أن نجيء، لأنها والحق يقال: ربما لأن جواب تلك المعضلة ليست متوفرا في ماتنتجه هذه الأرض، لأني كنت أَعْمَدُ لكل من يسـألني إلى متى تسـتمر هذه الحرب وكم روح سـوف يزهق دمها وإلى متى؛ ألم يحن وعد ربنا، وكنت أقول: بلى!، ولكن أمر النصـر لم ينزل بعد، على أن يزهق الحق الباطل، وهو ذلك الحق الذي يعرفه الكل لكنه لم يعمد إليه، ولم يسـلك طريقه، ولم يلجأ إليه، ولكن الله غـنـي عن العالمين، وهو لن ينصر عباده إلا بعدما يميز الخبيـث، من الطيـب، ولأن لا يختلط الورق عليهم، ولا

يلتبس عليهم لكيلا يطمع أحدهم، في منزلة لم يبذل في سبيلها أيَّ شيء وحتى لو اقتصر ذلك الشيء على كلمة صدق، أو حتى دعاءً، صادق لأن الله يقبل التوبة من عباده، ويقبل منهم كل شيء، حينما لا يكون للنفاق ولا الرياء فيه مكان حينما يكون خالصا لوجه الله والذي تهون في سبيله الأوجه، وفي سبيله تصغر الدنيا؛ ولا يكون لها وجه عند أحد من عباده، حتى يفدي كل واحد منهم نفسه وماله قربانا لله، في سبيله أن تُعْلاَ "الكلمة العليا" وهي كلمة الله.

-إني ياأمي أحاول الآن قص عليك حدثٌ تاريخيٌّ قد غيَّر كل الأسس التي قام عليها هذا العالم، وهو العالم الذي يمجد كل ظالم، على ألَّا يترك مكانا لغير جنسه من الظلمة، وهم الذين لم يعاني أحدهم في نصرة مظلوم أو حتى الوقوف معه علَّه يأخذ حقه، والحقوق في هذه الدنيا حينما تسلب لا يردها إلا صاحبها التي سلبتْ منه، لذا أتمنى لو تضع كل تلك الشعارات والتي تَغَنَّى البعض فيها فترة من الزمن، وحينما خدع الناس بأنه يضمن لكل من سلب منه حق على أن يبذل الغالي، وكل نفيس في سبيل

أن ترجع تلك الحقوق إلى أهلها وإني ياأمي لم أصـــدق يوما شــعارات ولا ذهبتْ في مســيرة، ولا دخلت من بين الناس علَّني أجد مكانا بينهم، أو لعل صـوتي يسـمع أو أن تلتقطني كـاميرا، أو أن أجـد صـــورة تكون لي ذكرى في حـــدث ما! فاصل بين الناس، وفي وقت كان الكل يسعى فيه ليجمع نقاط شـخصـية له، لعلها تزيد من فرصـه أو أن تزيد في العـــدد الذي يمثله من الأشخاص أو في أن يرفع عدد القضايا والتي رفع فيها شعار لم يكن يسعى منه سوى أن يجلب "المكاسب الشخصية" تلك التي كان الكل يتاجر بها؛ والحقيقة لا يوجد شـــخص إلا وهمه بالدرجة الأولى هي نفسه، ولم يسلك طريقا إلا وكان يطمح فيه، لأن يرفع من قدره، ومن شعبيته، ولعله يجد أيادي أخرى وتكون في أغلب الأوقات غريبة عليك لكن بعض الحنية واللطف يُزيّنها، وما إن تتمكن منك تلك الأيادي حتى تكون واجهة لها، وتفعل كل ما تمليه عليك شخصيا لذا فلا تجد بُدًّا من أن تنصـاع لها، طالما أن سـتوفر عليك الكـــثير من تلك المتاعب، والتي سعيت بنفسك يوما في سبيلها.

-يا أمي أنا -الآن- أودُّ الحديث لك عن حدث واحد معين لكن وأتمنى لو كان بالإمكان أيضا الحديث معك لوحدك، ربما لأن للحديث معك حلاوة، لا يعرف قيمتها إلا من له أمٌّ مثلك، أنا يا أمي لا يحب إليَّ الحديث إلا إذا كان معاك، لأن الأحاديث معك لها طعم خاص وتكون عميقة وخصوصية، بيني وبينك ربما لأن الحديث معك لا حذر فيه، إذ أنني أتكلم بأريحية. -لكني يا أمي في مرات كثر تَحُولُ بعض الأمور بيني، وبينك إذن أن تداخل الأحداث غالبا، ما يكون هو الذي يؤثر على مكامن الأمور.

ولكني يا أمي؛ ويا أجمل أم! نسيت القول لك، بأن ذلك الشهر والذي كتب الله لي منه يوما، وقد عشته معك، وهو يوم قد كتبه الله بأن يحرك الجميع، إذ أنه فيه حَضْرَتِه اختلت بعض الموازين، والتي استمرت فترة من الزمن، قائمة على ظلم قد استمر على شعب أعزل ومن كل شيء إلا من عناية الرحمان وهي تلك العناية يا أمي التي تحفظ، وتغير، وتبدل، وتجعل من المستحيل ممكنا.

-إني يا أمي أشـــكر الله كثير، وفي كل يوم تشـــرق الشمس بأن أراني الله رجـال أشداء على الكفار، رجال من زمن الصحابـــة وهو الصحابة الذين أوصلوا هذا الدين لنا، إني أشكر الله في كل صلاة وفي كل صبح وفي كل مسىً، وأتعجب يا أمي من رجال تكاد الشمس لا تصلهم، ويكاد الهـــواء يحبس عنهم، ولا يصل إليهم شيء، وكان الصديق يعاديهم قبل العدو ومع هذا كله كانوا لا يخافون في الله لومة لائم لأنهم يا أمي غشـــيتهم تلك الرحمة التي نبحث عنها في المساجد، وفي كل صلاة لنا وفي دعوة، ولكنهم نعمَ القومُ هم، مرابطيـــن عند مسرى خير خلق الله، إني يا أمي أعلم أن هناك أشـياء كثر، تحـــــدث ولكن نحن قوم مساكين لم نسلم للأشياء إلا بالقوة، وبعبـــارة أخرى أخذنا بالأســـباب وتركنا التوكل على الله وعســـاني يا أمي ممن يحســـن التوكل عليه، لا بالأســـباب وإنما بالإيمان، وهو الإيمـــــان الذي يزكي النفوس وأن يخرج منها أفضـل ما فيها-أنا-يا أمي مليانٌ منك، ولو أنهم الآن شـــقُّو قلبي، لوجَدُوا هنا حبا، يجري كما يجري الدم وما ذلك الحب

إلا أنت إني ويا أمي أتمنى لو كان بمقدوري فعل الكثير لأجلك، سواء قولا أو فعلا، وإني يا أتمنى لو أن كلماتي هذه الخفيفة الإيقاع تصلك، إنني وأجمل شيء عندي هو أن يصلك صداها، أو تكون لك كما كنت يوما تحبي أن يسلك قلمي، وسن قلمي، لو أنك الآن موجودة ربما كنت البوصلة التي لا يحيد عنها، ولكني يا أمي، ومسكين أنا حينما تعهدتُ لنفسي بأن أكتب لك كتابا وكله أنت لايمكن أن تحيد بوصلته عنك.

وحيث أنتِ هو هناك معك، يُكَلِّمُكِ، وَيُحَدِّثُ الناس عنك، وأنا لا أَلُوم الناس لأنهم مساكين ومساكين حينما رَحَلْتِ عنهم، إذ أنهم مساكين حين لم يغتنموا تلك الفرصة التي يقال لها أنتِ ومسكين أنا حينما لا أقدر على رَسْمِك لهم.

نسيت أن أقول أننا يجب أن نحمد الله في كل وقت وحين ويجب علينا أن نحمد الله، ونشكره على حسن الاختيار ربما أقول هذه الكلمة للمرة الألف؛ وهي الكلمة

أو الخاطِرة والتي لا أملُّ سماعها، وهي تشبه إلى حد ما! كلماتٍ كثر أخرى كنت قد التزمتُ بها مع نفسي، في أن تواسيني، بكل وقت ما!! قد أشعر فيه بالوحدة وهي وحدة أَلِفْتُهَا كثيرا، حتى أنها صارت أعزَّ صديق عندي، وأنيسٍ - أيضا- من يصدق هذا؟ ربما قد لا يكون هناك بعد شخص قد تنطوي عليه هذه الكذبة المكتملة الأركان؛ ولكني أصدق هذا، نيابة عنكم، وعني؛ ومرة أخرى لا يمكنني القول إلا أنَّا يجب أن نختار بعناية لأن كل اختيار ما هو إلا طريق مفروش بالورود، أو مَطْلِيٌّ بالشوك، وطرق كثر ممهدة بالشوك، وهو ذلك الشوك الذي قد نجده، يواجهنا في كل مكان ظن الواحد منا أن الخير موجود فيه، وأنه ليس إلا مسألة وقت لا أكثر! ويكون متوفر لنا، بكل حذافيره، ولكنني مع هذا، لم يحدث أن ندمتُ على اختيار، وليس لشيء سوى أنني كنت أتعلم من كل اختيار، الكثير من الدروس وآخذ كل العبر الموجودة هناك، حتى لو قلَّتْ لكنها هناك موجودة، وقد لا نجدها أو نصادفها في بداية الأمر، وقد لا نَلْحَظ أي شيء من ذلك لكنها موجودة وقد

ينعكس ذلك على تصرف الواحد منا حتى هو قد لا يدرك شيئا من ذلك التأثير، والذي ليس إلا نتاج لتجربة ما! من مزاحمة أولاد بني آدم فقد تحدث أشياءٌ معنا، لمجرد أننا اختلطنا فترة من الزمن مع بعض البشر وقد لا يكون ذلك البِشْرُ، علامة بِشْرٍ لنا، لكنه علامة لشيء ما وقد لا نفقه الآن عنه شيئا، ولكن كما تعلم فإن بعض الشجر قد لا تنضج ثماره، إلا في نهاية الطريق، وقد لا تنضج لك إلا بعدما تيأس وهو يَأْسٌ قد لا يكون له ما يبرره ولكن الصبر ماهو إلا مفتاح للفرج؛ وهو مفتاح لذلك البيت الداخلي، الذي يقال: له أنتَ وقلبك، إن هذه المعضلة، التي يقال لها أنت وقلبك فإنها قد تتأثر بأي تواجهه في أي طريق وأي شيء تواجهه -أيضا- أكثر من مرة.

-عن حسن الاختيار أتحدث؛ ربما قد لا تكون هذه الفقرة كلها إلا ترجمة لهذه الكلمات المعدودة؛ تلك التي أُرْغِم الواحد منا عليها أكثر من مرة، وهو حينما يختار لا يعرف مالذي ينتظره بعد ذلك الاختيار، ومالذي قد يترتب عليه ذلك الخيار والذي كان لا بد منه لأننا حتى لو أنا

أعرضْـــنا عن الاختيار فإننا لا بد من دفع ثمن ذلك الإعراض وهو ليس إعراض بل العكس فما هو إلا اختيار آخر.

-أقول لأني كنت شـــاهدا على الكثير من الخيارات وحتى تلك التي ليس لي بها علاقة، ولكن هناك علاقة ما!، بطبيعة الحال حتى لو لم نشـــعر بها؛ والأشـــياء كلها، أو بعضـــها، لا يمكننا نَفْيُهَا لمجرد أننا لا نشـــعر بها، وقد تتداخل هنا بعض المفردات، تلك التي قد نكون-الآن-في غنى عنها؛ ولا أقول هذا لأن مفرداتي تلك قد نفدتْ! بل فهي ما لاينفد؛ لأن الكلام، ماهو ســـوى لعبٌ على أوتار هـذه المفردات، ومتى كـان! عنـد المفردات أوتـار، أنـا أضـحك! من هذه السـذاجة التي وقعتُ فيها، وهي ليسـت في منأى عني وعن هذا الذي ترونه الآن بين يديكم، وهو الذي لا بد أن يكون في يوم بين جَنَبَاتِ الكتب، وقد يزين بعض تلك أســـطح المكتبات، تلك التي تهتم بالكتب؛ وتلـك التي تقـدر هـذا "المنتوج المحلي" تلـك التي فيـه الكثير، وتأمل عليه أكثر من شيء؛ وليس ذلك لشيء سوى

أنها قد يئست لأننا قد لا نوفر البديل، وهو لا بد منه حينما ننوي الإعراض عن أي شـــيء هنا ربما تكون قد تذكرت تلك الحرب الصـامتة وتلك التي لم يشـإ الله أن تُطلق فيها رصاصة، لأنها حرب مستمرة، لا هدنة فيها ولإنه من شأن الرصـاص أن ينفد، ومن شـأن العدة، أن تنتهي!! ومن شـأن هذه الحروب المجلجة أن يجلس أصحابها بطرفيْ كرسي، متحرك؛ وذلك الكرسـي، لا تحركه سـوى تلك المكاسـب قَلَّتْ، أو كَثُرَتْ؛ هي وحدها التي تفرض الشروط وتُخضع من يطـاول عليهـا، بعبـارة أخرى بعض الحروب تخـاض لكي ينتهي أصـــحابها إلى حل، وهو حل قد لا يدوم أكثر من وقت وحتى ينتهي، ويتلاشـى، وتعود الحرب سـيرتها، وبعضـــها الآخر، قد لا تنتهي إلا حينما تقلب وجه تلك اللوحة الشطرنجية، التي قد أقيمتْ عليها، كما يحدث الآن في هذه الحرب والتي لم تغير وجه الشرق الأوسط، وحده وإنما غيرتْ وجه العالم كله ربما ذلك العالم، الذي لم يحدث ولا لمرة أن وقف مع مظـلوم، في وجه ظالم، وهو نفس ذلك العالم، الذي لم يتوقف ولا لِلَحظة واحدة أن

وقف مع مظلوم أخذ منه حقه؛ فمشـــكلة هذا العالم أنه لا تحركه إلا المصـــالح، فلم يعد هناك مبادئ؛ ولا نخوة، قد يلـــجـــأ البعض إليها، أو قد يحتج إليها، أو أن يَتَعَذَّرَ بها، حينما يريد اســـترجاع حقٍ أخذ من صـــاحبه، وحتى هذه الأخيرة، لـــــم تعد هي الأخرى تحرك شـيئا! "إلا ما رحم ربي" وأتمنى لو أنك من الذي رحم ربي وقليل ما هم؛ لو أنك منهم، فإنك قد لا بد أن تساهم بشيء أي شيء كان!؛ لأن الكتابة عن مظلوم تعتبر تضـــامنا معه وحتى الوقوف معه، وحتى المساهمة ولو بشيء يسير كان! فإن ذلك كله يحسب وقد يحسم المعركة لصالحه -أيضا- من يدري ربما تكون مســـاهمتك هي تلك الرمية والتي صـــادتْ عصـــفوريْنِ بحجر واحد ربما لا يكون الحجر هنا حجر رشيد، ولكنه حجر له خصوصيته؛ ولا أفهـم كيـف يمكن لهذا القلم أن تُعْرِضَ سِـنُّه عن الحديث عن تلك القضـية العادلة، قد لا يوفق لمثل هذه القضـــايا للحديث عنها والمشـــاركة إلا آَحَـــــادٍ ربما لأن هذه المعارك اســتثناء، والمشاركة فيها ليست متـــاحة للكل؛ وإن ليصطفي من

عباده، من يشاء أن يقودَ منهم حربه ويشارك معه، فالله وحده يعلم خفايا كل شيء. -إن لا أقول هذا فقرا، وإنما هو بمثابة لوحة الشرف لي، وهو أن أحتج به ذات يوم، عند ملك الملوك، وهو ذلك الملك الذي لا يظلم عنده أحد؛ وهو وما هو بظلام للعبيد ذلك اليوم الذي تجد فيه كل نفس ما عملتْ محضرا وكل نفس تتمنى بعضها يتمنى لو يقرب لها عملها ليطمئن قلبه، والبعض الآخر يتمنى لو باعد بينه، مع عمله؛ فذلك اليومٌ، يومُ تمني ليس يومُ عملٍ وإنما أعمال هذه التي بين أيدينا -الآن- هذه والتي ناخذ منها أقساط كل يوم ننهي بعض الأعمال فيها، وبعض الأعمال، قد يفخر صاحبها، وبعضها الآخر قد تقف حسرة عليه، ولا تكون مجرد حسرة، وإنما وبال عليه وندم يتبعه، في كل يوم.

نهايةٌ يَصْحَبُهَا اعتذار..

ولم تكن الهجرة إلا سبب لوصولي إليك؛ أو إلى أن تجد هذه الكلمات الفرصة في ملامسة يديك، وأن تجد الفرصة -أيضا- في النطق السليم، ذلك الذي يصدر من فمك وأن تجد فرصة أخرى، في أن تتغنى بها تلك الحنجرة التي يقال لها أنتِ ربما كنت أملك لك صوتية، فكنت في معظم أوقاتي أسمع صوتها وفي تلك اللحظة بالذات اتضح لي أن اسمي، لم يكن يعرفه شخص غيرك، فكنت تعطي لكل حرف حقه؛ مع أنها حروف قليلة ولكنها حينما يُخَالِطها ذلك النغم الجوهري، والذي يقال له أنتِ؛ فإنه يكتسي حلة أخرى.

-ربما لم تكن الكتابة -نسبة لي- إلا محض دردشة لعل صوتي يصلك، ولعل كلماتي -أيضا- تجد الفرصة في مخالطتك، وأن تجد حظها منك؛ وهو حظ تأخر قدومه، لربما يكون عذر ما! عندي ولكنه غير مقنع، فمن يريد يستطيع، ولو تقطعت سُبُلٌ به؛ إلا أنه لا يوجد عذر مقنع

في عدم اللقيا، والتلاقي، وربما يكون هناك عذر، وأعذار، لمن لا يريد اللقاء، ويحرم نفسه من لقاءٍ قد لا يعوض له منفعة أو يعطيه شيئا، أيَّ شيء كان من تلك الأشياء، والتي تعودنا -من قبل- أن تكون لنا بمثابة ذلك العوض، والذي كنا نحاول بيأس أن نقنع أنفسنا به، بأنه بديل لا بأس به.

شاهدت من قبل لوحة مكتوب عليها على خلفية سيارة أظن أن صاحبها كان قد وقع في الحب؛ لكنه يبدوا أنه لم يعوضه حبه ذلك بشيء لا لقاء، ولا بعوض وإنما بجفاء لا حد له ربما كان يحاول قتل الوقت، بأن يداري نفسه بالتدخين، أو شيء من ذلك القبيل، والذي غالبا ما تلجأ إليه تلك النفوس العكرة، بأن تفرغ تلك الطاقة في شيء، وأي شيء كان! لأن الطاقة حينما لا تجد شيء تُصرَفُ فيه، فإنها تكون سُمًّا زعافا، بقلب صاحبها؛ وقد كان فحوى تلك الرسالة كالتالي: " بيع البطاطة كان حجتي الوحيدة، أن أجولَ المدينة شارعا شارعا لأجدك" وعذري، وحجتي؛ بأن تصلك أخباري، هو هذه الحروف، ليس شيء آخر، ووحدها هذه الحروف، كانت المرساة، التي

لجأت على أن تصل أخباري إليك؛ وهي أخبـــار لا بد أن تغذى بما قد يمهد لها الطريق، وهو الطريق إليك، وذلك الطريق هو شغلي الشاغل على أن يُمَهَّد، وما شأني بطريق آخر إن كان لا يؤدي إليك؛ أو أنه نهايته ليســـتْ أنتِ، ووحدي أنا مشغول، ومنهمك بكل ما له علاقة بك، وبكل ما قد يصل إليك، وبكل ما يمكنه أن يُوصل أخباري إليك، ووحدي أغادر الدنيا، أنا، وأنا هكذا لا حقد، ولا أمل، ولا حب، ولا كره، ولا شـــفقة، ولا عاطفة، ولا رحمة، ولا مضـرة، ولا سـرَّاءَ؛ حتى أنني لم أعد ذلك الذي كان -من قبل- يضحك، ويفرح، ويحزن، ويبكي، ويصرخ بالشفقـــة على أيِّ شـيء يسـتحق الشـفقة، فلا تُلومُوني، ولا تَلُومُوا المرءَ حينما يكون أســـيرا للحب أو حينما يكون أســـيرا لـذكريات كـان من المفترض؛ ألَّا تمضـــي معـه، تعتقلـه، وتهدده، وتهدد كل قرار يأخذه، بالفشـل وهي أغلال قد لا يراها البعض لكنها موجودة هناك، في ذلك القلب الذي أحبَّ يوما، وأحبَّ الحياة ولم تكن أمنيته منها إلا أن يجد شخصا، يفْهَمه، ويُشْعره بأن له أهمية في قلوب الناس، أو

في القلب الذي أحبه، بصدق؛ وإلى متى سيمضي بنا هذا الزمن، ونحن كلمَّا اختارَ الواحد منا أي خيار فإن الدنيا ستقف في وجهه.

-أقول هذا؛ على لسان كثر وهم العشاق الفدائيين وهم الذين لم يرضوْ لأنفسهم أن يبقوْ في المنتصف، وفي أي طريق آخر كُتِبَ على الوحد منهم أن يسلكه؛ وأقولها للمرة الألف لأني لا أسئم من قول أي شيء، طالما أنه في نظري صحيح؛ ومعنى هذا ليس أنني أتعصبُ لرأي، ولا فكري، وإنما أقول هذا؛ وكل شيء آخر، أن الله خلق لكل واحدا منا نفسا حرة، وأن تختار كل ما تحب وكل ما تكره وفي نهاية الأمر كل نفس تجد كلما عملتْ محضرا، ولا يظلم ربك أحدا؛ دعوا الناس وشأنهم، هذا ليس معناه، تركهم في حيرة من أمرهم بل العكس قولوا لهم أن الله غفور رحيم أي يقبل التوبة وأنه أرحم الراحمين وأنه أرحم بنا من نفوسنا ومن أهلينا؛ كونوا دليل الناس على الله؛ ولْتكن حجة الواحد منكم هي مجرد طريق مهَّدَها لغيره،

ولا شيءَ آخر غير هذا؛ إني ليخيل ألَّا أحد سيدخل الجنة، إلا إذا كان قد أخرج آخر معه من النار.

قد نخرج عن هذا الموضـــوع الذي كتبناه لأنفســـنا، من قبل بأن نتطرق إلى الكثير من الأشياء، والتي في أغلب الأوقات ربما هي مجرد حجر رشـيد لنا، وهو ذلك الحجر والذي نبحث عنه في كل منجم، وفي كل كهف، وننتظره في نهاية كل نفق، أيًّا كان ذلك النفق، فإن هناك دوما نية مبيتةً قد لا نصـــرح بها ولا نقول عنها شـــيئا، لكنها هناك موجودة في نهاية كل الأحـــــاديث وفي نهاية كل الطرق، وفي مغزى كل حرف يكتب، لـهذا ربما نتطرق؛ أو يمكنني القول أني أتطرق بأن كل شـيء يفعله هذا الإنســان والذي ليس بالضـرورة أن يكون أنا أو أنت لكنه هناك موجود ولا يمكن لأحد أن ينكر عنه شيئا؛ وبعبارة أخرى أدق إذا أردنا معرفة أي شـــيء، يجب ألا ننظر وندقق لما هو حولنا بل العكس يجب أن ننظر إلى ماوراء ذلك يجب علينا البحث خلف مكامن الأسباب، وجميع التبريرات، والتي غالبـــا ما نجد البعض منها ينظر إلينا بالمرصـــاد؛ دون أي أســـباب،

وقد يكفينا من الأسباب هنا هو البحث عن الحقيقة؛ ولكن الذي قد يُعِيقُ ذلك الطريق، هو تلك الوسيلة التي نلجأ إليها، أو التي يمكنها أن يلجأ إليها خصمنا؛ أي خصمنا هذا المجهول، مع أنه ليست هناك ضرورة مُلِحَّةً لخلقه؛ إلا أننا لا بد لنا من خلق أعداء لنا إما وهميين أو حقيقيين ولا بد لنا -أيضا- من خلق نفس ذلك الشيء حينما يتعلق الأمر بالصداقة مثلا، وحتى لو تعلق أمرٌ ما! بالحب، أو الكره، فإننا لا بد لنا من خلق عدو وهمي أو أن نخلق صديقي وهمي لأننا بذلك يمكن أن نحدد بوصلة هدف الواحد منا؛ لأن هذا نهج يساعدنا، ويمدنا بالنشوة لأننا مجرد أن نرى أن تحقيق هدف ما! يمكن أن يخلق لنا عداء أو يُثِيرُ بعض الغيظ في بعض النفوس، فإننا بذلك يمكننا الجزم بأننا نسير في الطريق الصحيح وهو ذلك الطريق الذي يوجد فيه كل ما قد يعيق طريق إنسان ما! أي إنسان؛ لأن البوصلة التي تحدد للإنسان صحة طريقه، ونهجه، هو أن يواجهه في كل مَطَبٍّ؛ وفي كل منعطف عائق، وليس هناك من شيء قد يبرر لنا ذلك العائق؛ سوى أن هناك نفس

ثائرة لم ترتَضِـــي أن تكون تحت وصـــاية، لأنها رأت أن حريتها تكمن في اخلافها، في أيِّ شـــيء ما! من شـــأنه أن يعكر مزاج الآخرين، أو يثير الغيظ في نفوسهم، لأن جـــرم الاختلاف كبير، في مجتمع تقليدي يُقَلِّـد كل شيء يحدث أمامه، دون معرفة سببه، أو دوافعه، ولكنـــنا باختلافنا ذلك فإننا نخلق مزيجا، ونسيجا يمكن أن يُعيد هذا المجتمع إلى أفضـــل طورٍ من أطواره تلك أقول هذا ليس لأننا لا نملك ما قد يغير لنا من عقليتنا هذه، أو ما من شـــأنه تغيير نمط التفكير عندنا؛ وكل هذه الاحتمالات واردة، لكننا مع هذا يجب علينا أن تتكاثف هذه الجهود لتكون عونا لبعضـــها بعضا ويكمل كل جزء ما ينقص الآخر، ويعطي كل جـــزء للآخر كلما يحتاج إليه إني أدعوكم بدعوة رجل من أهل هذا الزمن وهو رجل قد رزقه الله بصـــيرة في مســـتقبل كل شـــيء فهذا الشـــيء الذي قلت الآن أي "البصـــيرة" لاأقولها من فراغ وإنما لأني قد رأيت وشـــهدتُ، وشـــاهدت كل الأشـــياء التي قال؛ وقد قال أنها لا بد أن تتحقق في يوم من الأيام، والحديث هنا، هو حديث جد بعيدا عن اللعب وعن

تلك الكلمات التي تستهوي النفوس بأن تدخر عنها بعض الحقائق، أو أن تُـــلْقي لها البعض من تلك المسكنات أو المهدئات، وعلى كثرتها تلك؛ إلا أنها لم تعد هذه المرة سارية المفعول، ومعنى هذا أن الصلاحية انتهت إذ أنه لا خيار سوى المواجهة والمواجهة وحدها هي التي يمكن أن تحسم الأمر، وتحدد بوصـــلـــة هذه المنطقة، وهي التي يمكنها وحدها أن تطرح بعض الأهـــداف القابلة للتحقق، وليس هناك من أهدافٍ غير قابلة للتحقق، إلا أننا في سبيل كل هدف قد نحققه هناك أثْمَان ستدفع ولا بد لنا من دفع الثمن في ســـبيل كل هدف نحلم به، أو أن نحققه؛ ولكن التضحية والتي كانت دوما مسألة فارغة في كل معادلة قد تنصـــب أمام كل شـــخص لكن هناك بعض المعارك الفائز فيها هو من يُجيد الصمود، أي من يمكنه أن يتأقلم بعد كل خسارة وبعد كل تضحية يفْرضُ عليه دفع ثمنه؛ لكننا في زمننا هذا أصبنا بمعارك لم يخلق لها رجال، بعبارة أخرى ليس هناك رجال مؤهلون لدفع الثـــمن أي ليس هناك من

يمكنه تحمل تلك الكلفة، والتي إذ لم تدفع في اليوم فهي غدا، وهي لا بد من دفع ثمنها.

-أقول هذا لأن بعض المعارك يجب ألَّا تؤجل وألا يكون شعار الواحد منا فيها، هو التسويف؛ أي ذلك العدو والذي قد نتخذ منه ملجأ لنا، نمضي إليه في كل، أو في معظم الأوقات، تلك التي لم نعد نضع لها اهتماما في يوميات الواحد منا، ولم نَكُ نلجأ لذلك التسويف ويدفعنا إليه إلا الخوف من المواجهة إذْ أن هناك مواجهة لا يمكن أن تؤجل؛ وحتى التأجيل ليس هنا علامة للحسم وإنما علامة للخوف، وهو ذلك الخوف الذي لم تتضح بعد معالمه؛ مع أنها موجودة وهذا انعدام الرؤية قد لا يحجبها بل العكس يؤجلها ربما لهذا السبب يمكنني القول أن تلك المعارك المؤجلة خسارتها مضمونة.

منك، وأنت؛ إني لأَضْحَكُ حينما أصل إلى ضالَّتي، والتي يقال لها أنت، وهي ليـــست إلا تلك الضالة، التي ضلتني عن الطريق فترة من الزمن!! ليست بالقصيرة، حتى ضللت كل الطرق، وحتى تلك التي في نهاية كل منعطف منها أنت، أو شيء ينتمي إليك، ربما هو يشعرني بلحظة وشاية، أو سرور بأني قد وجدت بعضا مما قد يدلنـــي عليك وأنا مسكين "غلبان" انتظر لحظةَ خاطرة منك أو كلمة عابرة قد تسقط من فاك، فتلتقطها تلك الحواس، التي لم يك شغلها الشـاغل إلا أنتِ؛ فمرة ماذا أكلت، وماذا شـربت، ومرات كثر أين ذهبتِ ومتى عدت؛ إني لأضحك مرة أخرى حينما لا تكون الوجهة ثابتة وهي تلك الوجهة التي يضعها الواحد منا نصب عينيه لا يَحِيدُ عنها، وأنا ذنبي الوحيد، أن وجهتي هي أنت؛ وهي وجهة متنقلة متقبلة، تصـــرفها حوادث الســـنين ربما لم تكن إلا مخاض لتلك الســـنين، والتي قضيت في ضيافتـــك. -إني لم ألجأ يوما لهذه السبيل -أي الكتابة- إلا لأنني قد كنت -من قبل- مدركا أن حروفي حينما تلتقطها يديك تلك، والتي لم يحدث أن التقطتْ

شيئا إلا وتغيَّر معناه، لأنها تصبغ جمالا وحلة جديدة على كل شـــيء تلمســـه وعســـاني أنا؛ وحروفي أن تجد قبولا عندك.

-تحيةً لك خالصـــة، وإن قبلتِ هذه، وإن أعرضـــتِ فلك شكران، إلا أنك لم تعرضي، وإن أعرضتِ فإن الذي قصدته هذه المرة ليس أنت.

كلمة اعتذار

.. لمن لا لأحد سوى نفسي..

ونفسي وحدها هي التي تستحق مني اعتذار..

وبعض الأنفس الأخرى والتي قد تتشـــابه معها في كل شــيء.. عدا الإصــرار، والنفس الطويل؛ ذلك الذي لا يكل ولا يمل ذلك الشـــخص الذي يحمل بذورا منه في قلبه، أو عقله.

كلمة اعتذار أخرى.

هذه الكلمة ليســـت مثل الكلمات لأنها لا تأتي إلا في النهاية لو أنها كتب لها أن تكتب أو تســـمع أو تجد فرصـــة في أن يتلقاها من يســـتحقها، وكثير هم الذين يستحقون أشياء، ولكن بعضا من الكبرياء يمنع الحقوق أن تصـــل إلى أهلها في الوقت الذي كان من المفترض أن تصل فيه.

ولا أفهم كيف يجد الناس صـــعوبة في الاعتذار وكيف يجدوا صـعوبة -أيضـا- في قول كلمة "شـكرا" إن الناس صـعَّـــبوا بعض المسـائل على أنفسـهم، فصـعبتْ عليهم، حتى أنهم حملوا هـــــذه النفوس ما لا تطيق؛ والحقيقة هي أن الحياة، والأشـــياء كلهـــا بسيطة، وسهلة، ولكن على من!! طبعا على الذي بسطَّها على نفسه.

والناس بشكل عام طيبون، وطيبون جدا، حينما تجد البعض منهم، وتُخـالطهم وتســـمع أصـــواتهم، حزنهم، وضـحكهم وكل ما له علاقة بهم، ولكن سـيئون وسـيئون

جدا، حينما تسمع بعض الأشخاص يتكلمون عنهم ويتكلون بكل حقد وبكل أنانية هنا تجد نفسك تقف في المنتصف، وتحتار، هل تؤيد نفسك أم لا تؤيدها، فيما قالتْ لك، وفيما قال الناس لك، الناس أيضا كل الناس ومسكين هو من يسمع كلامهم، ويؤيدهم عليه، أو من يشغل نفسه بهم؛ هذه الفقرة كتبتْ زيادة وكان من المفترض أن تكون في نسخة الكتاب القادمة، أو في - الطبعة الجديدة- ومسكين أنا؛ لأني لم أقدرْ على الطبعة الأولى، كيف يمكن لي أن أحلم بالطبعة الثانية، أنا ما زلت عاجز عن الأولى.

-إني لم يحبب إليَّ شيء مثل الشكر، أو الاعتذار؛ لأني بهكذا حال، وحينما أقول تلك الكلمة التي تستحق أن تقال وسواء؛ هي كانت كلمة شكرا، أو عذرا؛ فإنني حينما أقول تلك الكلمة فإني أشعر أن هناك طاقة كانت تنبعث منها حرارة في داخل كل شخص، قد تلاشت تلك الطاقة وتبددت، وحتى أصبحت مثل خبر كان، وهو الخبر

الذي كان علينا دوما بأن نكون كلنا قد خصصنا له مكانا، في عقلنا الباطن، وهو العقل الذي يزن كل شيء.

-إن بعض الكلمات لم تأت من فراغ؛ وربما يرجع السبب لذلك كَوْنَها تُثير شيئا في النفس!، وبالذات في تلك النفوس، والتي من شأنها أن تتلقى تلك الكلمات، وأيًّا كانت! فإنها نادرا ما قد تثير الكثير، في نفس ذلك الشخص، الذي يقولها، وحتى ذلك الذي يتلقاها؛ إن الكلمة أشد وقعا على النفس من وَطْئَةً ذلك السيف والذي يبدوا من اسمه، أنه يجعل من أي شيء يجده في طريقه بأن يحوله إلى أشلاء لا يمكن أن تجمع؛ وحتى لو مضى الزمن عليها، فإن الكلمة يتلقفها القلب، كما يتلقف ذلك الجسد، أو الجسم "الجروح-الندبات" ولكن الأمر حينما تكون هناك علاقة للقلب به، فإنه يسوء أكثر، مع أنها سَوْءَةٌ يمكنها أن تكون القاسم المشترك بين الجسم، والقلب؛ إلا أن الجسم نادرا ما يتأقلم مع تلك الجروح والندبات، ويتغلب عليها كأن لم تكن يوما!؛ وكأنه لم يشعر بها يوما، ولكن الأمر يبدوا غير ذلك، وقد يسوءُ أكثر حينما يتعلق

الأمر بالقلب لأنه من شـأنه ألا يضـمر شـيئا يشـعر به، وينعكس ذلك على تصـرفات شـخص ما! قد أصـاب قلبه تلك اللوثة، لأن القلوب من شـأنها أن تُعقد كل الأمور التي تتعلق بها؛ ولكن ذلك يجب ألا يُحيلـنا إلى أن نترك القلب جانبا، دون أن نُعيرَه أيَّ اهتمام بل العكس يجب أن نتصـرف معه، كما أنه هو الذي يملك مفتاح تلك الشـفرة. "وعسى هذه الأسطر الأخيرة، والقليلة؛ أن تكون بمثـابة صكِّ غفران -لي- تكفر عني هذا الذنب، شكلا، ومضمونا وحيث لم أُراعي حرمة اللغة، ولا حرمة المجال؛ إلا أنني اخترت كلمات مسـتهلكة، ولن أقول مبتذلة، لأني تركتها لمن لم يجد له كلمة هنا قد تعبر عن مزاجه، ذلك الذي لم يَشْغَلْنِي لِلَحظة واحدة لأني لم أهتم له، ولم أهتم به "

كانت لي صـــــديقة كنت أحبها يوما قد مضـى من حياتي، ولا زلت إلى الآن أحبها بنفس تلك الدرجة من الحب والتي سبق وأن كنَّها قلبي لها يوما؛ مع أنها الآن في أكثـــر من موضع ولم تعد تلك الصديقة والحبيبة في وقت واحد، لكن حتى الآن لا زلت أحبها ليس لشيء وإنما لأني وجدت معنى لحياتي معها ومشـــكلة قلبي هذا، أنه حينما يكن حبا، أو كرها، فإنه قلَّما قد يتغير ذلك الذي سـبق وأن كنَّ؛ وعن تلك الأخت، أو الصـــــديقة يوما، أو الحبيبة في أكثرَ من يوم قد مضـى عليه الزمن؛ ومع أن أيامي معها تعد في الأصـــابع، لكنها كانت أيام مثمرة؛ لتلك الأخت أُهدي كل حرف كتبته؛ وكل كلمة قصدت بها شيئا أيَّ شيء كان! إلى تلك الأخت التي تَعْرِفُ وتُقَدِّرُ قيمة كل حرف كتبته بداعي التسـلية، أو بداعي الجدية؛ كان صـــــدرها الرَّحب معي دوما، رحبٌ -أيضـا- في كل ما أكتـــــبه لها؛ ولتلك الحبـــيبة التي قالت لي يوما: أو قلت لها "أني حينما أكتب شـــيئا يكون جميلا -في نظري- فإن أول شـــخص يراه هو

أنت؛ وقد قالت: أنها تشعر كونها لا زٰلت تملك نفس تلك المكانة والتي حُظِيَّتْ بها يوما عندي ولم تتغير؛ مع كل ما يحدث، وكلما قد يحدث بيننا من الجفاء؛ ولكنه الوفاء يا صـاحبي أو الحب يا صـاحبي يُجْبِرُنَا على فعل أشـياءَ قد تَجْرَحُنا، وقد يُجْبرنَا لفعل أشياءَ أخرى قد تقلل من قيمتنا، لكن الأمر حينما يتعلق بالذي سبق وأن أحببنا يوما فإن كل الأمور تهون؛ وكلها تقصر لأنه وحده يبقى فوقها؛ إلى تلك الصـديقة أهدي كل الحروف، التي سـبق وأن كتبها قلمي، وتلك التي سيكتبها فيما بعد!